القتال في ميادين الثقافة القومية

منحت جامعة القدس العبرية درجة الدكتوراه الفخرية لليهودي الصهيوني برنارد لويس . فمن هو برنارد لويس ؟ انه كاتب متخصص بتشويه التاريخ العربي وفق احدث اسس التمييز العنصري والدعاوة السياسية والحرب النفسية . ولكي نأخذ عينة أوفكرة عن جهود هذا الكاتب في حقل التشويه التاريخي نذكر أنه في أول العام الماضي نشر في مجلة Encounter فصلاً عن العلاقات بين العرب والزنوج زعم فيه أن العرب مارسوا العداء العرقي ضد الزنوج ، وأن العرب واسلافهم لم يكونوا أفضل من الرومان في التاريخ القديم والامريكان في التاريخ الحديث ، من ناحية معاملتهم للافارقة السود . بل انه استهل بحثه بجملة لتوينبي يمجد فيها هذا المؤرخ المنصف معاملة العرب للافارقة ويقول أن الحضارة العربية من الحضارات النادرة في التاريخ التي لم تتخذ موقفاً عرقياً من الافارقة بل عاملت السود على قدم المساواة مع العرب لأنها اتخذت موقف الاستعلاء على العرق الابيض في بيزنطة وروما . هذه الحقيقة التاريخية التي قررها توينبي ، قال عنها برنارد لويس انها اسطورة، وانه بفكره العلمي سيتصدى « للاساطير التي تمجد العرب».. وتحت ستار الفكر العلمي راح هذا الصهيوني ينفث أباطيله وافتراءاته بغية تحقيق هدفين: تشويه التاريخ العربي بحيث يغدو عاراً على العرب لامصدر فخر والهام لهم ، والايقاع بين العرب والافارقة لكسر التحالف التاريخي بين الامة العربية وافريقيا لتحل اسرائيل محل العرب . ولم تفت هذه المقاصد الخبيثة على احد ، حتى انها دفعت استاذاً امريكياً يعمل في جامعة طوكيو الى أن يكتب للمجلة بعد ثلاثة شهور من نشر البحث : « It smells Whity » . أي أن المقال تفوح منه رائحة التمييز العنصري — لا ضد السود بل ضد العرب ، هذه المرة — ومع ذلك فقد نشر هذا البحث وأمثاله في كتاب للباحث يجري تقريظ روحه « العلمية » على نطاق واسع !!

مثل هذا الكاتب المغرض كتاب كثيرون مغرضون منتشرون في الغرب . ولا يجوز أن نتركهم دون رد لأنهم يشوهون حقيقتنا لدى شعوب الغرب في اوربا وامريكا، ويمدون تأثيرهم على المفكرين والقراء في المعسكر الاشتراكي والعالم الثالث برمته .

ما العمل ؟

لقد اقترحت في ندوة أزمة التطور في الوطن العربي ، أن يتم تأليف جمعيات عربية متخصصة : الجمعية التاريخية العربية ، الجمعية التربوية العربية .. الخ . وأن ينتقى أفراد هذه الجمعيات بحسب جهدهم العلمي ومكانتهم الفكرية ؛ وأن يفرغوا الدحض هذه الافتراءات من جهة، ولتزويد العالم بمصادر علمية موثوقة تمثل وجهة النظر العربية في التاريخ العربي ، والفلسفة ، والرياضيات وغير ذلك . علينا أن نعرض الحضارة العربية القديمة على ضوء اشكالات الحضارة المعاصرة ، ونبين امتياز نظرتنا الانسانية وتفوقها على غيرها ، ونتخذ ذلك ركيزة لبلورة نظرة قومية راهنة الى مشكلات العصر الحاضر .

واقترحت أن ترتبط هذه الجمعيات بالادارة الثقافية في الجامعة العربية ، أو بمنظمة التربية والثقافة والعلوم التابعة للجامعة العربية، وأن ترصد لها الميزانيات الكفيلة بتغطية مصاريف حلقة بحث على أعلى المستويات دراسة ونشراً وترجمة . وقد قوبل الاقتراح بالترحيب ثم انقلب في البيان الختامي الى توصية «في تكوين النواة العلمية للتطور الحضاري» واقتصر مفهوم « العلوم » في التوصية على مفهوم العلوم الطبيعية وتركت الانسانيات جانباً، مع أن الندوة ذاتها أظهرت مدى تخبط مناقشيها واضطراب مفهوماتهم حول أمور التاريخ والمجتمع العربيين ومدى حاجتنا الى بلورة مفهوماتنا حول تاريخنا أولاً ومجتمعنا ثانياً ، لنصل الى تحديد ملامح الانسان العربي الجديد ـ كما أن معرفتنا لهذه الملامح تنير لنا الطريق الى فهم تاريخنا . .

واذ كانت الادارات الثقافية ، على تعددها ، في الجامعة العربية غارقة في تعقيدات الادارة والروتين والمشروعات السريعة التي تبيض وجوه المدراء في المؤتمرات ، فانني أقترح أن يتم تحديد عدد من هذه الجمعيات وأن يعهد الى كل حكومة من حكومات الأقطار العربية - وهي كثيرة العدد ماشاء الله - بأن تدرج في ميزانيتها بنداً تتعهد فيه الانفاق على جمعية أو أكثر من هذه الجمعيات ، على أن يتم تأليف الجمعيات بتسمية من الادارات

الثقافية ، حتى لاتأتي الجمعيات قطريه أو حزبية لأن هاتين الظاهرتين تتسللان الى كل مناخات العمل العربي الجماعي ، مثلما يتسلل برنارد لويس وأمثاله الى تاريخنا ليشوه صورتنا عند شعوب الأرض . وانني لعلى ثقة بأن أي قطر عربي لن يعجز عن تمويل أمثال هذه المشروعات الجليلة ، بحثاً ونشراً ، لأن نظرة سريعة الى ماتنفقة في بيروت وزارات الاعلام العربية لاصدار صحف ومجلات لاتفعل أكثر من أن ترسخ « الحدود » الايديولوجية ، فوق « الحدود » القطرية ، تجعلنا ندرك أن المال لايعوز العرب ، بقدر مايعوزهم العقل الذي يملي على المسؤول أن ينفق المال في وجوه أكثر جدوى من حملات الاعلام والورقيات والنشرات التي لايقرأها أحد .

اني لاأعرف من يحدد وجوه انفاق الأموال في الحكومات العربية ، ولكنني أود أن أؤكد لهؤلاء المسؤولين أن الساحة الثقافية ميدان قتال لايختلف في شراسته وعنفه وحاجته الى المتخصصين والمؤمنين والفدائيين عن أي ميدان قتال آخر ، وأن الحملات الثقافية أشد فائدة وأبعد أثراً من الحملات الاعلامية - فضلاً عن أنها في أهميتها تضاهي الحملات القتالية ان لم تبزها أحياناً .

أما للمثقفين العرب الذين رأينا بعضهم في الكويت يضيقون بتاريخنا وتراثنا وعقائدنا وتقاليدنا - فلاولئك نقول يجب أن تعرفوا أن الثقافة تعصب لاتسامح :تعصب لأمتك وتاريخك ضد المندسين والمشوهين الذين لا يجوز تركهم ولا التسامح معهم . كما ان الثقافة تصلب قومي وليست انحلالاً ولا انفلاشاً في اية طبقة من طبقات الكرة الارضية أو ناسها .

رئيس التحرير

الدكتور جمال حمدان

المعركة السورية الكبرى ١

لسوريا ، في الاستراتيجية كما في السياسة ، وضع خاص وبارز بين العرب ، فكما كانت دائماً قمة من قمم العروبة الشامخة طوال العصور الاسلامية ورائدة القومية العربية الأولى بلا منازع في العصر الحديث، كانت الجبهة السورية في الصراع العربي—الاسرائيلي قلعة شاهقة ، مجازياً كما هي حرفياً ، عسكرياً كما هي جغرافيا ، وقوة ضاربة أساسية بالغة الصلابة والعنف ، حفظت التوازن مع العدو على سائر الجبهات وفرضت عليه ضغوطاً مضادة مزقته من الوجهة الاستراتيجية وشتتته تشتيتاً .

واذا كانت الجبهة السورية واحدة فقطمن عدة جبهات محاربة في معركة ١٩٦٧، فانها في اكتوبر كانت الجبهة الوحيدة على الجانب الآسيوي ، وذلك بعد أن وقفت الجبهة الاردنية المترامية من أسف خارج المعركة . فكانت هي مع مصر قطبي الصراع المسلح الذي اتخذ بذلك محوراً أحادياً في هذه الجولة . وكما هو معروف ، فقد كان من الأولويات الأوليات في استراتيجية العدو الاسرائيلي ، الذي يقع جغرافياً في حالة حصار أرضي كامل داخل الوطن العربي، ألا يحارب قط في جبهتين أو أكثر في وقت واحد ، وعلى شبكة كثيفة كفء من طرق المواصلات الجيدة ، وعلى أساس من ضآلة مساحته الجغرافية ، كان العدو يعتمد على ، ويتعمد أن ، ينفرد بكل دولة عربية على حدة في حرب سريعة خاطفة ينثني بعدها فوراً الى دولة أخرى بضربة عاجلة مماثلة ، وهكذا . ولقد كان هذا بالضبط مانجح العدو في تحقيقه في ١٩٦٧ ، وكان عاملاً أساسياً من عوامل الهزيمة العربية.

العكس تماماً ماحدث في ١٩٧٣ . ففي ظل سياسة قومية تحريرية موحدة، وتحت استراتيجية عظمى مشتركة ، وبقيادة عسكرية واحدة ، كان التنسيق كاملا ومطلقا بين الجبهتين السورية والمصرية ، توقيتاً وتكتيكاً ، استراتيجية وتخطيطاً ، تصعيداً أو تخفيفاً .. الخ ، بحيث كانت الجبهتان في واقع الامر كفكي كماشة وضعت العدو لاول مرة وبصورة جدية « كالبندقة في الكسارة » — هذا تعبير بن غوريون القديم — ووضعت المعركة كلها « بين قوسين » من الارادة العربية .

وبين هذين القوسين تمزق العدو وانشطرت قواته وتبددت قواه ، وراح يلهث من الشمال الى الجنوب حيناً وحيناً آخر من الجنوب الى الشمال — دون جدوى مع ذلك . ولعلها لم تكن محض صدفة أن العدو اكتشف وعانى لاول مرة نقصاً حاداً في أسطول سيارات النقل وشعر بعدم كفايته وحاجته الملحة الى شراء بضعة آلاف من الشاحنات بسرعة لسد هذا العجز الذي خلقته لاشك ثنائية الجبهة بالنسبة له .

ولقد كانت وحدة المعركة العربية على الجبهتين عاملاً أساسياً بلا ريب في انتصار العرب ، وجاءت مصداقاً مجدداً وعملياً للقانون الخالد في صراع الأمة العربية مع اعدائها، ألا وهو أن مصير العرب معلق دائماً ورهن أبداً بوحدة القوة السورية والمصرية . سوريا — مصر كانت باستمرار وحدة جيوستراتيجية واحدة ، من وضع قدمه في احداهما قادته تلقائياً الى الأخرى ، وهما معاً قلب الوطن العربي جغرافياً وطليعته تاريخياً ، والذبذبات السياسية في مصير العرب ارتفاعاً أو اتضاعاً ، تحرراً أو استعماراً ، مرتبطة

أو بالعلاقات بينها ، ان وحدة تفككاً وان تضامناً أو تباعداً. ولقد أثبتت معركةاكتوبر الجانب الموجب في معامل الارتباط الكامن في هذه العلاقة واستبعدت الجانب السالب . لقد أثبتت المعركة أن في وحدة سوريا ومصر دائماً نصر العرب العسكري والسياسي .

هكذا كان دور الجبهة السورية التاريخي ، وهكذا كان في اكتوبر . ولئن كانتهذه الجبهة أقصر بكثير جداً من الجبهة الاردنية المجاورة في طولحدودها المشتبكة معالعدو، فانها قد عوضت عن الطول بالكثافة ، وعنالاتساع بالعمق ، وعن القرب بالصلابة .فكما أثبتت سوريا نفسها في الميدان قوة بالغة الضراوة قتالاً وحرباً ، حشدت أمام العدو قوة عسكرية تعتبر بكل المقاييس بالغة الضخامة عدداً وعددا « أكثر من ربع مليون جندي ، أو نحو ٢٦٠ ألفاً » وتعد بلا شك أعظم مما يمكن أن يتناسب مع حجم سوريا البشري ومواردها الاقتصادية . ولكن سوريا ، التي كانت قد نذرت نفسها وعاشت المعركة فقط ، كانت تخصص للقوات المسلحةنسبة من دخلها القومي ومن ميزانيةالدولة تعد من أكبر ماخصصته الدول العربية جميعاً ، ولم تكن لتقل في ذلك كثيراً عن العدو الذي يكرس كما هو معروف أعلى نسبة من الدخل القومي في العالم كله للتسليحوالجيش.

وعلى سبيل المثال ، فقد قذفت سوريا في المعركة بأعداد من الدبابات جاوزتفي بعض مراحلها الالف بكثير ، قيل في وقت ما ١٤٠٠ ، وأكثر منها من المدافع الثقيلة ، عدا مئات الطائرات المتفوقة ، فضلا عن قوة بشرية هائلة كثيفة . ويكفي للدلالة على ضخامة وكثافة هذه القوة السورية أنها ناهزت في خطوط معينة مثل ماقذفت به مصر تقريباً على جبهة سيناء في الجنوب . كما أن ضراوة وحدة المعركة على الجبهة الشمالية لم تكن تقل أبداً عنها في الجبهة الجنوبية . وفي وقت ما وصل عدد الدبابات المتصارعة من الجانبين الى نحو ٢٣٠٠ دبابة .

الى جانب هذه القوة الاساسية ، تدفقت على الجبهة السورية أيضاً قوات مساعدة وتكميلية من الدول العربية الشقيقة ، القوات العراقية خاصة ثم قوات سعودية وأردنية وأخرى مغربية . وقد ساهمت هذه القوات في تدعيم طاقة سوريا القتالية مساهمة طيبة .

كذلك لابد أن نضيف هنا القوات الفلسطينية الفدائية التي لعبت دوراً هاماً على الجبهة السورية ، مع وأمام وخلف القوات النظامية ، في قلب صفوف العدو وفي قلب

أرضه المحتلة ، واصابته بضربات مؤثرة وكبدته خسائر جسيمة في الأرواح والسلاح والمنشآت . وقد عبرت احدى وكالات الانباء الغربية عن دور الفدائيين الفلسطينيين هذا بقولها « في الوقت الذي تدور فيه معارك كبيرة بين الاسرائيليين والعرب في سيناء والجولان ، تدور هنا — في شمال اسرائيل — حرب أقل اثارة ولكنها مدمرة تماماً » .

وليس من شك في أن الدور الفلسطيني الباسل كان ، على روعته وحجمه ، يمكن أن يكون أعظم وأكبر ، شيئاً كجبهة ثالثة بكل معنى الكلمة ، لولا ما كان قد أصيب به من ضربات غير شريفة ولا مشرفة في مجازر سبتمبر (ايلول) وما بعدها ، ولولا أنه لم يتح له أن يمارس نشاطه من جبهته الطبيعية والفعالة وهي الجبهة الاردنية .

وعلى الجملة فلقد قدمت الجبهة السورية مسرحاً قتالياً لايقل ثقلاً وقوة وعنفاً وكذلك اقتداراً عما قدمت الجبهة المصرية . وقد أدارت سوريا معركتها هناك بكفاءة لاتدانيها إلا بسالتها وصمودها واصرارها على النصر وتدمير أكبر قدر من قوة العدو البشرية والسلاحية ، وفي ذلك كله نجحت الى أبعد الحدود بحيث أصبحت الجولان مقبرة أخرى للعدو الاسرائيلي ، مقبرة على سبيل التشبيه والتوسعة على العدو ا — ندية خضراء مشجرة معلقة ، حيث كانت سيناء مقبرة رملية فقط ، غبراء جرداء مسطحة .. لقد أعادت ملحمة المعركة السورية أمجاد الأموية في أعظم صورها ، ووضعت المقاتل العربي في موقعه الصحيح على القمة مسجلاً بطولات أسطورية وصححت كل أخطاء يونيو (حزيران) مثلما صححت مسار المستقبل .

المسرح الطبيعي

وهناك بطبيعة الحال اختلافات أساسية بين الجبهتين السورية والمصرية من حيث هما مسارح قتال . فالفارق جذري في الموقع الجغرافي من ناحية وفي بيئة المسرح الطبيعي من ناحية أخرى .

الموقع

فأما الموقع ، فان سوريا إذ تقع الى الشمال من أرض العدو دون فاصل يذكر من اللامعمور ، كفاصل صحراء سيناء ، لاتعرف فراغاً بشرياً أو عمرانياً على جبهتها ولا

منطقة عازلة تبعد خطوطها الأمامية عن خطوط العدو . الجبهة هناك متصلة وواحدة ومستمرة ، وكلها باستثناءات محلية نسبياً من المعمور ، وحتى مرتفعات الجولان وحوران وما حولها،هي من المعمور الخفيف على أقل تقدير . وغير بعيد الى الخلف من الجولان ، بل وشيكاً جداً ، يبدأ المعمور السوري بكتلته الرئيسية وبكامل كثافته السكانية وازدحامه البشري — دمشق نفسها لاتبعد إلا ٧٠ كم عن أقرب نقطة في حدود فلسطين المحتلة (لسان اسرائيل الحالي المتطاول في أعالي ومنابع الاردن) .

وعلى جانب العدو ، ربما بدرجة أكبر ، تتكدس الكثافة السكانية على الحدود وخلفها مباشرة تكدساً غير عادي . انها مرتفعات الجليل ، أغزر جهات شمال فلسطين مطراً ومن أكثفها انتاجاً وزراعة ، ومن أشد قطاعات اسرائيل ازدحاماً بمدن الحدود والمستعمرات من كيبوتز وموشاف ، حشدت هنا أو حشرت،اما بحكم الطبيعة الجغرافية وقناها ،واما لأغراض التوسع والتهديد الاستعماري المخطط .

معنى هذا على الفور أن جبهة الصدام وميدان القتال ليس فراغاً بشرياً خلواً من المدنيين على أي من الجانبين ، ولا هم بمنأى أو بمنجى من الخطر أو الضرب . ويكفي ان نتذكر هنا أن عشرات وعشرات من الآلاف من السكان المدنيين قد تعرضوا للطرد من الجولان مرتين على أيدي العدو ، الضاري حقده ، في كل حرب نشبت ، اثناء وبعد حرب يونيو ثم في اكتوبر على السواء. وقد بلغ مجموع هؤلاء اللاجئين الآن ١٧٠ ألفاً. وهذا الخطر لاينفصل بطبيعة الحال عن خريطة جغرافية السكان التي تتكدس فيها التجمعات البشرية بدرجة أو بأخرى على جانبي الحدود السياسية .

ولا شك ان هذا الخطر يصدق على العدو الاسرائيلي بدرجة أكبر ، إذ أنه يعاني بصفة خاصة جداً من نقص حاد في القوة البشرية . من هنا قلقه بل رعبه التقليدي والمزمن من الجبهة السورية بالذات ، حيث ان نيرانها تستطيع ان تصل ، حتى من وراء الخطوط العسكرية ، الى دائرة واسعة من شمال اسرائيل . ومن هنا أيضاً خوفه الدفين من أي تقدم مفاجىء أو سريع للقوات السورية ، الأمر الذي قد ينقل المعركة الى أعماق العدو المأهولة بكل مايعنيه ذلك من خسائر مدمرة بشرياً واقتصادياً .

ان الخطر السوري الكامن هو ، من وجهة نظر العدو ، خطر مزدوج،عسكري وبشري ، حيث الخطر المصري في الجنوب خطر عسكري فقط بحكم بعد المعمور

الاسرائيلي الشديد عن ميدان المعركة . وأطماع اسرائيل الاستعمارية في الجولان هي استعمار استيطاني واستراتيجي ، حيث هي في سيناء استعمار استراتيجي أساساًفحسب . وقد عبر دايان عن هذه الحقيقة بلا مواربة أثناء المعركة ، في تصريحاته السرية التي لم تعلن إلا بعد شهور ، حيث قال « رغم أن الجبهة المصرية كانت تسيطر على الانباء ، فان الاستراتيجيين الاسرائيليين كانوا في شغل أكثر بمعركة الجولان ، على أساس ان نجاح سوريا هناك يهدد قلب الاراضي الاسرائيلية أكثر مما يهدده التقدم المصري في صحراء سيناء » . كما اعترف بأن اسرائيل قصفت دمشق بالقنابل بعد أن أصابت الصواريخ السورية أرض — أرض المستعمرات الاسرائيلية .

ومن هنا وهناك جميعاً في النهاية نستطيع أن نفهم ذلك الحقد الضاري والروح الانتقامية الوحشية التي كان يضمرها العدو دائماً لسوريا ولموقفها الصلب غير المتهاون ، ثم توعده وارهابه لها علناً قبل المعركة وأثناءها . وسنرى ترجمة أمينة ، بقدر ماهي خسيسة ، لهذه الروح العدوانية والشراسة الحيوانية في كل مراحل المعركة تتمثل في تركيزه عمداً على الأهداف المدنية والسكان المدنيين العزل من السلاح .

المسرح الجغرافي :

هذا عن الموقع الجغرافي . أما عن المسرح الطبيعي أو البيئة الجغرافية للجبهة السورية فتختلف كثيراً بطبيعة الحال عنها على الجبهة المصرية . فأولاً ، ليس هناك ذلك الفاصل المائي المانع ، القناة ، يضع خطاً أو خندقاً صارماً بين المعسكرين . ان أرض المعركة متصلة بلا انقطاع،والمواجهة برية تصادمية مباشرة . وثانياً ، فبدلاً من البيئة الصحراوية الرملية والجافة في سيناء ، فان هاهنا بيئة جبلية صخرية وعرة قاسيةبقدر ما هي مرتفعة معلقة . وحتى المناخ يختلف : أمطار وبرودة وثلوج في الشتاء تغطي قمم الجبال وتحد كثيراً جداً من امكانيات القتال في ذلك الفصل .

واذا أردنا أن نوجز الطبيعة الطبوغرافية للجبهة السورية في ملامحها الاساسية فيمكن أن نقول ان التربة جرداء موحشة ، والأرض صخرية صلبة وحادة شديدة التضرس ، أصولها بركانية أحياناً أو غالباً ، بها طفوح بازلتية قاسية مدببة زجاجية حادة الزوايا ، منها ما لا يصلح حتى للآليات الميكانيكية أو ما يصلح للمدرعات بالكاد . والأودية الجبلية المنحوتة والأخاديد الغائرة ليست أفضل كثيراً نظراً لضيقها وشدة انحدار سفوحها .

باختصار ، الجولان كمسرح طبيعي ميدان قاس معقد لا يسمح الا بمعركة شاقة مريرة بالغة القسوة . فمن ناحية ، خطوط المواجهة متداخلة ومتشابكة في تعقيد شديد. ومن ناحية أخرى ، لا مجال هنا للمناورة أو تكتيك الاكتساح والالتفاف الذي تصلح له بيئة سيناء المكشوفة الواسعة المفتوحة . الأنسب هنا هو تكتيك الكمون والتربص خلف المرتفعات ثم الانقضاض المباغت . في جملة واحدة ، فرص المناورة هنا أقل ، وفرص المفاجأة أكثر .

وعلى الجملة فان المسرح الطبيعي ، وبالتالي أساليب القتال معه ، أقرب نوعاً في الجبهة السورية الى ظروف الحرب في أوربا الغربية الباردة المطيرة ، الغابية الجبلية ، منها الى طبيعة حرب الصحراء المطلقة التي تمثلها جبهة سيناء خير تمثيل . والمعركة نفسها هنا « رأسية » معلقة كما قد نقول ، حيث هي « أفقية » مسطحة على جبهة القناة .

ونحن نستطيع أن نفهم هذه الحقائق أكثر، ومعناها الاستراتيجي أيضاً، اذا تمثلنا في أذهاننا خريطة المنطقة الجغرافية . فالقطاع الذي احتلته اسرائيل في يونيو (حزيران) هو الركن الجنوبي الغربي الأقصى من رقعة سوريا السياسية . شكله العام مستطيل طولي تقريباً ، مساحته ١١٥٠ كم مربعاً ، أبعاده القصوى نحو ٧٠ كم بالطول ، ٢٥ كم بالعرض . وهذا الرقم الأخير يحدد بالتقريب امتداد جبهة المواجهة المباشرة مع العدو . بالطول ، تمتد الرقعة المحتلة من الأجزاء الجنوبية من جبل الشيخ في الشمال حتى مصب نهر اليرموك في نهر الأردن حيث تشترك الحدود السورية مع الأردن وفلسطين في الجنوب . أما بالعرض فتمتد الرقعة من خط الحدود السياسية الذي يتتبع قمم جبل الشيخ في الشمال ثم وادي الأردن والحولة حتى طبرية في الجنوب . هذا من ناحية الغرب . أما من الشرق فان حدود الرقعة تتعرج في تقوس عام ، أقصى نقطة فيه شرقاً هي الرفيد .

وعلى هذا الاساس فان الجزء الاكبر من الرقعة تغلب عليه المرتفعات والارتفاع. ولكن الارتفاع يتغير ويتدرج على محورين . بالطول يزداد السطح ارتفاعاً باطراد كلما اتجهنا شمالاً ، من سهول وادي اليرموك في أقصى الجنوب الى أعلى مرتفعات وذرى جبل الشيخ في أقصى الشمال . أما بالعرض فان المرتفعات تنحدر بشدة وبسرعة غرباً نحو وادي الاردن الرئيسي ، وشرقاً بالتدريج الوئيد نحو مرتفعات حوران وبادية

الشام . وبهذا يتقوس سطح المرتفعات بصورة عامة ولكنها غير منتظمة أو متناظرة ما بين الشرق والغرب . وفي المحصلة العامة ينقسم سطح المنطقة المحتلة الى ثلاثة قطاعات هي من الشمال الى الجنوب : جبل الشيخ ، هضبة الجولان ، سهل اليرموك .

فأما قطاع جبل الشيخ فيشمل نحو ثلث سلسلة الجبل التي تعرف أيضاً بجبل حرمون والتي تسودها الصخور الجيرية . متوسط ارتفاع القطاع يتراوح بين ١٠٠٠ ، ١٥٠٠ متر ، بينما تصل القمم الى أكثر من ٢٨٠٠ متر أحياناً بحيث تغطى بالثلوج الدائمة طول العام فتبدو القمم بيضاء معممة كالشيخ – من ثم الاسم . والمسرح الطبيعي هذا كله وعر للغاية يصعب اختراقه بالعرض من الغرب الى الشرق حيث يعد مانعاً طبيعياً خطيراً . ويتحكم الجبل بارتفاعه في كل الدائرة التي حوله بما فيها القطاع الاوسط .

هذا الاخير هو المرتفعات السورية بالمعنى المحدد والتي تسميها الصهيونية الجولان . هي تمثل الجزء الاكبر من الارض السورية المحتلة ، وتتوسطها مدينة القنيطرة ، كبرى مدنها وعقدة مواصلاتها ومفرق طرقها الجبلية الاستراتيجية . ترتكز الهضبة في الشمال والشمال الغربي الى كتلة جبل الشيخ ، ولكنها أقل ارتفاعاً ، بين ١٠٠٠ ، ٥٠٠ متر في المتوسط . غير أنها تندفع على سطحها سلاسل جبال وتلال ومرتفعات أعلى « كتل الفرس مثلاً » ، كما تخططها الاودية بالطول والعرض . أرض الهضبة حمراء رمادية ، تربتها بركانية غطت قاعدتها الجيرية القديمة الطفوح البازلتية الداكنة وخطوط المخاريط البركانية الحديثة التي تنتشر على سطح الهضبة من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي عامة .

وعموماً ترتفع الهضبة نحو ٣٠٠ متر فوق مستوى منخفضات وادي الاردن الاعلى في فلسطين المحتلة ، ومن ثم تتحكم في كل مستعمرات العدو ومواقعه في وادي الحولة والاردن وطبرية . ومن ناحية الحركة فان الارض صالحة على العموم للعمليات الميكانيكية ، ولكنها تظل قاسية للغاية . والسفوح والمنحدرات الغربية لهضبة والتي تطل على وادي الاردن هي بالتحديد اصلح طريق للحركة بين الشمال والجنوب . وعليها بالفعل يمتد المحور الشرياني دمشق – القنيطرة – جسر بنات يعقوب .

أخيراً لايبقى الا قطاع من السهول المتموجة في الجنوب والجنوب الشرقي من الأرض السورية المحتلة ، تلتية في الشمال ، تتدرج باعتدال نحو وادي اليرموك في الجنوب ووادي الاردن في الغرب . والمنطقة مفتوحة بسهولة للحركة والعمليات الحربية ولا تمثل مشكلة طبيعية أو عسكرية خاصة .

واذا كانت تلك هي القطاعات الطبيعية لأرض الجولان ، فانها تنعكس مباشرة على قطاعاتها العسكرية . فرغم أن الجولان رقعة مستطيلة تمتد من الشمال الى الجنوب ، ورغم أن الجانبين المتحاربين يقع احدهما الى الشمال والآخر الى الجنوب ، فلا يفهم المنطقة تماماً كمسرح للعمليات الحربية من ينظر الى معركتها كمجابهة بين شمال وجنوب بالضبط . فليست المعركة اندفاعاً مستقيما كالسهم المرسل ينطلق من أقصى الشمال أو العكس ، ولكن المجابهة أدنى في الواقع أن تكون بين شرق وغرب . وهي الى ذلك تنقسم الى ثلاثة قطاعات بالعرض لكل منهما محور عرضي . وهي في ذلك كله تشبه في معنى ما مسرح سيناء الغربية .

ذلك أن جبهة الهجوم السورية تتمثل هنا في الحدود الشرقية لهضبة الجولان والاجزاء الغربية من هضبة حوران . فهذا هو المنطلق الطبيعي وقاعدة الانطلاق والوثوب المنطقية لاسترداد الجولان . والهجوم السوري يبدأ أساساً من الشرق على طول هذه الجبهة الطولية . وقد كان على طول هذه الجبهة بالفعل ، وبامتداد تتمتها الثانوية العرضية ، أن اقام العدو خطاً من الاستحكامات الطبيعية والهندسية الكثيفة التي تعتمد الى أقصى حد على الظاهرات الطبوغرافية من مرتفعات ومنخفضات وتلال وأودية ، وعرف في مجموعه « بخط آلون » . وقد كان من أبرز عناصر هذا الخط خندق صناعي من الاسمنت المسلح بعمق ٤ أمتار وعرض ٦ امتار وبطول ٢٠ كم على طول جبهة المواجهة . وقد حفر هذا الاخدود الغائر ، الذي رصع بالالغام الكثيفة ، لكي يمنع المدرعات والآليات السورية من الاقتحام . ولكن القوات السورية عبرته ، كما سنرى ، على جسور حديدية رغم أنف العدو ورغم نيرانه .

واذا كان الشرق هو المصدر الطبيعي للهجوم السوري ، فان هدفه بعد ذلك هو التقدم بعرض الجولان على ثلاثة محاور عرضية رئيسية تحاول فيا بينها أن تمزق قوات العدو الى عدة جيوب محاصرة لتعزلها عن بعضها البعض وتضربها على حدة . ويمكن أن يتشعب كل محور منها بعد ذلك في داخل الهضبة الى شعبتين شمالاً وجنوباً ليتصل بعضها ببعض امعاناً في تفتيت العدو وتطويقه . فاذا ما قاوم أو تقهقر فانه يدفع غرباً على السفوح الغربية المنحدرة حيث الظروف الجغرافية غير ملائمة للعمل . وهذا أيضاً هو الذي يفسر أن المعركة كانت تدور في جميع مراحلها على القطاعات الثلاثة في وقت واحد مها تغيرت مصايرها .

هكذا تنقسم أرض المعركة الى ثلاثة قطاعات عرضية يتوسط كلا منها تقريباً محوره العرضي الاساسي . غير اننا لابد أن نذكر أولاً أن القطاعين والمحورين الشمالي والجنوبي يعتبران ثانويين نسبياً ، أما القطاع الاوسط ومحوره فهما الاهم على الاطلاق . فالقطـاع الشمالي أقلها مساحة ، ويتركز على محور مجدل شمس – بانياس . والقطاع الاوسط اوسع مساحة ، ومحوره يعد العمود الفقري للتقدم والحركة في المعركة كلهـا . ويمتد هذا المحور من الحميدية الى القنيطرة الى حوالي منطقة سهل الحولة عموماً (بحيرة الحولة سابقاً) . أما القطاع الجنوبي فهو أكبرها مساحة ، ومحوره يمتد من منطقة الرقيد والجوخدار في الشرق الى منطقة بحيرة طبرية في الغرب بعامة ، والى فيق والحمة بخاصة .

سلبيات يونيو (حزيران)

تلك اذن صورة لفظية لمنطقة المرتفعات السورية ، نستطيع أن نرى منها أنه كان لسورية تقليدياً ميزة استراتيجية وعسكرية هامة جداً على العدو الاسرائيلي، الا أنها من أسف ضاعت في يونيو (حزيران). تلك نقصد ميزة الارتفاع المسيطر والطبوغرافيا الحاكمة . فالمرتفعات السورية كتلة عالية تشرف من عل على منابع الاردن وسهول الحولة وطبرية وامتداداتها وكذلك على منحدرات هوامش الجليل الاعلى في شمال اسرائيل . وبهذا تبدو المرتفعات السورية كهضبة شبه مائدية مشرفة ، كالقلعة الشماء ، سفوحهـا الوعرة في الجنوب والغرب تميـل كالمنحدر التقليدي للقلاع glacis ، ومن سطحهـا تستطيع أن تكشف كل السهل اسفلها في داخل اسرائيل وتسيطر على مواقعه ومستعمراته بحيث تقع هذه مباشرة تحت نيرانها ومدفعيتها البعيدة المدى .

ولقد كانت اسرائيل تشكو دائماً بمرارة من وضعها الطبوغرافي غير الملائم بالنسبة للمرتفعات السورية ، وكانت لا تخفي قط أطماعها ونواياها في اغتصابها والسيطرة عليها عند أول فرصة . وقد واتتها هذه الفرصة من أسف في يونيو ، حين احتلت قطـاع الجولان بأكمله حتى سفوح جبال لبنان الداخلية وجبل الشيخ . وبذلك تحـن موقفهـا الاستراتيجي كثيراً جداً من ناحية ، لأن مرتفعات الجولان توفر للعـدو الأمن التام في الجليل الاعلى والاسفل وغور الاردن.ومن ناحية ، لانها خط دفاع طبيعي عميـق وعريض ضد أي هجوم سوري يأتي من الشمال . ومن ناحية ثالثة ، لأنها في الوقت نفسه تقدم قاعدة انقضاض مثالية للهجوم أو للهجوم المضاد على سوريا هذا فضلاً عن أنها باتصالها المباشر بحدود الأردن الشمالية تعطي العدو فرصة فتح جبهة ثانية مع الاردن في حالة دخول الحرب .

على أن سوريا لحسن الحظ لم تفقد كل ميزتها الطبوغرافية القديمة ، فقد ظلت محتفظة بمناطق جبلية وهضبية مرتفعة خارج الجولان ، سواء في كتلة حوران شرقاً أو في بقية جبل الشيخ شمالاً أو في سلسلة لبنان الداخلية شمالاً وغرباً . وبهذا فقد كان الطرفان المتواجهان يقفان على قدم المساواة طبوغرافياً من حيث الارتفاع والوضع الاستراتيجي المشرف .

ولقد كان في وجه هذا الوضع المتكافىء بالدقة أن لجأت اسرائيل بخبث الى اقامة مرصد محصن كنقطة مراقبة شامخة على قمة من أعلى قمم جبل الشيخ لتكشف منها بقية المرتفعات السورية وكل مواقع القوات السورية في جبهة المواجهة. وقد كان هذا المرصد – الحصن مبنياً على غرار دشم خط بارليف ، الا أنه معلق في خط السماء على أعلى الجبل، فقد كان قلعة حجرية مسلحة متعددة الطوابق ، ولكنها بكاملها مدفونة تحت الأرض في باطن الصخر ، ومدعمة بأسقف وأبواب من الصلب يستحيل تحطيمها حتى بالقذائف المباشرة الثقيلة . وسنرى القيمة الاستراتيجية والدور العسكري الذي لعبه هذا المرصد في المعركة .

ومن الناحية الأخرى، فان اسرائيل اذا كانت قد امتلكت منذ يونيو (حزيران) ميزة الموقع المرتفع كسوريا أو شاركتها هذه الميزة ، فان هذه المشاركة لم تكن مطلقة أو كاملة . فلقد أصبح على خطوط مواصلاتها وامداداتها ، التي طالت كثيراً وصارت معرضة أكثر ، أن تصعد من السهل في الجنوب الى هضبة الجولان وهي آتية وأن تهبط من الهضبة الى السهل وهي ذاهبة . وهذه الحركة الصاعدة الهابطة عبء شاق جسمياً وميكانيكياً بطبيعة الحال . ولم يكن هكذا وضع خطوط المواصلات السورية ، التي تنساب باطراد ورفق نسبياً مابين مرتفعات الجنوب ومنطقة التلال والمرتفعات المحيطة بغوطة دمشق والمؤدية اليها ، وهي المنطقة التي تتعاقب عليها ثلاثة خطوط دفاعية قوية تمثل الدرع الصلبة للعاصمة وتناظر في صورة مضغوطة الخطوط الدفاعية الثلاثة ما بين القناة والقاهرة .

مراحل المعركة

تلك هي الفروق الاساسية بين مسرح المعركة في كل من الجولان وسيناء . وقد انعكست هذه الفروق بطبيعة الحال على الخطط والعمليات الحربية في المعركة . ففيما

عدا الاستحكامات الطبيعية والهندسية الكثيفة على الجانبين ، لم تكن هنا على الجولان مشكلة عبور مائي، وكان التقدم الارضي ممكناً منذ ساعة الصفر فور اجتياز الخندق . ومن الناحية الاخرى فقد كانت جبهة الجولان تشبه جبهة سيناء من حيث أن عليها هي الاخرى شبكة من صواريخ الدفاع الجوي تعد أيضاً من أكثف وأكفأ ما على الارض من نوعها ، تعززها كذلك غابة من المدفعية الثقيلة شبيهة بشقيقتها على الجبهة المصرية نوعاً وكثافة وقوة . ولعلنا نضيف كذلك ذلك القدر من التشابه بين الجبهتين من حيث الامتداد المستطيل والانقسام الى ثلاثة قطاعات ومحاور عرضية .

وفيما بين هذه الاختلافات الطبوغرافية والمشابهات العسكرية . جاءت المعركة السورية شبيهة بالمعركة المصرية الى حد أو آخر، بل الى حد بعيد ، في كثير من خططها وخطوطها وخطواتها ، وأخذت مراحل وتطورات مناظرة الى حد معين سواء في حركة المد والجزر الميدانية أو في الانجازات التدميرية أو في النتائج الاقليمية . وفيها أيضاً تعددت أسلحة المعركة ما بين البر والبحر والجو . كما كانت مجالاً لبعض من أضخم وأعنف معارك الدبابات والمدرعات في العصر الحديث ، لا تقل هي الاخرى عن أكبر ما عرفت الحرب العالمية الثانية، قذف فيها بأعداد تعادل ان لم ترجح أحياناً ماقذف به في سيناء من دبابات في بعض المراحل . فالمقدر ان سوريا هاجمت في وقت ما اثناء المعركة بنحو ١٤٠٠ دبابة ، عدا مئات الدبابات العراقية التي شاركت في القتال . أما المعركة الجوية فلم تكن أقل ضراوة بالتأكيد ، وفيها أيضاً لعبت الصواريخ المضادة للطائرات دوراً حاسماً ومهلكاً لطيران العدو . وأخيراً قامت البحرية كما في المياه المصرية بدور أكثر من جانبي ، نشط وفعال ، على طول امتداد السواحل والموانىء السورية.

وعموماً يمكن أن نقسم المعركة بحسب تطوراتها وملامحها ونتائجها الى أربع مراحل ، تكاد تتعاصر ذبذباتها وارتفاعاتها وانخفاضاتها مع ما كان يحدث على الجبهة المصرية . وسنرى أن التدخل الاميركي هو القاسم المشترك بين هذه التطورات المتوازية والضابط الكامن خلفها دوراً وتوقيتاً ومصيراً . وهذه المراحل هي : الاولى ، مرحلة الاكتساح السوري (٦ — ١٠ تشرين الاول) ، الثانية: مرحلة الهجوم الاسرائيلي المضاد، (١١ — ١٤) الثالثة، مرحلة المد السوري الثاني «١٤ — ١٦ تشرين الاول» ، الرابعة: مرحلة التوازن النسبي « ١٧ — ٢٢ تشرين الاول» .

مرحلة الاكتساح السوري

بدأت مقدمات المعركة ، كما على الجبهة المصرية ، بعدوان اسرائيلي جوي وبري مدبر على بعض المواقع السورية . وفي ساعة الصفر نفسها ، الثانية بعد ظهر السادس من تشرين الاول، بدأ الهجوم السوري الجوابي. ويلاحظ أن هذا التوقيت اختير لتوحيد بدء المعركة في الجبهتين السورية والمصرية لتحقيق المفاجأة الكاملة للعدو من كل جانب. فأنسب توقيت للجبهة السورية حيث لا مانع مائي هو أول ضوء في الفجر . وهذا على العكس من الجبهة المصرية حيث يستدعي عبور القناة العمل في ظلام الليل وبالتالي البدء مع آخر ضوء في المساء .

في تلك اللحظة التاريخية انطلقت ١٠٠ طائرة قاذفة مقاتلة لتعطي العدو ضربة جوية خاطفة وقاصمة مكافئة لنظيرتها على الجبهة المصرية . ومعها كذلك بالضبط انطلقت المدفعية السورية الثقيلة في ضربة هائلة مكثفة — ١٠٠٠ مدفع ، كما على القناة — تدك مواقع العدو في اعماقه والساقه المختلفة. وكما حدث في الجنوب، فقد العدو كل توازنه: لقد حققت سوريا المفاجأة وانتزعت المبادأة ووضعت العدو على الدفاع وألقت به في دوامة من الاضطراب والارتباك البادي .

وفي حماية مظلة النيران الرهيبة تلك ، وفي ظل اهتزاز العدو ، زحفت جيوش المدرعات والدبابات السورية بقوة عارمة وبأعداد لم تعرفها الجبهة من قبل ، وراحت تكتسح مواقع العدو واستحكاماته ، كما قصفت كل مستعمراته في الهضبة . وكما كتب تشرتشل الحفيد « هجم السوريون بقوة أمامية قدرها ١٢٠٠ دبابة ، وهو أكثر من ضعف قوة المدرعات عند روميل في العلمين وأكبر من ذلك قوة » . وقد بدأ الزحف من الشرق على طول الجبهة بكاملها وفي مواجهة الجانب الشرقي من الجولان برمتها ، بينما أرسلت بعض القوات المحمولة جواً لاسقاطها على المواقع الخلفية على الجانب الغربي من الجولان .

ولقد كان مرصد جبل الشيخ بالذات من أول أهداف الهجوم السوري المنقض . فبواسطة القوات المحمولة جوا ، قام فرسان الجو « المغاوير » (الكوماندوز) السوريون باقتحام الحصن رأسياً وأفقياً ، جسدياً وتلاحمياً ، بحيث تحولت القلعة المدرعة الى مصيدة

موت لحامية العدو ، تماماً على نحو ماحدث لدشم خط بارليف في الجنوب . وهكذا سقط المرصد في الساعات الاولى من اليوم الاول ، وحرم العدو من نقطة مراقبة خطرة .

أما على الارض ، فقدتقدم الزحف البري من الشرق على المحاور الثلاثة،ونجحت كلها في اختراق قوات العدو وتحصيناته منذ البداية . وتقدمت القوات السورية المدرعة على كل محور لينشعب كل منها الى شعبتين نحو الشمال والجنوب ؛ وتم الاتصال بين كل هذه الشعب بحيث تمزق العدو الى جيوب وتم تطويق منطقة القنيطرة بصفة خاصة بفكي كماشة من الشمال والجنوب . وفي الجنوب كانت الاندفاعة السورية قوية بنوع خاص ، وكان خطرها شديداً لشدة كثافتها ولقربها من حدود العدو . وقد قال الاسرائيليون ان السوريين كانوا يفوقونهم عدداً في هذه النقطة بنسبة عشرة الى واحد . وقطع السوريون طريق الامدادات الاسرائيلي الرئيسي بالقرب من جسر بنات يعقوب وهددوا أعالي وادي الاردن . وقد فشل العدو بطيرانه ومدرعاته في ايقاف الزحف ، وتكسرت كل هجماته المضادة . وفي اليوم الرابع وحوالي نهاية هذه المرحلة كان قد تم تحرير الجزء الأكبر من الجولان بالفعل .

والواقع أنه منذ بدأ الزحف السوري العظيم « وضحت على الفور ، وبشكل وحشي الطبيعة المكشوفة العارية للمواقع الاسرائيلية » كما كتبت الصنداي تايمز ، وكما تضيف الصحيفة نفسها ، لم تتوقف موجة الزحف السورية الاولى للاستيلاء على المراكز الاسرائيلية القوية في هذه المواقع ، وانما تجاوزتها كالدوامة الكاسحة . وتلك كانت استراتيجية الاقتراب غير المباشر ، اختراقاً وتطويقاً . وفي هذا علق قائد مدرعات اسرائيلي « انهم لم يبقوا على الطرق . لقد ظلوا يتدفقون الى الداخل كالماء ، يشقون طريقهم في أي مكان يستطيعون . أما التصدي للمراكز الاسرائيلية القوية فكان مهمة الموجة الثانية » . وبهذا أصبحت الهضبة كلها مسرحاً مختلطاً أشبه بعالم الكوابيس تدور فيه معارك بريةمنفردة يائسة وقتال وحشي يداً بيد ، بينما كانت القوات الاسرائيلية تتراجع شبراً شبراً .

وبصفة عامة كانت صورة الموقف الاساسي خلال أيام هذه المرحلة الاربعة أو الخمسة هي كالآتي : القوات السورية المدرعة على الهجوم ، معها المبادأة والمبادرة ،وفي زحف مستمر عنيد على طول القطاع الشمالي من مرتفعات الجولان ، العدو، الذي يحتاج الى ٢٤ ساعة في تسلق الطريق الجبلي الملتوي من روش بيناه في الجليل عبر وادي

الاردن الى هضبة الجولان ، يتقهقر بغير انتظام رغم مقاومة مستميتة تكسر له خلالها هجومان مضادان رئيسيان قام بهما بكل حشد وعنف . وفي نهاية المرحلة كان جبل الشيخ ومعظم القطاع الشمالي وجزء كبير من القطاع الاوسط قد تم تحريرهـا ووصلت القوات السورية الى مشارف القنيطرة عاصمة الجولان الاقليمية والاستراتيجية .

بل لقد اعترفت اسرائيل ان طلائع المدرعات السورية توغلت في وقت ما في نهاية هذه المرحلة في عمق شمال اسرائيل ووصلت الى رأس منحدر وادي نهر الاردن ، وأوشكت أن تصل الى حافة التلال المطلة على الجليل ، الى مسافة تتيـح شطر القوات الاسرائيلية في الشمال الى نصفين. ولو قد كان هناك اسفين متقدم آخر ليهبط الى الضفة الاخرى من النهر وليكونا معاً فكي كماشة لاستطاعا اقتطاع شريحة من أطراف اسرائيل ، لساءها الشمالي الناتيء ، « كقضمة التفاحة » كما وصفها أحد المعلقين الغربيين « جيرار ليجرات » .

وفي وجه هذا التفوق السوري المطرد على الارض ، وأمام الخسائر الفيفـة التي مني بها العدو في المدرعات والقوى الميكانيكية ، وضع هـذا ثقله في سلاحه الجوي . والحقيقة أن ضراوة وكثافة الهجوم الجوي للعدو كانت تتناسب تناسباً طردياً مع هزائمه وخسائره على المسرح الارضي . فباستثناء الليل ، لم تنقطع غاراته الجوية المكثفـة ، أحياناً بمئات الطائرات ، على المواقع والقوات السورية ، وبصورة قيل « فيتنامية ». غير أنه كان كلما تصاعد بجماته الجوية، تصاعدت خسائره من الطائرات بصورة مخيفة تماماً.

فلقد تصدى له الطيران السوري بكفاءة نادرة من ناحية ، وشبكة صواريخ الدفاع الجوي من ناحية أخرى ، تلك التي تحولت الى مصيدة قـاتلة لطيران العدو . واصبح مشهداً يومياً روتينياً مألوفاً في سماء المدن والجبهة السورية لقاء الصاروخ بالطـائرة فيما وصفه البعض سخرية « بقبلة الموت » . اذ كانت طائرات العـدو تتساقط كالفراشات ، وطياروها يصادون بالعشرات . « يبدو أن عملية القبض على الطيارين الاسرائيليين — هكذا كتبت احدى وكالات الانبـاء — أصبحت هواية عند الدمشقيين الذين أمسكوا بعشرات منهم حتى الآن » ! أو كما عبر مراسل آخر ساخراً « لأول مرة في التاريـخ يجد الطيار المعادي الذي يهبط بالمظلة جميع أهل البلد في استقبـاله » ! وهكذا تحولت الحرب الجوية الى عملية استنزاف رهيبة لسلاح طيران العدو ، الذي فشل بذلك في شل الزحف السوري المتقدم على الجبهة .

هنا لجأ العدو الى فتح جبهة جانبية أخرى تستهدف اساساً تحويل ثقل القوات السورية بعيداً عن الجبهة في الجولان ، دون جدوى مع ذلك . فتكررت غاراته البحرية على موانيء وسواحل سوريا ، خاصة اللاذقية وطرطوس ثم بانياس . غير أن القوات البحرية والدفاع الساحلي السوري تصدوا بنجاح تام لهذه الهجمات وأغرقوا كثيراً من وحدات العدو . وحين واجه العدو الفشل على هذا النحو براً ثم جواً ثم بحراً ، عاد فتحول بسلاحه الجوي الى ضرب الاهداف المدنية والاقتصادية ، الاحياء السكنية والمدنيين في دمشق وحمص وغيرهما ، مصافي البترول والمنشآت الصناعية في حمص وطرطوس وبانياس .. الخ . وفي هذه الهجمات الوحشية غير القانونية ، التي كانت وحدها دليلا ساطعاً على عجز العدو في ميدان القتال الحقيقي ، حدثت خسائر جسيمة في الأرواح والمنشآت .

ولكن الطيران السوري رد عليها بقصف منشآت بترول العدو في حيفا وغير ذلك من الاهداف الاستراتيجية والحساسة في قلب العدو وعمقه بشمال اسرائيل . كذلك انصب القصف المدفعي الثقيل الكثيف والقصف الصاروخي البعيد المدى « صواريخ فروغ أرض — أرض » على المستعمرات الاسرائيلية في سهل الحولة والجليل ومرج ابن عامر . وقد اضطر العدو الى اخلاء الكثير من هذه المستعمرات وتهجير سكانها . وبعض هذه المستعمرات يقع على بعد ٣٣ ميلا من أقرب نقطة سورية من خط وقف اطلاق النار السابق ، كما أعلنت اسرائيل في شكاواها العديدة ، والخادعة ، للامم المتحدة ، بل وإلى « مسافة ٥٠ ميلاً في عمق اسرائيل » كما كتب تشرتشل الحفيد .

مرحلة الهجوم الاسرائيلي المضاد

منذ اليوم الخامس أو السادس تبدأ مرحلة جديدة في المعركة . فقد حشد العدو كل احتياطيه الاستراتيجي من المدرعات تعززها قواته الجوية ، وقذف بها في هجوم مضاد محموم ألقى فيه بكل ثقله وحقده معاً ، بأمل أن يفرغ من الجبهة السورية ليتفرغ للجبهة المصرية التي زاد حرجه فيها الى أقصى حد . وقد حقق العدو بعض النجاح بالفعل، والهام أحياناً على المحاور الثلاثة ، واضطرت القوات العربية للأسف الى التراجع الى الشرق . والثابت أن التقدم السوري في المرحلة السابقة كان أسرع وأعمق من المرسوم بحيث ابتعد كثيراً عن نطاق حماية شبكة صواريخه الجوية من ناحية وبحيث لم يتسع له الوقت ليحصن مواقعه الجديدة من ناحية أخرى .

وقد ركز العدو الاسرائيلي على المحورين الشمالي والاوسط بصفة خاصة لأنهما أقرب الى تهديد دمشق نفسها كما يرتكز الاول منهما على جبل الشيخ ، أمـا المحور الجنوبي فطويل وبعيد عن طريق دمشق كما يعرض العدو لهجوم مضاد شامل من مرتفعات حوران. وحين وجد العدو أنه قد حقق نجاحاً كبيراً في القطاع الشمالي ، قرر أن يستثمر نصره الى أقصى حد . فحشد كل قواته المتاحة على محور القنيطرة — سعسع ، الذي يقع على الطريق الى دمشق ، لكي يقوم بهجوم شامل وساحق .

ورغم أنه واصل تقدمه وتجاوز خطوط وقف اطلاق النـار في قطاعها الشمالي ووصل قرب سعسع ، الا أن العدو كان قد لجأ الى الحرب النفسية يؤمّن بها هجومـه . فاطلق على العالم سيلا من الدعاية الكاذبة عن تقدمه وهمي الى دمشق، وصدرت تصريحات قادته بأنهم في الطريق اليها، على بعد أميال منها حدودها أولا بأول، وأنهم سيدخلونها في ٢٤ ساعة .. الخ . وبطبيعة الحال لم يتحقق شيء من هذا ولا الفيحـاء سقطت . وانكشفت أكذوبة الدعاية الاسرائيلية للعالم الذي عدها دعاية سخيفة وكانت موضعاً لتندره .

ذلك أن القوات السورية ، التي وصلت القوات العراقية ثم الأردنية لمساندتها ، قد صمدت بكل عناد وبسالة للهجوم المعادي وتصدت له باصرار مخيف . وقد لعبت مشاة الصواريخ في هذا الصمود دوراً كبيراً ، اذ كانت تتقدم ليلاً وتقترب من دبابات العدو ومدرعاته وتدمرها بالجملة . كذلك أدت القوات المدرعة السورية مع العراقية دوراً خطيراً في تكسير الزحف وايقافه ثم ارغامه على التراجع ، بحيث توقفت قوة العدو عن الحركة تماماً في يوم ١٤ أكتوبر تشرين الاول . وكان هذا هو الموقف الذي وصفه كيسينجر بأنه « عائم » .

مرحلة المد السوري الثاني

ومن هذه النقطة بدأت مرحـلة جديدة في المعركة . فمنذ اليوم الثامن واصلت القوات السورية التقدم جنوباً في القطاع الشمالي في وجـه هجوم مضاد جديد للعدو . واستمر الصدام سجالاً ثلاثة أيام، حين أعلن الرئيس السوري في اليوم العاشر أن القوات السورية تمكنت من تحرير مساحات كبيرة من الأرض المحتلة في القطاعين الاوسط والجنوبي، بينما أن مدفعيتها « تقصف الآن مواقع العدو في سهل الحولة وشمال طبرية » . ولعل هذه النقطة تحدد ذروة النصر والتقدم السوري .

وفي هذه الجولة دارت معركة من أكبر معارك الدبابات في التاريخ الحديث ، اشترك فيها من الجانبين نحو ٢٠٠٠ دبابة ، تغطيها سحابة كثيفة من الطيران . وعلى مدى بضعة أيام اتصلت المعركة التي تكبد العدو فيها خسائر فادحة على الأرض وفي الجو . وعاد الزحف السوري من جديد نحو الجنوب وبدأ التقدم فوق أجزاء من الأرض المحررة للمرة الثانية بعد أن تم طرد العدو منها للمرةالثانية أيضاً . فعلى محور القنيطرة — سعسع تم دفع العدو الى منتصف المسافة بين سعسع وخطوط ١٩٦٧ . وفي أقصى الشرق تم طرد العدو من تل الفرس ومنطقة القنيطرة ثم من هامش كبير من القطاع الجنوبي . وبذلك تمت دورة شبه كاملة نوعاً من المد والجذر ثم المد على جزء كبير من الهضبة انتهت الى حد ما لصالح سوريا .

المرحلة الاخيرة

ومنذ اليوم الحادي عشر من القتال ، وتماماً كما على الجبهة المصرية ، تبدأ مرحلة جديدة وأخيرة ، افتتحها العدو بهجوم مضاد شرس وعنيف ، شنت سوريا في وجهه هجوماً عريضاً وعنيداً حشدت له ، كما أعلنت اسرائيل نفسها ، « دبابات اكثر من الدبابات التي استخدمتها ألمانيا ضد روسيا في الحرب الثانية » . وقد استمرت هذه المعركة بلا هوادة لعدة أيام متصلة ، حقق فيها العدو بعض التقدم شمالاً ، لكنه تكبد خسائر فاحشة في قواته وعتاده . وقد استطاع العدو ، على محورين للتقدم شرق الجولان وغربها ، أن يحقق « ثغرة » في خطوط القوات السورية كتلك التي احدثها غرب القناة على الجبهة المصرية . ومنذ اليوم الخامس عشر والسادس عشر كان القتال مستميتاً حول جبل الشيخ مرة أخرى في الشمال . وبهذا كانت هضبة الجولان ، كلها أو بعضها ، قد تم اكتساحها وتبادلها أو استردادها مرتين من كلا الجانبين خلال المعركة ، أي خضعت لعملية مد وجزر مزدوجة .

غير أن الموقف العام بعد هذا تجمد نوعاً واتخذ القتال صفة محلية وتكتيكية غالباً . بهدف تحسين المواقع المحلية أو القيام بهجمات محدودة أو الرد عليها رداً محدوداً . ورغم استمرار المساجلات بالمدفعية والصواريخ فقد تحول القتال الى حرب استنزاف برية وجوية يتبادل فيها الجانبان الضربات المحدودة على التعاقب . وكان من الواضح أن الجانبين قد بلغا حد الارهاق والاعياء ، وأيضاً حد التوازن ، فدخلا في دور من « تناطح الكباش » كما وصفته « الشرارة » (دار الصياد ، بيروت) .

وخلف هذا المسرح ، كانت القوات العربية تعد لهجوم كبير حاسم ، ولكن قرار وقف اطلاق النار كان أسبق . وهنا ، كما على الجبهة المصرية ، كان أثر الامداد الأمريكي الخاطف قد بدأ يظهر على تطورات المعركة ، وتحول المد لصالح العدو بصفة عامة وان كانت خسائره في تصاعد جنوني . وكما على الجبهة المصرية أيضاً ، استغل العدو بخسة فرصة وقف اطلاق النار ليوسع رقعة الأرض التي يحتلها . فدفع بكل قواته ليختلس أكبر نصر ممكن في آخر لحظة متاحة . والمفهوم انه في نهاية القتال تماماً كان قد استعاد منطقة الجولان ووصل الى خطوط وقف اطلاق النار كما كانت قبل ٦ اكتوبر تشرين الاول ثم تجاوزها بنحو ١٠ كم على امتداد القطاع الشمالي ، مثلما فعل على الجبهة المصرية غرب قناة السويس . وكما على الجبهة المصرية ، فقد كانت سوريا تخطط لهجوم ساحق وشامل تكسح به العدو نهائياً حين أتى قرار وقف اطلاق النار ليترك الموقف على هذه الصورة . واذا كانت عملية الفصل بين القوات في الجولان لم تتحقق حتى الآن وتبدو صعبة شاقة بسبب أطماع العدو ، فقد فرضت سوريا عليه حرب استنزاف ضارية بكل الاسلحة الثقيلة سوف يكون لها ما بعدها بلا ريب .

على أننا ينبغي أن نلاحظ أن العدو اذا كان قد نجح في تجاوز خطوط ١٩٦٧ وتوسع في جيب محدود جديد عبرها ، فان السوريين أيضاً وفي الجانب المقابل جغرافياً قد نجحوا في التوسع جنوباً غرباً ووصلوا الى خطوط ما قبل ١٩٦٧ مع العدو ثم تجاوزوها وتعمقوا في أطراف أرض فلسطين المحتلة منذ ١٩٤٨ (حيث سبح الجنود السوريون بالفعل في مياه طبرية) . والفارق أن التوسع السوري للأسف لم يتح له أن يستمر ويبقى ، على العكس من التوسع للعدو ، الذي لا جدال أنه مؤقت والى زوال في انتظار اتمام الفصل بين القوات على الأقل .

خصائص معركة الجبهتين :

عند هذا الحد من الدراسة يتعين علينا أن نتوقف لنلخص التقييم العام الشامل للمعركة بجبهتيها في خريطة بيانية أو صورة لفظية محددة كما هي مركزة . فماذا نجد ؟ هناك خطوط وملامح أو اتجاهات أساسية ستة يمكن التعرف عليها والتوصل اليها بدقة ،

كما تكاد تتكرر بجذافيرها على الجبهتين السورية والمصرية ، الأمر الذي يشير الى وحدة المعركة بينهما ايقاعاً ونبضاً ، توقيتاً وتعاصراً ، ضوابط وضواغط ، أقداراً ومصيراً.

أولاً ، من أوضح ، ولعلها أبرز ملامح المعركة ، أن اول بدايتها بالدقة هي قمتها المطلقة ، بينما على العكس كانت نهايتها هي قاعها ، وما بين البداية والنهاية كان الخط البياني أميل الى النزول الخفيف منه الى الاستواء الافقي أو أفق الاستواء .

فلقد بدأنا بانتصار انفجاري داو حقاً هو ملحمة العبور وخلع الخط ، أوملحمة الساعات الست الخالدة . وبعدها كانت معركة رأس الجسر والقاعدة الارضية قمة اخرى ، ولكن – لعلنا لن نختلف – أقل قامة وارتفاعا . ثم جاءت معركة الدبابات الكبرى قمة اخرى ولكنها في اتجاه المنحنى نفسه عموماً أو تقريباً . الى أن سجلت عملية الاختراق انحداراً ملحوظاً ، فكانت قاع المنحنى كما كانت نهايته .

هذا على الجبهة المصرية ، ولكن أيضاً بالمثل على الجبهة السورية : زحف كاسح رائع أولا ، ثم ارتدادة محدودة ، فمد مشجع وبارع من جديد ، ثم اخيراً تراجع بطيء ولكنه صامد في النهاية .

ثانياً ، على هذا الاساس ينقسم منحنى المعركة ككل ، وفي الجبهتين على السواء ، الى قسمين ، وربما بالتحديد الى نصفين ، متمايزين . فمن بين أيام القتال العشرين ، كانت الايام العشرة الاولى انتصاراً مصرياً وسورياً مطلقاً وأحياناً ساحقاً . ولا مبالغة في هذا ، كما لاشك . أما الايام العشرة الاخيرة فانها النصف المحايد ، فهي أقرب على الجملة الى التعادل . من هنا فاذا كانت المعركة برمتها هي « العصر البطولي heroic age » في تاريخ العرب الحديث ، فان نصفها الاول هو بدوره العصر البطولي في ملحمة المعركة نفسها عموماً .

ثالثاً ، ذلك التصنيف أو التنصيف انما يرجع الى حقيقة واحدة ووحيدة تعد وحدها من أخص ، كما هي من أخص ، خصائص حرب اكتوبر (تشرين الاول) : لقد حارب العدو معركتين اثنتين لا معركة واحدة في هذه الحرب ، « معركتين توأمتين » الا انها مختلفتان جذرياً في النتائج والمصائر ، قل في النوع أو الجنس . ولا يعبر عن ثنائية معركة العدو

هذه تعبيراً مباشراً وسافراً كما تعبر ثنائية المد والجزر التي شهدتها الجبهة السورية بصورة محددة جداً ودالة الى أبعد حد . كما يرمز اليها ويلخصها تبادل العبور الى ضفتي القناة بين القوات المصرية والاسرائيلية على جبهة سيناء .

والواقع أن المد والجزر الميداني الذي حدث اثناء المعركة ، اذا نظرنا اليها من بدايتها الى نهايتها ، يمكن أن نصفه في حالة الجبهة المصرية بأنه مد وجزر « افقي » ، توسع ثم انكمش فيه كلا الطرفين المتحاربين يميناً ويساراً مرة واحدة على مستوى واحد . أما في سوريا فقد كان المد والجزر مزدوجاً ، ومن ثم كان « رأسياً » تمدد فيه ثم تقلص كل من الطرفين مرتين « طباقيا » فوق الآخر وتحته .

اما كيف حارب العدو معركتين لا واحدة ، فأمر بالغ الوضوح . في الايام العشرة الاولى حاربت اسرائيل معركة مهزومة بصفة مؤكدة ، كانت القوة الاسرائيلية فيها على وشك أن تتحطم وتنهار نهائياً وكادت ذخيرتها تنفد الا من رصيد أيام معدودات ، حين بدأت المعركة الثانية من نقطة الصفر تقريباً فأنقذتها من هزيمة كاملة محققة .

أما هذه المعركة الثانية التي استمرت أيضاً عشرة أيام فهي معركة امريكية اكثر منها اسرائيلية ، معركة التدخل الامريكي شبه المباشر الذي نقل اليها وفي الميدان شلالا من الأسلحة الحديثة البالغة التطور فاق ماكان لدى اسرائيل قبل الحرب كماً وكيفاً . فكان الموقف أشبه بعملية « نقل دم » كاملة الى جريح طريح الميدان على وشك أن يلفظ انفاسه الاخيرة فمنحته « سلفة » جديدة من الحياة a new lease of life . وكان الوضع كما لو ان اسرائيل قد بدأت معركة جديدة لاول مرة كأنها لم تحارب على التو معركة سابقة وهزمت فيها هزيمة ساحقة .

وقد عبر الاستاذ محمد حسنين هيكل عن هذه الثنائية نفسها تعبيراً ثاقباً وسديداً ولكن بطريقة اخرى تضغط على العلاقة بين الابعاد الدولية والمحلية للمعركة . فهو أيضاً يقسم أيام الحرب العشرين الى قسمين متساويين بالضبط . المرحلة الاولى « كانت الحرب فيها بين العرب واسرائيل مباشرة وبقوة كل منهما بمفرده .. والحركة فيها هي حركة الميزان بين القوة العربية وبين القوة الاسرائيلية » . وفي هذه المرحلة بالتحديد تركزت

معظم خسائر اسرائيل في الحرب كلها ، حيث فقدت نصف قوتها المدرعة وثلث قوتها الجوية . لقد « هزمناها .. ليس بالضربة القاضية ولكن بالنقط » .

المرحلة الثانية « تداخلت فيها تأثيرات التوازن الدولي مع حركة الميزان بين القوة العربية وبين القوة الاسرائيلية .. ولم تكن الحرب فيها بين العرب واسرائيل وجهاً لوجه ، ولا مباشرة ، ولا بقوة كل منها بمفرده .. ان ساحة الصراع تغيرت ، لم يعد هناك طرفان فيه ولكن أربعة . لم يعد هناك العرب واسرائيل وحدهما وانما نزل الى الساحة الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية . وأصبح الصراع دائراً على مستويين : صدام اقليمي بالسلاح في الشرق الاوسط ، واحتمال صدام عالمي عند القمة بين القوتين الأعظم » . ونتيجة لهذا التغير فان القيادة الاسرائيلية « تمكنت من استعادة توازنها ، وعادت الى السيطرة على أدوات قوتها ، خصوصاً باتمام حالة التعبئة العامة الى حدودها القصوى .. وراح ذلك يظهر في ميدان القتال » كما لابد ان نعترف حتى لانخدع أنفسنا.

رابعاً ، ثنائية المعركة هذه هي التي تفسر ادعاء اسرائيل بتعادلها أو انتصارها المزعوم في الحرب . فهي تريد أن تصور نتيجة معركتها الاولى المهزومة مكافئاً موضوعياً ومعادلاً استراتيجياً للمعركة الثانية الاقرب الى التعادل . وهذه مغالطة فجة تناقض أبسط بديهيات المنطق والواقع . وواقع الامر ببساطة هو أن اسرائيل حاولت ان تجعل من الحرب الرابعة في اكتوبر تشرين الاول نسخة مكررة من الحرب الثالثة في يونيو حزيران ، فلما فشلت حاولت ان تجعل من المعركة الثانية من حرب اكتوبر نفسها نسخة مقلوبة من المعركة الاولى منها ، فلما فشلت في ذلك عسكريا حاولت دعائياً ، فلما فشلت حاولت وتحاول الآن سياسياً .

خامساً ، اذا كانت اسرائيل قد حاربت أو مكن لها من أن تحارب معركتين وتخرج بالتالي بنصف هزيمة ، فان سوريا ومصر على العكس قد حاربتا نصف حرب في معركة واحدة كاملة خرجتا منها بنصف انتصار . ولا يغير من هذا أو يتعارض معه بطبيعة الحال أن مدة القتال هي واحدة بالنسبة لكل الاطراف المتحاربة ، وانما المقصود التطورات الاساسية التي طرأت داخل المعركة .

واذا كانت اسرائيل تدعي لاخفاء هزيمتها انها حرمت عالمياً من ان تحقق انتصاراً ممكناً ، فان العكس تماماً هو الصحيح . فانما مصر وسوريا ، بسبب التوازنات

والحسابات الدولية وبسبب تدخل أمريكا شبه المباشر والقوات الاسرائيلية تكاد تحتضر، مصر وسوريا هما الطرف الذي حرم من استكمال نصره الواقع بالفعل الى منتهاه وقمته، فاختزلت الحرب بالنسبة اليها من حرب كاملة الى نصف حرب والنصر الكامل الى نصف نصر .

سادساً ، وأخيراً ، وفي التحليل النهائي ، وبأي حسابات وعلى أي مقاييس ، ورغم كل ادعاءات العدو ، خرجت مصر وسوريا وهي المنتصرة واسرائيل المنهزمة في الحرب الرابعة . صحيح لقد كان من الممكن لهذا النصر وتلك الهزيمة أن يكونا أكبر وأكمل لولا ان المعركة أوقفت قبل الأوان ولم تستمر الى مداها ومنتهاها الطبيعي فجاءت الحرب « منقوصة » — أو « مقصورة » أن شئت — وذلك بفعل العوامل الخارجية والتدخل الاجنبي . ولئن كان العدو يزعم أنه لم ينهزم وانما انتصر ، بل وحقق انتصاراً أكبر من انتصاره الساحق في ١٩٦٧ ، فهذا لن يخدع أحداً ، حتى هو نفسه .

* * *

الدكتور شكري فيصل

تعليقات على ندوة

أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي

مدخل :

أ – ليست هذه التعليقات التي خرجتُ بها من الاستماع الى الندوة أو من الانقطاع الى قراءة ابحاثها او من محاولة الاصغاء الى التعقيبات او المناقشات التي دارت او ثارت فيها – ليست هذه التعليقات منطلقة من فكرة سابقة او موقف معين .. وما كان ان تكون كذلك حين يكون هدفنا ، او حين يجب ان يكون ، انما هو الاسهام المشترك في محاولة الوصول الى مواجهة كاملة وناجعة لهذه الازمة التي نحياها .

ان المواقف السابقة في لقاء فكري ، يكاد يفسد الغرض من هـذا اللقاء ، ويعوق حركة الارض المشتركة التي نسعى ان نقف عليها ، بعد هذه السلسلة من المآسي التي مرت بالوطن العربي ، وبعد كل هذه المزعجات والمثبطات التي صادفت الأمة العربية فدفعتهـا دفعاً الى التعثر .. وبعد هذه التمزقات الدامية في الحياة الاجتماعية وفي الحياة النفسية ، في حياة الجماعة وفي حياة الفرد ، على السواء .

ب – وليست هذه التعليقات انتصاراً لرأي على رأي ، ولا تقديماً لفكرة على فكرة .. ذلك أن مواقف الانتصار المطلق لوجهة بذاتها دون ان يكون الى جانب ذلك هامش – عريض أحياناً – للوجهة الأخرى او للذي يصدر من الوجهة الأخرى – لم تعد ممكنة ولا مطلوبة .

ان تقدم الفكر البشري واتساع آفاقه وارتباط ما بين هذه الآفاق لا يساعد على مواقف الانتصار المطلق هذه . وتجربة الوطن العربي التي مر بها لا تمكن من ذلـك .. والرغبة في استعجال التطور – والخروج من هـذه الحصون المقفلة ، وتجاوز مرحـلة التراشق بالسهام من وراء جدران سميكة ، ورروح التفتح والتواصل والحوار – كل ذلك يحمل – او يجب ان يحمل – اولئك الذين يتقدمون نحو زيادة الركب والذين يريدون ان يكونوا شهداء هذا العصر وشهوده ، ان يكونوا ادلاءه ودلالاته وعلامات الطريـق فيه ، ان يكونوا اقرب الى الالتقاء منهم الى المفارقة، والى التعاون منهم الى التراشق، والى الايمان بالمطلق الذي لا يمنع من الاحتمال ولا يسد الطريق عليه .

ج – وليست هذه التعليقات تصنيفاً ولا ترتيباً ، ولا نثراً لما قيل على درجات من سلم فكري أو مدرج نظري .. لأن قدر هذه المعركة التي يخوضها هـذا الوطن وابناؤه ليس قدر فرد دون فرد ، ولا جماعة دون جماعة .. وانما هو قدر هذه الاجيال المتعاقبة كلها .. ما كان منها ممن شهد العتمة وما كان منها ممن شهد الفجر ، وما سيكون ممن سيرتع في بحبوحة النور.. ان قدر الماضين انهم كابدوا، وقدر الحاضرين انهم يكابدون ويتطلعون، وقدر المستقبلين ان يحتفظوا بالثمرات للذين يأتون بعدهم دون تبديد .

ولذلك فان هذه التعليقات لا تفكر بحـال في شيء من هذا التصنيف للآراء او لأصحابها .. لا تملك ذلك ولا تقدر عليه ولا تؤمن به .. ان ارض المعركة ارض واحدة، لأنها تكاد تتناول كل شيء .. والذين يقفون عليها انمـا يقفون – أو يجب – في منظور واحد، يهاجمون هدفاً واحداً هو التخلف. ويدافعون عن وطن واحد هو الوطن المتحضر.

د – وليست هـذه التعليقات تقييماً ولا نقداً .. سعة الندوة وامتداد آفاقها والتنوع الكثير – وهو على كل حال تنوع خصب – الذي انساقت إليه يجعل ذلك عسيراً أو كالعسير ، بعيداً عن متناول الفرد الواحد لأنه يحتاج إلى العصبية أولي القوة .

ولكن هـذه التعليقات أقرب ما تكون إلى الوصف .. انها تجانب مظاهر الحكم كلها : انتصاراً ، أو تصنيفاً ، أو تقييماً .. إن صاحبها كان يكون في وضع هو خير لو شارك فيها مشاركة كاملة .. ولكنه كان مدفوعاً عن ذلك من قبل ثم كان مدفوعاً عن ذلك من بعد ، بحكم هذا الذي كان منوطاً به من عمل ، مرتبطاً به من وقت .

ومع ذلك فقد قدر له أن يشهد وأن يستمع في شيء من الصدفة المشكورة .. رأي الآراء بذاتها تتحرك على نحو ما رأى أصحابها أو أكثرهم .. وسمع على نحو ما اقرأ . وشهد كيف كانت تعرض الأفكار وكيف كانت تنقدح الردود ، وكيف كانت تنبت أو تستنبت التعليقات .. ولعل ذلك أن يكون عوناً له على هـذه التعليقات ومسعفاً فيها .

في البدايات : من العناوين

في البدايات الأولى ، قبل أن تكون الرؤية والسماع والاشتراك من غير مشاركة ، كان هنالك هذا العنوان الكبير : أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي .. وكان هنالك هذه العناوين الأخرى التي تعلو الأبحاث والتعقيب على الأبحاث .

٢ – في العنوان الكبير هذا الاحساس المتوقد وهذه الروح المتطلعة .. فيه جملة هذه الهموم التي تصفح الانسان العربي حيناً وتجلده حيناً .. تلقي عليه الأعباء، وتبعث به في المجاهل .. تقتنصه وتدفع به الى القنص . . تؤرقه إلى حدّ البكاء وتؤمله إلى حدّ الفرحة الكبرى .

ثمة وطن عربي ، حين يقاس إلى الأوطان الأخرى يجد أنه في وضع متخلف . وليس هذا التخلف أصيلاً عنده ولا طبيعة فيه لأمرين :

أولها أن ماضيه الحضاري ينفي – أو كان يجب أن ينفي – هذا التخلف .

والآخر أن جوانب من حاضره تدل كذلك على أنه يستطيع أن يلحق بالزمن ، وأن يتفاعل مع الحضارة القائمة ، تقبلاً وتفهماً وتذوقاً واستيعاباً ، انتاجاً أحياناً واستهلاكاً .. فلماذا يضرب عليه هذا التخلف ؟!

هذا التخلف ليس ، اذن ، طبيعة فيه ، وانما هو ــ أي التخلف ــ محمول عليه . هو أزمة يعانيها وليس طبيعة يحياها .. كان يجب أن يكون سيره وتطوره مع الحضارة: مشاركاً فيها ومبدعاً لها .. ولكن مسيرته عاقت هذه الأزمة ..

فكان لابد اذن من بحث أزمة التطور الحضاري .

ب ــ بحث ذلك ، كان من الممكن ان يتخذ اشكالاً مختلفة . . آثر اصحابه هنا شكل الندوة .. أي آثروا هذا اللقاء .

واغراض اللقاء متعددة ، لعل ابرزها ان تلتقي الفكرة بالفكرة من اجل ان تجتذب احداهما الاخرى لتحقيق معنى اللقاء . . أن تفسح احداهما للاخرى أو تنزل لها ــ في نطاق الفكر والواقع ــ او تتفاعل معها ليكون من وراء ذلك فكرة واحدة ، ينتهي اليها هذا اللقاء .

اللقاء اذن لا يهدف الى الفرض ولا يقصد اليه .. والا لم يكن لقاء .

واللقاء اذن لا يهدف الى الاصطراع ، بل على العكس يحاول ان يتجنبه .

ان اللقاء قيمة اخلاقية توحد بين المنطلق والهدف والوسيلة : الهدف اللقاء ، والوسيلة اللقاء ، والمنطلق الرغبة في اللقاء .

هذه النظرة الاخلاقية ــ العلمية هي التي أملت أن يتلبس البحث شكل الندوة ، وأن ينطلق الى هذه الندوة اصحابها من اطراف الوطن العربي ، او من المهاجر التي كانوا ينتجعونها .. وفي اعماقهم انهم يريدون ان يلتقوا وفي اشواقهم كذلك .

أكان الحضــــور دائماً على بينة من ذلك .. أم ان ذلك غاب عن بعض الاذهان : نفسي أو قومي ، فآثر بعضهم ، الفرض على اللقاء ، والاصطراع على التسامح .

حـ ــ وفي اللقاء، في الندوات ، لا يكون الامر ان نعرض ما عندنا بقدر مايكون في ذات الوقت ان نعرف ما عند غيرنا .. ان نقيم من هذين « العندين » الجســـور ، بل ان نقيم هذا التفاعل .. بغية تكوين « عند » واحد .

من اجل هذا ، عمد اصحاب الندة الى طريق الجمع بين كتابة البحث وكتابة التعليق على البحث .. أي عمدوا الى محاولة عرض الفكر من وجهات نظر مختلفة .. قد لا يكون التعليق الواحد كافياً معيناً .. ولكن لقاء الندوة والتقاء الندي كفيل باستدراك ما يفوت التعليق منها .

الموضـــوعات :

أ - اذا تجاوزنا هذا الخط السير الواضح واجهنا موضوعات الندوة.. وموضوعات الندوة انما تأتي تحقيقاً لهذه التصورات .. اي تأتي لدراسة ازمة هذا التطور الحضاري .. فكيف تكون هذه الدراسة او كيف يجب ان تكون .

ها هنا ، فيما احسب ، مجال التركيز الكبير . وها هنا يكون الطريق الى الهدف واضحاً أو ضبابياً .. ذلك ان الموضوع كبير كبير .. كل جانب منه كفيل أن يشقق عشرات من الموضوعات الفرعية ، وان يشق جملة من المسالك .. والقـــدرة على التحكم في ذلك هي القدرة على الوصول الى الارض المشتركة التي تتطلع اليها وتريد ان نقف جميعاً عليها .

ب - قد يكون من الايجاز المخل ان يقول الانسان ان موضوعات النـــدوة تتجسد في هذين .

- مظاهر ازمة التطور .. اي مظاهر التخلف .
- الاسباب التي وراء هذه المظاهر .

فاذا دللنا على الظاهر ، واكتشفنا الاسباب ، كان ذلك في جملته هـو الدليل الى الخروج من هذه الازمة ، والارتفاع بالوطن العربي من مرحـــلة المشاركة في التخلف الى مرحلة التحضر والمشاركة في صنع الحضارة .

برنامج الندوة يقف عند مظاهر التخلف ويشير اليها في الموضـــوعات التي تحمل العناوين التالية :

التخلف السياسي وابعاده الحضارية

التخلف الفكري وابعاده الحضارية

التخلف الاقتصادي وابعاده الحضارية

ودع عنك هذه الجملة « وأبعاده الحضارية » . . ذلك أن الألق في بعض العناوين يصرف أحياناً عن الدقة فيها . . حسبنا ان الندوة وضعتنا – في التخطيط – أمـــام المظاهر الكبرى لهذا التخلف .. في الفكر والسياسة والاقتصاد .

حـ – ولكن أبحاث الندوة ليست هذه الأبحاث الثلاثة ، وانما تتجاوزها الى ابحاث تحمل العناوين التالية:

الاستعمار وأزمة التطور الحضاري .
القيم والعادات والتقاليد وأزمة التطور الحضاري .
نظام التعليم العربي وأزمة التطور الحضاري .
هذه الكتلة من البحوث تقوم على أساس آخر غير كتلة البحوث الأولى .،
الكتلة الأولى تنطلق من المظاهر .. وهذه تنطلق من الأسباب .
الأولى تحاول أن ترصد مظاهر التخلف فتحصر ذلك في السياسة والفكر والاقتصاد. وقد يقودها البحث عن المظاهر الى البحث عن الأسباب . فهناك دائماً هذا الخط المفتوح بين الظاهرة وسببها .
ولكن الكتلة الثانية تتجه الى الأسباب .. فتؤمن .. أو تفترض ، ان هنالك هذه الأسباب وراء هذا التخلف : الاستعمار – العادات والقيم والتقاليد – نظام التعليم .
د – ولست أريد أن أقف عند موضوع : الدين .. فقد جاء عنوانه في برنامج الندوة المطبوع على هذا النحو : « الدين والتطور الحضاري » .. أعني أنه ترك – اعفاء أو ادانة – أن يكون من المظاهر أو أن يكون من الأسباب .. على حين أن الدكتور النويهي جعله من الأسباب حين جعل عنوانه « الدين وأزمة التطور الحضاري » .
وليس بين يدي عنوان البحث الآخر ، وبالتالي ليس عندي البحث . وأنا على كل حال – كما قدمت – أوثر أن أتجنب الوقوف هنا اجلالاً الذي أومن به من نحو ورعاية الذين أحبهم من العاملين في الندوة .
ه – وفيما عدا هاتين الكتلتين من العناوين والموضوعات تتناثر عناوين أخرى.. بعضها يخرج عن حدود الوطن العربي الى حدود العالم الثالث .. وبعضها يتناول جزئية خاصة مثل موضوع أزمة التطور الحضاري ، معناها وملابساتها بالنسبة الجامعات العربية الجديدة ..
و – وهذا كله دون أن أتحدث عن موضوعين آخرين،أريد منها أن يكونا محاضرة عامة أحدهما في البداية : الحضارة وقضية التقدم والتخلف – والآخر في النهاية وهو موضوع : الرؤيا المستقبلية خلال واقع عربي متخلف .
كلا الموضوعين ذو طبيعة خاصة وكلاهما أريد بهوجه مشاركة لجمهور المثقفين .
ز – وقد تجاوزت الاشارة الى الموضوع الأول بعد الافتتاح .. وعنوانه

الأبعاد التاريخية لأزمة التطور الحضاري . . ذلك لأن ساحة الموضوع قد اتسعت في براعة فائقة حتى اوشكت أن تشمل كل شيء . . واكفهرت حتى اوشكت أن تجعل أزمة التطور الحضاري أزمة ملازمة للمجتمع العربي منذ كان . . منذ الماضي حيناً ومنذ الماضي البعيد حيناً .

واذا كانت هذه هي العناوين التي تقود الأبحاث وتوجهها . . اذا كانت هذه زواياها وحدودها فما هي أبرز الصفات التي يخرج منها القارىء وهو يتتبع الأبحاث نفسها .

لعلي أستطيع أن أجمل ذلك فيما يلي :

١ ــ غياب الحدود في المكان

عنوان الندوة ، ازمة التطور الحضاري في الوطن العربي .

ولكن ماهي حدود الوطن العربي الذي وقفت عنده الندوة ؟

آ ــ في الواقع تكاد تكون اكثر الابحاث حاصرة على شرق الوطن العربي .. ولعل الابحاث التي تناولت الاستعمار هي التي طالت الجناح الآخر من الوطن العربي ، أي مغربه .

والذي يبدو لي ان النظر في اسماء اعضاء الندوة كان يقود الى ذلك على نحو واضح .. فأكثر المتعقدين ، او كثرتهم الغالبة ــ انما كانوا من المشرق .. ولعل عدد الذين جاؤوا من المغرب العربي لا يتجاوز اصابع اليد الواحدة .

هممت ان اقول ربما كانت هنالك صعوبات مادية .. ولكن واذا التزم ان تكون هذه التعليقات تعليقات وصفية لا احتاج ــ فيما اقدر ــ أن التمس العذر أو ان اكشف عن السبب .. فتلك قضية اخرى ما دام الامر لا يقصد الى لوم أو عتاب .

ب ــ وعلى ايماننا بوحدة مابين مشرق الوطن العربي ومغربه في كثير من الظواهر والاسباب . فان من المؤكد أن هنالك خصائص خاصة .. او لنقل هنالك ظواهر كانت اشد وضوحاً في جانب منها في جانب .. او هي اكثر تنوعاً .. بل لعل هنالك هذه الخصائص الخاصة التي قد تكون هناك ولا تكون هنا .

بعض الباحثين من المغرب أو بعض الابحاث كان من الممكن ان يقود الى اضاءة جوانب أو تعميق البحث فيها . . أليست قصة الاستعمار في المغرب قصة تختلف عنها في المشرق .

أليست قضايا التعليم فيه قضايا ذات طبيعة خاصة من خلال سياسة التجهيل.

ألم يتخذ الدين في مقاومة الاستعمار لبوساً خاصاً .. وبالتالي ألم يكن له دور خاص وفهم ألا تختلف أحياناً وسائل الاستعمار في التفتيت ..

وبصورة عامة هل اتخذت قضايا الاقتصاد والفكر والسياسة في المغرب دائماً اتجاهها ذاته في المشرق ؟

ج ـ وغياب الحدود في المكان لا يتناول غياب المغرب العربي ، ولكنه يتناول كذلك النظرة الجزئية في المشرق العربي .. كانت تحس من خلال القراءة ، من خلال الامثلة ، ان الصورة التي تعرضها بعض الابحاث صورة جزئية من بلد واحد .. وقد لا تختلف البلاد الاخرى اختلافاً كبيراً ، ومع ذلك فان قدراً من التخالف يبدو أمراً جلياً .

ولا شك ان ذلك يقتضي تفريعاً آخر للندوة وللباحثين ، من المؤكد انه كان لا يمكن الوصول اليه في هذا الشوط من حركة الندوة .. غير ان استمراريتها سيقود اليه ويمكن منه .

٢ ـ غياب الحدود في الزمان .

يحس القارىء ، إذ يتتبع بعض أبحاث الندوة ، أنه فوق أرجوحة تندفع به إلى أمام إلى أعلى ثم تعود به الى الوسط ، ثم ترتد به إلى وراء إلى النقطة الأخرى .. وفي كل لحظة من لحظات هذا التنقل المستمر ومن التأرجح بين النهايتين أو بين إحدى النهايتين وبين النقطة المتوسطة ؛ يطلّ على غير ما كان يطل عليه من قبل .

أ ـ ذلك باعد بين الأبحاث وبين أن تكون لها حدود زمنية معينة .. وحين تكون الظاهرة التي ندرسها هي هذه الظاهرة التي تمتد من الجاهلية الى مشارف القرن الواحد والعشرين ، فان ذلك يعني أننا نخرج بمجموعة من الانطباعات بأكثر مما نخرج بالفكرة المتميزة في اطار محدود ..

وهذا حين يكون الكاتب واحداً .. فاذا تعدد الكتاب ، وتعددت الأبحاث ، وكانت في عدد منها تتأرجح على طول هذا الخط ذي الطرفين المتباعدين فان الامر بالنسبة الى القارىء يبدو أكثر صعوبة وأشد اختلال .

ب ـ بعض الذين تحدثوا ـ أياً كانت الزاوية التي تحدثوا منها ـ تحدثوا عن واقع

المجتمع ، من حاضره .. بعضهم تحدث عن ماضيه القريب .. بعضهم لم يقنع بهذا الحاضر الماثل ولا بهذا الماضي القريب وانما ارتد الى ما هو بعيد .. من أيام الانتداب والاستعمار الى أيام السلطنة العثمانية .. وخطوة وراءها الى أيام المماليك . وخطوات وراءها الى أيام البوهيين والسلاجقة .. بل لم يكن هناك ما يمنع أن ترتد هذه الخطوات الى بعيد ، والى بعيد البعيد .

قد تكون طبيعة البحث هي التي تقود الى ذلك .. ولكن ألا يبدو عسيراً أن نجمل كل هذه القرون الطوال العراض بالظاهرة الواحدة أو الحكم الواحد .. ؟ .. وحتى حين يكون ذلك ممكناً أفلا يقود الأمر الى شيء من ارهاق الندوة ذاتها واعتبار أنها غير ذات موضوع .

ج – وفي غير الابحاث ذات الطابع التاريخي .. أكان من الممكن أن نحدد النظر الى المظاهر أو إلى الأسباب خلال هذه الفترات كلها على أنها مظاهر وأسباب واحدة ؟. ألا يسوقنا ذلك الى تناقض ؟ .. أليس نسخاً لعمل الندوة نفسها ؟.

الندوة تقوم على أن هناك أزمة .. أي على أن هناك حركة حضارية توقفت .. فمتى كان هذا التوقف ؟ .. من هنا كان يكون التحديد الزماني عملا منهجياً واجباً .

٣ – بين التجزئة والتعميم :

في بعض ما كان من أبحاث هاتان الظاهرتان المتناقضتان ، التجزئة والتعميم هنالك أبحاث استهوتها ظواهر جزئية توقفت عندها ، وأبحاث استهوتها هذه الظواهر الجزئية فمضت بها الى التعميم .

وفي ندوات علمية نتطلع إليها ونريد أن يكون في لقاء أصحابها وحوارهم مايعين على تجاوز الأزمة ، تبدو هـذه الظاهرة وكأنها تشير الى لون من ألوان الأزمـة في الفكر العربي .

الفكر العربي يتحدث كثيراً عن التفتح وعن الجوانب المختلفة للقضية الواحدة ، وعن تعدد الحلول وعن اختلاف البيئات وعن نقاط الاشتراك والافتراق .. وذلك كله في النطاق النظري البحت أو في القضايا التي تتصل بالشعوب الأخرى .. ولكنه لا يكاد يأخذ نفسه بشيء من ذلك حين يكون الأمر متصلاً بقضاياه ومعضلاته .. إنه أسير – في كثير من المواقف الوطنية والقومية – لوجهة النظر الواحدة ، أو للزاوية الواحدة من موضوع متشعب .. ولكنه ما أكثر ما يمتدح الآخرين بسعة الأفق وبُعد النظر وتعدد

زوايا التناول ، والموضوعية التي لا تجانف الحق حين يلاحظ ذلك أو بعضه ، على أي مقياس منهم .. إنه في الغالب متشدد مع قومه ، ومتسامح مع الاقوام الاخرى ..

ب ـ الظاهرة الواحدة احياناً تستبيه فيطيل الوقوف عندها ، وهو يعلم أنها لا تشغل من القضية التي يعالجها إلا ايسر من اليسر . من منا . من مجموعة الذين ينظرون مثلاً الى التراث ، يؤمن بصلاحية هذا التراث كله صلاحية مطلقة؟..من الذي يرى الاعادة او العودة في مثل ظروفها وبيئاتها وصورها وشرائطها؟..من منا يقول الآن ان الكشوف الحديثة في القرآن الكريم ؟.. قد يكون هنالك واحد تبدر عنه في ذلك جملة او خاطرة.. وقد يكون هنالك ، من يلمح ذلك ، في بعض التفاسير .. ولكن من الذي يزعم ان ذلك يؤلف نظرية لها اصحابها وكتبها ومدارسها ؟.. وحتى حين يكون ذلك ـ قطعاً للجدل ـ فماذا يكون من امر هؤلاء الا انهم قلة ، وضعتها ظروف معينة في مثل هذا الموضع .. ثم هي قلة ليس لها من الأمر شيء .. فلماذا هذا الحرص على اعطائها فوق حجمها ، وتهويل خطرها ، ومطاردتها الى ابعد حدود المطاردة ؟

ج ـ هذه النظرة الجزئية وتضخيمها والبناء عليها وإفراد الابحاث والمحاضرات عنها . والوقوف وراء المكبرات لمباحثها . هذا الاسلوب يخالف القواعد المنطقية ويجافي الاخلاق العلمية معاً ـ مما تدعي الحرص عليه ـ من وجهين :

احدهما انها تخلق عراكاً في غير معترك، تثير دون ان توضح، تبعث الغبار دون ان ينجلي الغبار عن فرس او فارس .

والآخر انها تقود احياناً الى مواقف جانبية ، ضميرنا القومي والعلمي لا يتيح لنا المشاركة فيها .

د ـ هذا ، ونحن نعلم حق العلم ، أن أكثر هذه النظرات أو الظواهر الجزئية التي نأخذ بتعميمها ونقدها . . انما يندفع أصحابها اليها بحكم هذا التطرف الذي يجدونه عند الطرف الآخر . . انها في الغالب نوع من ردود الفعل يُضطر اليه أصحابه اضطراراً . . إنك عندما تجرّد خصمك من الفضائل ، لا تنحرف عن سلوكك العلمي بقدر ما تدفع الآخرين كذلك الى الانحراف عنه أيضاً . . لأنك تقود هذا الخصم الى ان يتشبث بكل شيء ؛ موجود أو مفقود .. وحين تقذف بخصمك الى أعماق الماء تريد أن تغرقه فان له أن يتعلق بحبل من ضوء النجوم لو استطاع ذلك .

هـ ـ بل ان بعض هذه النظرات الجزئية كثيراً ما تكون من فترة او فترات

تاريخية متباعدة . . وإلا فهل هناك من يقول الآن إن في ماضينا كل الذي نحتاج اليه في حاضرنا وفي مستقبلنا .

ان الذين يقولون هـذا انما يقولونه في الأعم الأغلب ، بنوع من الاستمساك بهذا الماضي .. بروحه .. انهم يرون هـذا الماضي عرضة لتهجم الأذكياء والأغبياء ، وانه محارب من داخل ومن خارج . . ويقولون هـذا في ظروف كانت روح الاستمساك هي بعض روح المقاومة التي ينعم الآن الباحثون الجدد الرافضون بخيراتها .

وما لم نخلص من اصطياد هذه الجزئيات ، وما لم نخلص عن الظروف التي نشأت فيها ، وما لم نبتعد عن تعميمها ، فسيظل بعض المفكرين العرب يطحن الهواء .

٤ — بين الأفكار السابقة والمعالجة الحرة (الغيبية الجديدة)

آ — في بعض هـذه الأبحاث والتعليقات والمناقشات يجد المرء أن هناك أفكاراً سابقة هي التي تتحكم بأصحابها . . وان البحث لم يبدأ من حيث يجب أن يبدأ . . أي من رصد الظاهرة ، ثم من بيان أسبابها ، ثم من محاولة الوصول الى علاج لها . . وانما ينطلق البحث أو المناقشة من خلال أفكار معينة . الايمان السابق على البحث هو الذي يتحكم في الباحث ويتحكم في البحث .

ب — وفي تقديري أن هذه غيبية جديدة . . واذا كانت الغيبية الأخرى تجد أساساً لها في الفصل بين منطقة الايمان وبين منطقة التجربة ، فان هذه الغيبية الجديدة لا تجد ما يسوّغها .

لماذا يدعو بعض المفكرين الى حلول مسبقة على الظاهرة !

التاريخ العربي جزء من التاريخ العام .. ولكنه ليس هو التاريخ العام .

الحركة العربيـة توشك ان تكون حركة متفردة . . بل هي حركة متفردة حين دعت الى المجتمع الانساني الواحد ، واخذت لذلك بجملة من الآراء والعقائد والسلوك .

فكيف يمكن ان اجمع بينها في كل المظاهر والأسباب والنتائج والقوانين التي تحكم هذه المظاهر والأسباب والنتائج ؟

لماذا لا تتركوننا نصل الى ذلك نتيجة بحث .

من المؤكد ان اصحاب هـذه النظريات ما كانوا على صلة بكل ما يتعلق بتاريخ هذه القرون من الزاوية العربية . . فلماذا لا نترك البحث العلمي أن يقودنا اليها أو يقف بنا بعيداً عنها أو قريباً منها .

و ــ مثل هـذا اللون من الاقبال على دراسة ازمة التطور الحضاري في الوطن العربي ، لا يضعنـا على الأرض المشتركة .. انه على النقيض ، يزيد من حدة هـذه الخلافات والتناقضات في الفكر العربي . . وهو لا يسيء الى الفكر العربي وحده قـدر ما يسيء الى الفكر الذي يلتزم به . . لانه يقطـع عليه طريق التفاعل والاغنـاء أو الاغتناء .. بل انه يكره الفكر العربي على حذاء موعد ؛ قد يكون ضيقاً ، وقد يكون واسعاً .. ولكنه لن يتيح له حرية الحركة وحرية السير . .

د ــ ان ابحاثاً ومناقشات تنبع من مثل هذه المنطلقات تنسخ الأسس التي تقوم عليها مثل هذه الندوات .. الا انه يكون الأمرمقصوداً .. ونجل الضمير القومي الحر ان يكون كذلك.. ان حالة القصد منتفية من اذهاننا بطبيعتها وطبيعتنا .. ذلك ان آلام الانسان العربي تحول بينه وبين ان يضيف اليها الآن آلاماً أخرى . . ان القصد الى ذلك يحيل الندوة من منطقة لقاء الى منطقة تبشير .

هـ ــ ان البهجة التي تمتلك الانسان وهو يشهد الآخرين يشاركونه أحاسيسه وآلامه،وترهقهم كما ترهقه أوضاع الوطن العربي وانقساماته وأزماته الاجتماعيةوالفكرية، ويتطلعون الى تجاوز ذلك ، وتتاح لهم الفرص المادية والمعنوية للتعاون على تجاوز هذه السلسلة من المآسي... مثل هذه البهجة جديرة أن تظل بهجة صافية .. والمسؤوليةالكبرى التي تقـع على عاتق المثقفين العرب أضخم من أن تحتملها أكتافهم .. أفلا يكون من الخير أن لا يلتهوا عنها بغيرها وان لا يضيفوا إليها أعباءجديدة؟!.

ان الوضـع الفكري العربي ــ وبخاصة في هذه الظروف ــ يقتضي أسلوباً من البحث ، الندوة ' وأمثالها جديرة أن تستثنه .. يقتضي ابتعاداً بعيداً عن تأريث الخلاف وعن اصطناع الخصومات ، وعن فرض الرأي ، وعن انتهاز الظروف ، وعن اقحام الالغام المتفجرة . انه يقتضى المحبة والالفة والتسامح ، والايمان بأننا نملك أن ننظف جلودنا ، ولكننا لا نملك أن نسلخ منها أو أن نغيّر لونها .

٥ ــ بين التفاؤل والتشاؤم : « تجاوز الايجابيات والتركيز على السلبيات »

آ ــ النقطة المشتركة بين الابحاث جميعاً يلخصها هذه المقولة وهذا التساؤل .

المقولة : اننا لا نرضى عن هذا الواقع ، نريد ان نغيره أو نغير منه .

والتساؤل هو : كيف يكون هذا التغيير . . ماذا ندع وماذا نأخذ . . هل ندع

الماضي كله ونتطلق من جديد ابتداء من الصفر .. هذا اذا كان ذلك ممكناً هل تقـوم بعملية انتقاء من هذا الماضي ؟ .. وأين هي ساحات الرفض وساحات الانتقاء .

ب ـ وحين يقبل عدد من المفكرين في الوطن العربي على النظر في ذلك ومناقشته فان من المفترض أنهم ينظرون الى هذا الذي عندهم ، في ماضيهم وحاضرهم ، ينظرون بعين العدل ـ على حد تعبيـر ابن قتيبة ـ .. ينكرون منه ما ينكرون ، ويقرون ما يقرون .. الجانب الذي استنفد اغراضه او الذي استهلكته الايام أو الذي شوهته الاحداث يتخففون منه ، ثم يبقون على الجوانب الـتي لا يزال يتدفق فيها دم الحياة ويتألق في عيونها البريق .. أي انهم يكشفون عن الجانب الايجابي وعن الجانب السلبي سواء بسواء .

حـ ـ ولكن ما بال كثرة كثيرة من هذه الابحاث لا تكاد تضحك لمكرمة ، ولا تكاد تنفرج شفتاها بثناء .. الفرد العربي ، والقيم العربية والاسرة العربية والفكر العربي ، التربية العربية ، التعليم العربي ذلك كله مجروح ، مضعف ، لا يكاد ينفع فيه دواء .. ترى لماذا بدت هذه الكثرة متجهمة ، كالحة ، تبعث على القنوط باكثر مما تثير من الامل ، وتسد منافذ الافق باكثر مما تفتح منها .

د ـ قلت في نفسي ـ وكأنما كنت احاول ان التمس العـذر ـ ولكنها طبيعة الندوة .. أليست ندوة « أزمة » .. أليس معنى ذلك ان الابحاث انما تنساق ، على نحو عفوي ، الى ابراز الجوانب المعتمة ؟..

ولكني لم اقتنع بهذا الذي تحدثت به الى نفسي .. وبدا لي كأنما أدير هذا الحوار الداخلي المهموس :

اذا كان هنالك عملية تغيير فان هذا التغيير اما أن يتجـه الى الرفض المطلق وإما أن يتجه الى عملية كشف ودرس وتقيـيم . والرفض المطلق لا مكان له بطبيعة حال في ندوة بحث .. والاتجاه إذن إلى النظر في هـذا الذي كان منه مظاهر الفكر والثقافة والحضارة في المجالات المختلفة منذ توقف المد الحضاري .

وفي هذه الحالة كان لا بد من ان يتعاقب اللونان ، الابيض والاسود ، ومن ان تتكامل الحركتان ، القبول والرفض .. ولا بـد كذلك من ان يكون هنالك هـذا الاقرار وهذا الانكار .

هـ ـ ولكن كثرة من أبحاث الندوة لاتساعد على ذلك .. ولست أتحدث عن الأثر النفسي لهذا . فقد يكون الحرص على « عقلانية » الندوة مدعاة الى التضحية بالكثير ، وقد يكون فوق أن تنظر الى الأثر النفسي عند هذه الآلاف من المثقفين ، التي تترقب مايكون من التقاء الصفوة لمواجهة أخطر مآسي الوطن العربي .. ولكن هـذه الآلاف موجودة .. ووجودها قائم . هي التي تتفاعل معها في خاتمة مثل هذه المؤتمرات. وهي عنصر العمل في عملية التغيير .. وقد يكون من الخير أن لانسد عليها المنافذ وأن ندفعها الى نوع من اليأس .

و ـ ومع ذلك فلست أقصد الآن الى الأثر النفسي .. وانما أقصد الى شيء من المنطق السليم البسيط .. الى البدهيات التي لانختلف فيها .. ترى ، ألم يكن في مظاهر الحياة العربية الماضية خلال كل هذه القرون مايستحق ان يشار اليه ، بَلْهَ أن يشاد به .

إن لم يكن هناك حضارة مزدهرة مثمرة ، فان معنى ذلك انه ليس هناك أزمة حضارة .. والمشاركة العربية والابداع العربي قائم قائم .. والايجابيات كذلك قائمة متمثلة في الكثير .. من السلوك الفردي الى الحياة الاجتماعية .. ومن التزام المثل الى التضحية في سبيلها .. ومن ساحات العلم الى آفاق الادب والفن .. مئات الاوابد وآلاف النماذج للمثل العليا هي التي تؤلف روح هذه الحضارة .. والايجابيات هي الأصل فيها .. وإلا فكيف نفسر هذه الاستمرارية الرائعة على توالي النكبات .. كيف يغيب هذا من « روح » الكثرة من الابحاث .

أفهم ، أو قد أفهم ، أن يغيب ذلك عن بعض المناقشات .. أثراً للحدة أو الانفعال الذي قد تؤخذ به أحياناً .. وبعض الذين علقوا خلال مناقشات الندوة تحدثوا بأسلوب « شعري » لانجد أشد منه حملة على الحقائق ومجافاة للواقع وتطرفاً يثير عندك ألف علامة استفهام .

ولكن هل كان طبيعياً أن يغيب ذلك عن بحوث كتبها أصحابها في هدأة من الفكر وصلاح من البال ، وسعة من الوقت .

ح ـ مها يكن من شيء ، فنحن لم نقدم بعض الذين كتبوا أو علقوا أو ناقشوا ، في كثير من استخدام المنطق ، والرؤية البصيرة للواقع .. وفي تعليق مكتوب على بحث

فرج من أمل .. وفي بحث مكتوب عن الاسرة العربية استطاع صاحب البحث ان يدل على الحسنات والعيوب . وان يعطي العيوب حجمها الطبيعي وأن يلاحظ ان مثل هـذه العيوب موجودة في صميم الأسر الاميركية في العصر الحاضر .

ط ــ ويظلّ بعدُ أننا نحتاج ــ في سبيل الارض المشتركة التي نتطلع اليها ، وفي سبيل الموضوعية التي نكثر من الحديث عنها ــ وبعيداً عن أي غرور قومي او اعتزاز ، نظل نحتاج استخدام الخلفية الموضوعية للعلم التي ترى بالعينين ، كلتا العينين .. ترى نصف الدلو المتليء كما ترى نصفه الفارغ .

لنقل ــ في ثقة بكل الذين كانوا في الندوة أو قاموا عليها ــ ان أشواق التطلع وحرقه هي التي ألقت على كثير من الابحاث ظلالاً خضراء من ظلال لهب هذا التطلع .

٦ ــ الندوة بداية ام متابعة بين المتابعة والاستئناف

هل كان موضوع الندوة موضوعاً جديداً لم يسبق له أن عولج على شكل أو آخر في الوطن العربي ؟ .. أهو شيء لم تكتب فيه المقالات وتؤلف فيه الكتب وتعرض فيه الآراء .

آ ــ منذ بدأت النهضة العربية بدأ الحديث عنها وفيها .. طرح السؤال الكبير : ماذا نأخذ وماذا ندع ، وطرح موضوع التراث ماذا أبقت منه الايام وماذا نسخت ، وتساءل المتسائلون في البداية عن هذه المقارنة بين المشرق والمغرب . كل الذين كتبوا عبّروا عن حرقتهم ازاء تقدم الغرب وتأخر الشرق .. لم تخل صحيفة في يوم ، ولا مجلة في أسبوع أو شهر ، ولا مقالات أدبية ، ولا ابحاث مفكر منذ مئةسنة أو يزيد عن ذلك .. حتى القصص والروايات والمسرحيات كان كثرة منها يفكر فيه ويهدف اليه ويتحرك نحوه .

ومن العبث أن نحاول تعداد ذلك أو أن نضرب الامثلة عليه .. ولعل من أواخر ما كتب في ذلك هذه الكتابات التي لا حصر لها بعد النكبة وبعد النكسة .. ولعل من أول ماكتب في ذلك ماكتبه هؤلاء الرواد الذين حـاولوا أن يرفعوا الغشاوات عن الاعين من الافغاني والتونسي ومحمد عبده الى اخوانهم من المعاصرين.. من باحثين وشعراء وناثرين.

ولعل ندوة أو مؤتمر الاصالة والتجديد الذي عقدته المنظمة العربية في القاهرة أن يكون آخر ما كان من عمل مشترك في ذلك .

ب ــ والأمر يتجاوز هذا كله : الكتابات والمؤلفات ، إلى حركات باعيانها وإلى مصلحين باسمائهم.. طرحوا هذه الأزمة.. كل في حدود المعطيات التي أخذ بها، والظروف التي انطلق منها ، والأفكار التي انتهى اليها .. ولم يكن هؤلاء وأولئك من بلد بذاته أو منطقة بعينها .. وانما هم دعاة ومصلحون وحركات على طول الوطن العربي وعرضه من الحركات السلفيـة في الجزيرة الى الحركات الفكرية في مصر وسورية الى الحركات الاصلاحية في تونس والمغرب .. فعلى امتداد هـذا الوطن كان هنـاك دعاة وحركات ومصلحون على طول الفترات وتعاقبها .

فلماذا أغفل هـذا كله في الندوة ؟.. لمـاذا لم يرد لكل أولئك ذكر ولم يكن لهم مكان .

ج ــ لو ان موضوعاً من موضوعات الندوة كان في جدول الندوة ، لا يتناول الظواهر ولا الاسباب فحسب كما قدمت ، وانما يتناول كذلك هـذه المحاولات السابقة في معالجة هذه الازمة : كتباً وأبحاثاً وحركات ، ويقيّمها ويبين نجاحها وفشلها وأسباب هذا الفشل أو النجاح ، لأدى ذلك الى خير كبير ، يمكن إجماله في ناحيتين :

الناحية الأولى :

انه يدلنا على أن ثلاثة أرباع الذي نقوله اليوم قيل على أنحاء مختلفة وفي أساليب متعددة منذ مائة سنة .. وانما يتكرر منه اللبوس الخارجي ، وتختلف فيه الاساليب ، وتتناثر فيه في كل عصر أساليب العصر ومعطياته الثقافية ، وصوره التي تتأثر بهـذه المعطيات .. أما الروح فانها هي هي على شيء من تفصيل أو ايجاز ، وعلى شيء من التفاعل مع المذاهب المعاصرة ، وعلى شيء من غمس مايكتب في اطار الثقافة الشائعـة والفكر السائد .

والحق أن تتابع الفكر العربي على طرق موضوع واحد واستمرار ذلك ومعاودته أمر يرتد الى الفشل الذي نعانيه في تحقيق مانفكر فيه وندعو اليه . . فهذا الفشل هو الذي يدفعنا أن نعاود الحديث في صور أخرى مرات ومرات .. والا فكيف نفسر هذه الكثرة البالغة فيما كتب عن الوحدة مثلا ؟ أطنان من الورق سودت في ذلك وبيضت

ومئات من الاطنان طبعت ونشرت ، استنفدت فيها كل مجالات القول .. وأصبحت أفكار الوحدة في مثل ضوء شمس الصيف في اقليم حـار .. ومع ذلك فلا نزال نكتب ونكتب .. ولو جمع ماكتب في ذلك لتجاوز كل حد .. ولكننا اذ فشلنا في اقامة دولة الوحدة ولم نحقق في ذلك بعد خطوة الا ان تكون الخطوات الى الوراء تأكيداً عـلى التجزئة وتكريساً للاقليمية — فان من المؤكد أننا سنعاود الكتابة عن ذلك بأضعاف أضعاف مافعلنا حين ينهض يفكر في الأمر أو يدعو له ذو سلطان .

أو هذا أنه جوهر هذا الذي دعا اليه زعماء الاصلاح هو هو هذا الذي ندعو اليه الآن وتدعو اليه الندوة .. وليس شيء يثبت «المراوحة» في مكانها — على حد تعبير استاذ من أساتذة الندوة المرموقين مثل أن تراجع ماكتب الذين تقدمونا .. ومنذ عشرات السنين — على سبيل المثال الخفيف — كان الحديث عن نهضة الشرق ، وكان يشمل ذلك نهضة اليابان ونهضات غيرها .. ومنذ عشرات السنين والباحثون يتحدثون بأكثر مالتحدث عنه .

صحيح .. لعل بعض احاديثنا اكتسب ثقافة العصر ومعطياته في الجداول والاحصاءات والخطوط البيانية وتشقيق النظريات وتفريعها .. ولكن يبقى أننا في حاجة الى ان ندرس لماذا كان الفشل في ذلك قبل أن ندرس — أو خلال دراستنا — للظاهرة من جديد .

الناحية الثانية :

أنه يجعل عملنا الحاضر استمراراً للعمل الماضي .. متابعة له لا استئنافاً ..حتى لايتكرر في كل مرة التعداد من الصفر .. ان تتابع الجهود على طريق واحدة خير من تفتيتها على طرق مختلفة .

ولست أحب أن أقول أن ظاهرة خطرة هي ظاهرة الاستخفاف بكل مـايكتب والاضراب عنه ، توشك أن تغزو مجتمعنا وشبـابنا .. شبابنـا أضحى يؤثر الدعوة العملية على كل الجوانب النظرية .. لأن بعض الذين حدثوه عن الجوانب النظرية «تجربة الاحزاب في الوطن العربي» ماقادوا مطامحه الى شيء ايجابي .. انهم مازالوا يعدونـه الوعود ويزينون له الاماني .

ترى هل كان عمل الندوة في استئناف اعمال مماثلة أو مشابهة تقدمتها ، دون وقفة عندها أو تقييم لها أو افادة منها ، وانصرافها الى الابتداء من نقطة الصفر ، هل كان هذا من بعض ما رأى الراؤون أو ارتأوا انه من عيوب الفكر العربي الذي لايبني مدماكاً

فوق مدماك وانما يضيف مشروع بناء آخر الى جانب البناء السابق دون أن يستطيع — الا في النادر — أن يعلو عليه وان يضيف جديداً الى الذي سبقه ؟

ترى ، مرة اخرى ، هل وقعت الندوة في الذي عرضته من ملامح ؟ أكان وقوعها تأكيداً لهذا الذي عرضته ؟

★ ★ ★

وبعد ، فمن المؤكد أن هذه التعليقات ليست هي كل الذي يخرج به المرء مما سمع أو رأى أو قرأ .. ولكنها الجانب الوميض منها .. لالنا نتقبل الندوة على أنها ظاهرة ايجابية . وحين نأمل في استمرارها فانما ندعو الى الجانب الايجابي منها .. الى التجديد في الموضوع والتنويع في الباحثين وتسليط الضوء متساوياً — ما أمكن ذلك — على الجوانب كلها .. واعتبار أن مسؤولية المفكرين العرب مسؤولية واحدة ، وانها مسؤولية بحث وتفكير ، لا مسؤولية تشهير وتبشير .. وان المجتمع العربي — مهما يكن من أمر النظريات العامة — نسيج خاص .. وان حركته النادرة في الزمان والمكان ، وفي العقيدة واللغة ، وفي تلاقح الثقافات وتمازج الاجناس لايمكن أن تسمح له بحلول « قبلية » أو تخضعه لأفكار سابقة .. وانه لمثل هـذا انما تكون الندوات .. فاذا ابتعدت عن ذلك ابتعدت عن المسؤولية الكبرى التي نحسها .

وهذه التعليقات ، بعد ، ليست غمطاً لأحد ولا نقداً لأحد .. الايمان بكل انسان عربي وبضرورة جهد كل عربي ، تحول بيني وبين التصنيف .. وبحرصي على مجانية التقييم أجدني مدفوعاً الى أن اعبر عن اعجابي الشديد بهذا الجهد الذي استطاع أن يقيم هذه الندوة، وسأظل مديناً لكل باحث بأني عرفت منه ، كثيراً أو قليلاً، مالم أكن اعرف.

حسب مثل هذه الندوات أنها كشفت عن اسماء لامعة ، وعن آراء واجتهادات يجب أن نتعرف اليها، واثارت عزائم .. وانها تمهيد لخطوات اكثر احتفاقاً وأدق اختياراً، وأصفى جوهراً ، وتحديداً . حسبها انها خطوة على الطريق الطويلة التي لابد منها .

الدكتور صالح خرفي

مدخل إلى الأدب الجزائري الحديث

تمهيد .

الحرب العالمية الأولى تكاد تكون معلماً بارزاً في حياة الجزائر السياسية والفكرية والدينية والاجتماعية . وهذه الأهمية لا تنبعث من الحرب ذاتها ، بقدر ما تفرضها عوامل سبقت الحرب أو تلتها . وملابسات كانت ذات أبعاد في حياة الجزائر بمختلف وجوهها .

فالثلاثون سنة من مستهل القرن ، والتي تتوسطها الحرب ، تعتبر في تاريخ الجزائر أحفل الفترات مواقف وأحداثاً ، وأزكاها حيوية ونشاطاً ، وأسبقها الى تجارب رائدة ، وأشدها جرأة في ارتياد بعض الميادين الحساسة سياسياً وفكرياً . ولا نبالغ اذا قلنا ان هذه العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين تعتبر المنبع الأساسي لكل الروافد الفكرية والسياسية التي ستتميز على مر الأيام ، وتزداد عمقاً على مجرى التجارب .

فهي الفترة التي عرفت ميلاد الصحافة العربية الوطنية ، وانبعاث الحركات العلمية الاصلاحية ، وفجرت التجارب السياسية الرائدة، وهي المنعرج الذي طالعنا بشخصيات جزائرية بارزة ، سيكون لها في مستقبل الجزائر الأثر الخالد ، والتجربة الهادفة .

ولم يكن ما زخرت به هذه الفترة اصلاحاً كله . بل زخرت بغير قليل من النشاط المناهض للاصلاح ، فهي الفترة نفسها التي استطاعت أن تبلور بعض الاتجــاهات الموالية للاستعمر ، الخادمة لركابه ، المسخرة لاغراضه وهو ما طعم الفــترة بحيوية المنافسة ، وغذاها بحدة المواجهة ، وأثراها بالمشاريع التي تقف وراء كل اتجاه تشد جانبه ، وتسند ظهر دعاته .

ان الفترة رصيد من الارهاصات الفكرية ، والتطلعــات السياسية ، لا يمكننا — بدون القاء الاضواء عليهــا — أن نتلمس الظاهرة الادبية الجزائرية في تاريخها الحديث بيد كاشفة ، أو نتفحصها بعين نافذة .

ان دراسة الطبيعة ، والقاء الاضواء على البيئة كمدخل لدراسة ظــاهرة أدبية فكرية لا يساعد فقط على فهم النص وانصافه بهدي من ملابساته وظروفه ، بل يساعد أيضاً على تتبع الجذور العميقة النابتة الادبية، وطبيعة الارض التي انشقت عنها ،حتى لا نهتم بالفرع مقطوعاً من أصله ، أو نستند الى أصل مجتث من أرضه .

ولعل النصوص التي تطرحها فترات غير عادية ، يكتنفهــا الغموض ، ويبعدها انعدام المرجع والمصدر، تكون أكثر الحاحاً على الدارس في فهم ظروفها وزمانها ومكانها، وفي طرح « مدخل » يأخذ بيد المقدم على مجاهلها . فان النص من هــذه النصوص لا يختلف في شيء عن الآثار المنقوشة والمدفونة تحت الرمال .

ونحن — استجابة لذلك — سنعمد الى القــاء الاضواء على بعض جوانب الحياة

في الجزائر في الثلاثين سنة من مستهل القرن العشرين ، تلك الجوانب التي نعتقد أن لها كبير صلة بالنص الادبي الجزائري الحديث الذي احتضنت هذه السنوات انطلاقته .

الحالة الدينية والفكرية

الحملة الفرنسية على الجزائر كانت صليبية في دوافعها واهدافها ، فلا غرابة أن تتخذ من المبشرين رواداً ودعاة لها،وتتخذ من تصريحاتهم الحاقدة على الاسلام شعاراتها، وتقتحم بصلبانهم المساجد تحولها الى كنائس ، ودور العلم والعبادة تسخرها ثكنات لجيش الاحتلال .

قال (الكاردينال لافيجوري) : « علينا أن نخلص هذا الشعب ، ونحرره من قرآنه ، وعلينا أن نعتني على الاقل بالأطفال لتنشئتهم على مبادىء غير التي شبعليها أجدادهم، فان من واجب فرنسا تعليمهم الانجيل او طردهم الى اقاصي الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر » .

وقال سكرتير (بيجو) : « آخر ايام الاسلام قد دنت ، وفي خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إله غير المسيح . أما العرب فلن يكونوا ملكاً لفرنسا الا اذا أصبحوا مسيحيين جميعاً »(١) .

كانت الحملة تستهدف الشعب جسماً وروحاً . فقد أدركت على مر الأيام أن الخطر لايمكن ان يزول بابادة الجسم وحده ، فطاردت الاثنين معاً ، وتحت وطأة الضربات القاسية والمواقف اليائسة، كان على الاسلام ان يتراجع ، ويتخلى عن خطوطه الاولى ، ريثما يستجمع قواه في الاطراف النائية ، فيعيد الكرة من جديد .

وظل الاسلام حتى اواخر القرن الماضي في الجزائر يقف موقف الدفاع عن بقاياه منطوياً عليها في زاوية في الصحراء ، أو كتاب بالقرية ، أو « طريقة » صوفية ينتشر أتباعها هنا وهناك ، وربما أنس من نفسه صحوة ، فحاول الانتفاضة ، ولكنه لا يلبث أن يتهاوى ، ويلملم جراحه ، ويعود الى سابق انطوائه وانغلاقه ، والتنفيس عن مأساته في أجواء صوفية روحية .

(١) محمد الصالح الصديق (الجزائر بين الماضي والحاضر) ص ٥٣ كتب سياسية. الكتاب ١٨٤ مطابع الدار القومية . القاهرة ١٩٦٠ .

ويوم أطاحت قوة البطش بالاسلام، حاولت أن تستبدله باسلام تكيّفه على حسب أهوائها، فأنشأت له ثلاثة معاهد في كل من قسنطينة والجزائر وتلمسان سنة ١٨٥٠، وقيّضت له بعض (الزوايا) التي استمالتها، تخدّر الشعب بطقوس وأضاليل، وهي بدورها مخدّرة في يد المستعمر.

أما المدارس فقد اعترف الفرنسيون أنفسهم بعجزها عن تأدية الوظيفة المأمولة منها.

« ان هذه المدارس تعتبر تابعة للتعليم العالي اذا راعينا بعض العلوم التي تلقى بها، وتعتبر من مدارس التعليم الابتدائي من حيث درجة الطلبة العلمية، ومن حيث المرتبة الضئيلة جداً التي للعلوم العصرية بها » .(٢)

ويذهب (م. برك) مدير الشؤون الأهلية أبعد من ذلك في تحديد ملامح خريج هذه المعاهد، فيقول:

« ان خطأنا الفاحش في سياستنا الدينية منذ عشرين سنة هو أننا تساهلنا في وجود موظفين دينيين في المساجد، يسيطر عليهم الجهل المركّب، والطمع، وعدم التهذيب، ولا حدّ لرغباتهم في أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

فعدم الكفاءة، والمبالغة في الخضوع والانقياد هي الشهادات الوحيدة التي يمكن أن يعتزوا بها.. ».

ثم يشير (برك) الى الشهادات التي تعتز بها الادارة الفرنسية في تقييم هؤلاء، فقال: « لقد وصل بنا امتهان واحتقار الدين الاسلامي الى درجة أننا أصبحنا لانسمح بتسمية المفتي أو الامام الا من بين الذين اجتازوا سائر درجات التجسس، ولا يمكن لموظف ديني أن ينال أي رقي الا إذا ما أظهر للادارة الفرنسية اخلاصاً منقطع النظير » (٣).

---

(٢) أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر ص ٢٨٠ ط ٢ دار المعارف ١٩٦٣.

(٣) (بيرك) مدير الشؤون الاهلية أثناء الحرب العالمية الثانية.

جريدة (البصائر) ع ١٩٥١/١٧٧ / عيون البصائر ص ١٦٨. دار المعارف ١٩٦٣.

تلك هي طائفة (علماء الدين) الرسميين بشهادة من خلقها وصورها ، وهذه الطائفة ان استطاعت أن تجعل بعض حلقات العلم تلتف حولها في المساجد الكبيرة في عواصم الجزائر ، فانها كانت أعجز أن تجعل لهذه الحلقات أصداء في الخارج ، وأبعاداً ثقافية وفكرية . بل ربما انحصر هذا التجاوب بينهم وبين (الولاة العامة) صاحبة النعمة والوظيفة والوسام .

وإذا قدر للمدرس بالجامع الأعظم ، أو الامام بجامع (سفير) (٤) أن يلعب دوراً فكرياً ، فهو محرر بجريدة (المبشر) الناطقة باسم الاحتلال ، والمنوهة بحضارة وتقدم فرنسا ، وفضلها على الجزائر . وأغلب الذين أشرفوا على القسم العربي من هذه الجريدة كانوا من علماء الدين الرسميين .

* * *

وأما (الطرقية) المنحرفة فشهد شاهد من أهلها بتواطئها مع الاحتلال من أيامه الأولى .

« ان من الواجب علينا اعانة حبيبة قلوبنا فرنسا ، مادياً وأدبياً وسياسياً . ان أجدادي قد أحسنوا صنعاً في انضمامهم الى فرنسا قبل أن تصل الى بلادنا ، ففي عام ١٨٣٨ م كان أحد أجدادي قد أظهر شجاعة نادرة في مقاومة أكبر عدو لفرنسا (عبد القادر الجزائري) وفي عام ١٨٧٠ حمل سيدي أحمد تشكرات الجزائريين ، وبرهن على ارتباطه بفرنسا قلبياً ، فتزوج من (أوريلي بيكار) وهو أول مسلم جزائري تزوج بأجنبية ، على يد الكاردينال لا فيجري على حب الطقوس المسيحية ... » (٥)

---

(٤) من المساجد الأربعة التي أبقى عليها الفرنسيون في الجزائر العاصمة . اثنان يقعان على شاطىء البحر ، وهما الجامع الجديد والجامع الاعظم ، واثنان داخل القصبة في أعلى المدينة جامع (سفير) وجامع سيدي رمضان .

(٥) مجلة (الفتح) ع ٢٥٧ م ١٣٥٠/٦ (صاحب السجادة الكبرى يلقى بين يدي فرنسا خطبة (الاخلاص) والخطبة لسيدي محمد الكبير شيخ (الطريقة التيجانية) بـ (عين ماضي) ألقاها امام (الكولونيل سيكوني) في زيارة له للمنطقة .

وأما الطرقية في حقيقتها الدينية ، ووجهتها العقائدية فهي كما صـورها (أحمد توفيق المدني(٦)) :

« وآل امر الكثير من هذه الزوايا والطرق الى احداث وثنية في الاسـلام ، ما انزل الله بها من سلطان ، واصبح شيخ الطريقة أو المرابط في كثير من النواحي يتصف بأوصاف الربوبية . فهو الذي يعطي وهو الذي يمنع ، وهو الذي يقبض وهـو الذي يبسط هو منبع كل خير ، ومصدر كل شر .

وتفشت اثر ذلك بدع واباطيل ، لا تشوه وجه الاسلام السمح وحده ، بل تسود وجه البشرية برمتها . يزعمون انهم يقومون بها زلفى وتقرباً الى الله ، كضرب الدفوف والرقص واختلاط الرجال والنساء ، وأكل الحشرات السامة ، والتمرغ على الاشواك ، والتشبه بالحيوان الاعجم في مشيته واصواته . سبحان ربك رب العزة عما يصفون » .

مع بداية القرن كانت الجزائر وصلت الى هـذا المنعرج الخطير في حياتها الدينية والفكرية بين :

عقيدة شوهتها الاضاليل ، وتسلط عليها المستعمر ، فجردها من براءتها الاصلية ، وسالف دورها الحفاظي الذي قامت من أجله ، وسخرها لاغراضـه ، وبسط عليها حمايته ورعايته .

وعقيدة جديدة ، تلبس مسوح التمدن والحضارة ، واوسمة التزكية والتقدير ، وتحتل عواصم البلاد تبارك محتلها وغاصبها ، وتدعو له وباسمه في خطب الجمعة ، وتمكنه من رقاب الشعب باسم الدين ومن حريته باسم الامن والاستقرار ، وتسخر اقلامها للدعاية له ، والتنويه به ، وألسنتها بالدعوة لطاعته ، والخضوع لاوامره .

في هـذا المنعرج الخطير الذي كاد يطبق فيه المستعمر على الشخصية الوطنية ، ويحقق غاية تطلع اليها من سبعين عاماً .

كانت في زوايا متعددة من القطر الجزائري ارهاصات ، تبشر بوجهة جديدة للحياة الدينية ، والفكرية وعودة أصيلة الى المنبع ، وتطلع نافذ الى المستقبل . فقـد بدأت المشاعر الصادقة ، والأماني الوطنية تتجمع وتتحفز ، في صـورة (مدرسة حرة) أو

---

(٦) احمد توفيق المدني (كتاب الجزائر) ص ٣٥١ .

(منتدى ثقافي) أو (جريدة وطنية) (٧) أو حلقة علم خالصة لوجه الله ، غير تابعة لحاكم يعد عليها انفاسها ، أو مقيدة براقب يعقل لسانها ، أو وسام يغل عنقها .

ولكي ندرك التباين الخطير بين دين رسمي يولي وجهه شطر الحاكم، وان كسا نشاطه بسمة من الاصلاح الديني ، نلقي نظرة على الموقف العدائي الذي وقفه (المولود بن الموهوب) مفتي المالكية بقسنطينة من الشيخ (عبدالحميد بن باديس) زعيم النهضة الاصلاحية بالجزائر ، ومنعه من القاء دروسه الاولى بـ (الجامع الاخضر) بقرار رسمي حكومي (٨) .

ونلقي نظرة ثانية وراء السر الذي دفع (ابن باديس) أن يأخذ عهداً على نفسه (٩) وعلى خريجي مدرسته الا يشغلوا وظيفاً حكومياً مدى الحياة .

كانت الفترة فترة تسابق وصراع بين نهضة دينية فكرية أرادها المستعمر ، وبيّتها على الوطن ، وبين توثب فكري ديني نابع من أعماق الشعب ومن حاجته الماسة الى صحوة جديدة ، أو هو بالاحرى صراع بين نهاية ارادها المستعمر للاسلام ، وبعث له يريده مواطن لم تمسه يد المستعمر بسوء . تجلى ذلك في حلقات العلم التي التفت حول (عبدالحميد بن باديس) في (الجامع الاخضر) و (جامع سيدي قموش) قبيل الحرب العالمية الاولى . ولنلمس الابعاد التي كانت لهذه الحلقات العلمية، نقرأ عنها فقرة للشيخ البشير الابراهيمي :

---

(٧) أول (مدرسة حرة) تأسست بالجزائر هي (المدرسة القرآنية) بمدينة (تبسه) سنة ١٩١٣ أغلقتها الحكومة بعد شهور من افتتاحها . انظر (ارشاد الحائرين) ابراهيم بن الحاج عيسى القراري . مطبعة العرب . تونس ١٩٢٣ .

وأول جريدة حرة وطنية هي (الجزائر) لعمر راسم سنة ١٩٠٨ . أوقفتها الحكومة . و (نادي الترقي) كان في طليعة النوادي الفكرية الاصلاحية . تأسس سنة ١٩٢٦ .

(٨) (الشهاب) ج٤ م ١٤ جوان جوليت ١٩٣٨ .(كلمة عن الجامع الاخضر) للشيخ عبد الحميد بن باديس .

(٩) هذا العهد أخذه ابن باديس على نفسه أمام شيخه (حمدان الونيسي) ثم طالب به المتخرجين على يديه .

« وشرع الشيخ بعد رجوعه (١٠) من أول يوم في تنفيذ الخطوة الأولى من البرنامج الذي اتفقا عليه فقتح صفوفاً لتعليم العلم ، واحتكر مسجداً جامعاً من مساجد قسنطينة ، لالقاء دروس التفسير . وكان اماماً فيــه دقيق الفهم لكتاب الله ، فما كاد يشرع في ذلك ويتسامع الناس به ؟ حتى أهال عليه طلاب العلم من الجبال والسهول الى أن ضاقت بهم المدينة ، وأعانه على تنظيمهم وايوائهم ، واطعام المحاويج منهم جماعة من أهل الخير ومحبي العلم ، فقويت بهم عزيمته، وسار لا يلوي على صائح ، واشتعلت الحرب العالمية الاولى وهو في مبدأ الطريق ، فاعتصم بالله فكفاه شر الاستعمار ، وكان له من وجود والده درع ووقاية من بطش فرنسا التي لا تصبر على أقل من هذه الحركات .

وكان لوالده مقام محترم عند حكومة الجزائر، فسكتت عن الابن احتراماً لشخصية الوالد ، وظهرت النتائج المرجوة لحركته من السنة الاولى ، وكانت في السنة الثانيـة وما بعدها أكبر . وعـدد الطلبة أوفر . الى أن انتهت الحرب ورجعت الى الجزائر ، ورأيت بعيني النتائج التي حصل عليها ابناء الشعب الجزائري في بضع سنوات من تعليم « ابن باديس » واعتقدت من ذلك اليوم أن هذه الحركة العلمية المباركة لها ما بعدها ، وأن هذه الخطوة المسددة التي خطاها « ابن باديس » هي حجر الأساس في نهضة عربيـة في الجزائر » .

والرسالة الدينية والفكرية التي نهض بها (ابن باديس) يتجلى خطرها أكثر بالقاء نظرة على الظروف الـتي اكتنفتها ، والحالة العلمية الراكدة التي كانت تسود الجزائر في بداية القرن . فقد تلاشى النشاط الفكري كما أشرنا بين الطوائفيــة صوفية في أطراف البلاد ، وثقافة محدثة في عواصمها .

فأما (الزوايا) و (الطرق) فقد استهلكتهـا الأيام ، وغرقت في دوامة من الصوفية الجوفاء ، القعيدة العاجزة عن أي دور فكري ايجابي ، بل لم يعد من رسالتها الا أن تتحكم في عقول النـاس بشعوذة دخيلة على الاسلام أصيلة في خدمة المستعمر ، بتسخير رقاب البسطاء له .

واذا قدر أن يكون لها نشاط في المنظوم أو المنثور ، فهو صورة لها ، باهتـة الملامح ، منحرفة المضمون سقيمة الشكل ، لا تتعدى مباركة هـذه الطقوس التي تقوم عليها الطريقة ، وتقديس الأولياء والمشايخ الذين يتقدمونها ، وغالباً ما تصبح هـذه

(١٠) مجلة (مجمع اللغة العربية) ج ٢١ ص ١٤١ — ١٤٢ .

المنظومات أذكاراً تتلى في حلبات الطرق ، وترتل في موالدها، حتى اشتهرت كل طريقة بمنظومة ، تنزل من ذاكرة مريديها ، منزلة القرآن من متبع السنة .

وقد قيّم البشير الابراهيمي هذه النصوص أصدق تقييم حين قال :

« وقد اطلعنا على أكثرها فاذا هي من لون واحد مصروفة في الغالب الى مدح المشايخ والكبراء ، واذا هي أخت الاشعار الملحونة الرائجة في السوق ، لأنها منقطعة الصلة بالشعر في أعاريضه وأضربه ، ومنقطعة الصلة بالعربيـة في ألفاظها ومعانيها ، ومنقطعة الصلة بالخيال في تصرفه واختراعه (١١) .

وأما حلقات العلم الرسمية في العواصم ، فقد عجزت هي الأخرى أن تجد لها تجاوباً في المواطن ، وان وجدته بادىء ذي بدء فما لبثت أن فقدته ، وليس بغريب أن يفتضح أمرها وأمر موالاتها للدخيل ، الى جانب عجزها الفكري ، فتجازى بالنفور من المواطن الذي يتطلع الى ثقافة تتجاوب مع مأساته التي يتخبط فيها تجاوبالاصلاح لا التضليل .

قال (محمد فريد) :

« وقد قابلت المفتي الحالي (١٢) واسمه سيدي علي بن عبد الرحمن ، فأحسن مقابلتي ، وأخذ يستعلم مني عن أحوال اخوانهالمسلمين بمصر ، وحال العلم بها ، ويئن من تأخر العلوم الاسلامية بالقطر الجزائري وعدم اقبال الأهالي على طلب العلم حيث قال في أثناء حديثه :

(١١) من محاضرة الشيخ البشير الابراهيمي ألقاها (بنادي الترقي) بالجزائر العاصمة بعنوان (عرض الحالة العلمية) ويضيف الشيخ :

(بل أنا أحكم بأن في الشعر الملحون ما هو شعر في الحقيقة ، فقد سمعت من شعر القرن الماضي،ما يفيض حكمة وحثاً على الفضائل والكمالات،وتخويفاً من الله والآخرة ، وسمعنا منه ما يتضمن المغزى والسير . وان كان معظمه كذباً .

ولكننا لم نجد لشعر اخواننا العلماء أثراً في هذا الموضوع ،

(الشهاب) ج ٩ م ١٠ أوت ١٩٣٤ .

(١٢) محمد فريد (من مصر الى مصر) رحلة سنة ١٩٠١ .

« قد قل الطالب والمطلوب حتى نقص عدد من بالجامع الآن الى تسعة فقط بعد أن كان يزيد على المائة ، وما ذلك الا لفقر الأهالي ، واضطرارهم للاشتغال بطلب المعاش » .

و (محمد فريد) نفسه ، بعد زيارته أشهر العواصم العلمية في القطر الجزائري : تلمسان وقسنطينة والجزائر ، يلقي نظرة تقييمية شاملة على الحالة الفكرية الراكدة التي كانت تسود البلاد . .

« فأصبحت البلاد وليس فيها من المدرسين بالجوامع الا ما يعد على الاصابع ، وقل الطالب والمطلوب وهجرت ربوع العلم ، وخربت دور الكتب ، وصارت الديار مرتعاً للجهل والجهلاء ، وكادت تدرس معالم اللغة العربية الفصحى . .

وبالاختصار فحالة التعليم بالقطر الجزائري سيئة جداً ، ولو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في جميع المعاملات ، بل ربما تندرس اللغة العربية بالمرة مع مضي الزمن فـلا الحكومة تسعى في حفظها ، ولا تدع الاهالي يؤلفون الجمعيات لفتح المدارس لمنعها أي اجتماع خوفاً من ان تشتغل جمعياتهم بالامور السياسية » (١٣) .

تلك نظرة واقعية على الجزائر الدينية والفكرية في سنة ١٩٠٥ ، ليأتي (ابن باديس) بعد عشر سنين يؤلف من الشعب ما عجزت عنه الايدي المهزوزة ، ويفجر فيه ما قصرت عنه العقول المتحجرة . فليس الفقر سبب النفور ، أو الغنى سبب الاقبال ، فان الحالة الاجتماعية لم تتغير بالشعب بعد سنوات عشر ، ولكن الذي تغير هو البعث الاصلاحي الذي لمسه ابناء الشعب في (ابن باديس) فوفدوا عليه من كل حدب وصوب .

★ ★ ★

والفترة ذاتها شهدت الطلائع الاولى للبعثات التعليمية الى خارج الجزائر ، وتمثلت هذه البعثات في هجرات فردية الى الشرق العربي والاسلامي ، أو جماعية منظمة الى كل من (الزيتونة) في تونس و (القرويين) في المغرب .

---

(١٣) من الأمور التي تعاقب عليها (القوانين الاستثنائية الجائرة. الانديجينا) :
٢٠ — فتح أي محل ديني أو مدرسة للتعليم بدون اذن .

والمجاه البعثات الى خارج حدود الجزائر يدل على الطموح العلمي الذي ضـــاق ذرعاً بالحالة الخانقة في الجزائر ولم يعـد يشبع نهمه ما تقدمه حلقات العلم المحدودة الافق والنطاق ، في جهات متفرقة نائية حاصرها المستعمر فعاشت بمعزل عن الروافد المطعمة بجديد .

أولى البعثات التعليمية التي تخطت حدود الجزائر الى تونس كانت سنة ١٩١٣ . ولعل الحرب لم تمكنها من استكمال رسالتها العلمية فقفلت راجعة ريثما تعيد الكرة بعـــد الحرب بصفة منتظمة طويلة النفس .

وفي اثناء ذلك كانت هناك هجرات الى الشرق العربي ، ارادها المستعمر هروباً من اضطهاده ، فكانت للعلم والاصلاح ، تتزود منها بسلاح اقوى يمكنها من الكرة الظافرة .

هذه الهجرات شهدتها الجزائر في السنوات الاخيرة للقرن الماضي ، وفي السنوات القليلة التي سبقت الحرب الاولى ، يوم صدر قانون التجنيد الاجباري لابناء شمال افريقيا والزج بهم في جحيم الحرب . واستقرت هذه الهجرات في الاستانة والشام والحجاز ، وبعضها في الاسكندرية .

ولا يمكن ان نغفل تلك البعثات المتجهة صوب باريس لاستكمال دراستها الفرنسية وقليل هم افرادها ، ولكن هذه البعثات استطاعت هي الاخرى ان تخلق جـــواً ثقافياً وفكرياً ، له منهجه الاصلاحي ، ومقاييسه السياسية تلك التي لا تبعد في قليل او كثير عن جاذبية المستعمر ، وهي التي تكونت منها النخبة الجزائرية التي جسمت سياســـة الذوبان في الوطن الام .

وكانت الادارة الفرنسية لا تبخل برعايتها المادية والادبية على نشاط النخبـــة ومشاريعها ، فجمعية (الرشيدية) كانت تتلقى سنوياً من الولاية العامة مساعدة مادية، ونظرة على جدول المحاضرات التي أشرفت عليها الجمعية سنة ١٩٠٧ تعطينا صورة عن النشاط الفكري الذي خلقته ، والفلك الذي يدور فيه لا يتعداه (١٤) .

★ ★ ★

هذه الروافد الفكرية المتعددة سواء ما شرق منها أو ما غرب ، تلك التي تنبـع

---

(١٤) انظر (الحركة الوطنية الجزائرية) ص ١٦٣ أبو القـــاسم سعد الله ، منشورات دار الآداب . ١٩٦٩ ؛

من الشرق العربي ، ومن نقاط الانبعاث الاصلاحي فيـه ، أو تلك التي تفد من تونس همزة الوصل بين المغرب والمشرق أو تغزو من باريس بحضرتها البراقة ، ومظهرهـا المغري . هذه الروافد بمختلف منابعها ، واتحاد مصبها ، استطاعت أن تطعم الجـو الفكري الراكد في الجزائر بحيوية ونشاط ، وتمد الثقافية التقليدية بروح جديدة ، وكان اختلاف المشارب باعثاً على التنافس الخلاق . والمواجهة المتجددة .

ففي الوقت الذي كانت فيه الحركة العلمية الرسمية التقليدية في الجزائر خادمـة مخلصة للمستعمر ، متملقة له ، متقربة إليه بمناهضة الاتجاهات الوطنية العامـة في المجال الديني ، كان المجال السياسي يشهد الصراع ذاته بين (النخبة) المعتدلة أو المستخذية وبين حركة (الامير خالد) التي لم تكن متطرفة بحال ، ومطالبها العشرة شاهدة على ذلك، فهي لم تذهب أبعد من التوسـع بعض الحقوق للجزائريين ، ولكنها كانت في نظر النخبة التي تسعى الى الاندماج بخطى حثيثة ، ابتعاداً عن الاندماج ، وسعياً حثيثاً هو الآخر نحو شخصية جزائرية مستقلة .

والصراع عينه يطالعنا بين الثقافة المجترة المقلدة القابعة في الزوايا ، والمنساقة هي الأخرى الى فلك المستعمر ، وبين الوثبات الاصلاحية التي امتدت الى الشرق العربي أو التقت به عن طريق غير مباشر في تونس ، فرجعت الى الجزائر غايتها فك الدين من ربقة الشعوذة والوثنية ، وابعاده عن منطقة الجاذبية المستغلة .

على ان الواجهتين الدينيتين : الرسمية والتقليدية ، المضادتين للحركة الاصلاحية ، ستغذيانها بالبواعث المجددة لنشاطها ، وهو ما لمسناه في المجال السياسي . ولذلك فان « الاصلاح » كان ينتظم واجهتين للتهديم أو هي واجهة واحدة للمستعمر المتستر وراءها ، فلا غرابة أن يتفرغ في سنواته الأولى لهذه الواجهـة تستنفد العديد من مجهوداته أضعاف ما استنفدته واجهة البناء حتى اتهم البعض الحركة بأنها لم تكن سوى «مجادلة ضد المرابطين والاستعمار » «١٥» .

★ ★ ★

ولنلتفت الى مجال فكري آخر ، هو مجال « الصحافة العربية » .

فالى جانب « جريدة المبشر » التي أشرنا إليها ، عرفت الجزائر مع بداية القرن

(١٥) مالك بن نبي (آفاق جزائرية) ص ٥٧ مكتبة النهضة الجزائرية .

العشرين صحفاً لا تختلف عن « المبشر » وجهة وغاية ، يصدرها مستشرقون فرنسيون، أو اتباع لهم من علماء الدين الرسميين .

ففي سنة ١٩٠٤ صدرت جريدة (النصيحة) لـ (م فرسلان) وفي سنة ١٩٠٧ صدرت (كوكب افريقية) لـ محمود كحول (١٦) « المفتي الرسمي ». وفي سنة ١٩١٢ صدرت « أخبار الحرب » للمستشرق « ميرانت » مدير الشؤون الاهلية وأشار « فيليب دي طرازي » في الجزء الاول من « تاريخ الصحافة العربية » الى جريدة باسم « الاحياء » اصدرتها بمدينة الجزائر « السيدة جان دريو » (١٧) .

ظاهرة تشير الى ان طلائع الصحافة العربية بالجزائر كانت استعمارية ولعلها احدى النتائج التي كان يرمي اليها عندما سهر على تخريج طبقة من العلماء على مشربه واتجاهاته فلا غرابة ان يكون المشرفون على التحرير العربي في هذه الجرائد من تلك الطبقة (١٨) .

ولم تكد هذه الجرائد سواء أصدرتها دوائر رسمية ، او جزائريون يدورون في فلك هذه الدوائر ، تجمع أنفاسها حتى استثارت الكوامن المضادة في صورة صحافة وطنية متحدية لهذا التيار الدعائي للمستعمر ، والاقلام التي تخدمه ، واستطاعت هذه الجرائد أن تتنفس في الجو الديمقراطي مظهراً ، وتفوت على الدخيل مكره وخداعه لاقلام رخيصة بأقلام تستلهم القضية الوطنية ،

فطالعتنا الجرائد العربية الحرة (١٩) :

(١٦) هو المفتي الذي اغتيل سنة ١٩٣٦ أيام انعقاد المؤتمر الاسلامي العام بالجزائر العاصمة ، واتهم باغتياله – كذباً وزوراً – الشيخ الطيب العقبي أحد أقطاب الحركة الاصلاحية ، وألقي عليه القبض وسجن ، ثم افرج عنه بعد ثبوت براءته ، وكان القصد من اغتيال المفتي التشويش على المؤتمر الذي أقلق المستعمرين ، وقد تبين أن الذي اغتال كحول يهودي .

(١٧) فيليب دي طرازي . تاريخ الصحافة العربية . ج١ ص١٣ .

(١٨) انظر المرجع السابق .

(١٩) توجد بالمكتبة الوطنية الجزائرية مجموعة من الجرائد الجزائرية في أوائل القرن منقولة على « الميكرو فيلم » من المكتبة الوطنية بباريس .

كانت في طليعتها جريدة « الجزائر » لـ « عمر راسم » سنة ١٩٠٨ . ولكنها لم تدم طويلا فقد كانت الرقابة لها بالمرصاد .

ثم صدرت جريدة « الحق الوهراني » سنة ١٩١١ وواصل « عمر راسم » على صفحاتها نشاطه القلمي الى أن أصدر جريدة « ذو الفقار » سنة ١٩١٣ باسم مستعار هو « ابن المنصور الصنهاجي » . وكانت جريدة عربية اشتراكية انتقادية . وهي أول جريدة عربية اكتشفت الخطر الصهيوني . وحذرت منه في سنة ١٩١٤ (٢٠) . ولم يزل صاحب « ذو الفقار » يواصل نشاطه في اتجاهه التحرري حتى ألقي عليه القبض مع الحرب العالمية الاولى. وحوكم عسكرياً وصدر عليه الحكم بالأشغال الشاقة . ثم افرج عنه بعد الحرب .

وصدرت قبل الحرب جريدة « الفاروق » لـ « عمر بن قدور » وكانت آية في اتساع الافق واصالة الفكرة ، وطوحت بأفكارها الى ما وراء الجزائر ، وعالجت قضايا العالم العربي والاسلامي ، ومحنة الخلافة العثمانية ، واعتبرها « فيليب دي طرازي » من الصحف العربية الرائدة قبل الحرب الاولى ، وقال عن صاحبها (٢١) :

« يعد هذا الاديب من اكتب الصحافيين في المغرب الأوسط وأرقاهم » .

ولم يزل صاحب « الفاروق » في صراع مع الادارة الفرنسية حتى تحداها بمقال منعته من نشره،فنشره ، فنفته الى صحراء الجزائر حيث قضى سنوات الحرب(٢٢).

وبعد الحرب صدرت « الامير خالد » جريدة « الاقدام » فرنسية اللسان في أول عهدها ، ثم اضاف اليها من العدد ٣٦ وجهاً عربياً ، وكانت هي الاخرى لسان الحركة « الخالدية » التي تعتبر اول تجربة سياسية في الجزائر في هذا القرن وكانت جريدة

«٢٠» أحمد توفيق المدني « كتاب الجزائر » .

«٢١» فيليب دي طرازي « تاريخ الصحافة العربية » ج٤ / ١٩٣٣ المطبعة الاميركانية في بيروت .

(٢٢) لم أعثر على المقال الذي أوقفت « الفاروق » بسببه ، اذ ان مجموعتها في المكتبة الوطنية غير كاملة ، وانما وردت الاشارة اليه في مقال للاستاذ (سعد الدين بن شلب) .

« الاقدام » متنفساً لاقلام مختلفة ، ومنطلقا لمشاعر مكبوتة ، وأفقاً لتباشير أدبية شعرية ونثرية .

وحاول (عمر بن قدور) بعد الافراج عنه ان يعيد الكرة بـ (الفاروق) فأصدره في شبه مجلة ، واستمر في الصدور حتى سنة ١٩٢٤ حيث القى قلمه بعد ضغط وارهاق من المستعمر (٢٣) .

وفي العشرينيات بدأت صحافة الحركة الاصلاحية في الظهور ، ليبدأ معها عهد جديد من الانتاج الفكري والصراع العقائدي بين الحركة وخصومها ، وكانت « المنتقد » طليعة هذه الصحافة ، وقد استوحت اسمها من الشعار الطرقي السائد في تلك الفترة «اعتقد ولا تنتقد » ، وصدرت « المنتقد » في سنة ١٩٢٥ .

وكان المستعمر لها بالمرصاد فأوقفها من أعدادها الاولى. ثم أعقبتها مجلة «الشهاب» الاسبوعية وامتدت بها الايام من سنة ٢٦ – ١٩٢٩ .

وانطلق « الشهاب » في سنة ١٩٢٩ (٢٤) مجلة شهرية فرضت نفسها وأفكارها ومبادئها على الدخيل عشر سنين كانت فيها المجلة مدرسة فكرية وأدبية استقطبت كل الأقلام التي ستتمخض عنها النهضة الادبية الجزائرية الحديثة .

---

(٢٣) جاء في اعتذار « عمر بن قدور » عن توقف السلسلة الثانية من «الفاروق» ما يلي :

« بناء على ما تخرص به المتخرصون، وافتراه المفترون . من الصاق ونسبة مقالات نشرت بجريدة « التقدم » الي . فانني اعلن صراحة انني علت جريدة « الفاروق » وفارقت السياسة ، واجتنبت كل خوض فيما يخص الجرائد وغيرها ، ولازمت العزلة التامة . « عمر بن قدور الجزائري » صاحب الفاروق سابقاً .

جريدة (التقدم) ١ جوليت ١٩٢٤ .

«٢٤» جاء في العدد الاول من « الشهاب » الشهري / فيفري ١٩٢٩ .

« تستطيع الظروف تكييفنا ، ولا تستطيع باذن الله اتلافنا .

سلخ الشهاب زهاء ، أربع سنوات اسبوعياً ، واذا لم يصل الى غايته كما يجب ، فقد قام – بأمانة الله – بأعبائها كما يجب وفوق المستطاع ، =

والى جانب « الشهاب » صدرت جريدة « الاصلاح » في بسكرة ١٩٢٧(٢٥) أصدرها أحد أقطاب الحركة بعد رجوعه من المشرق العربي ، الشيخ « الطيب العقبي».

وفي الثلاثينيات تصدر للحركة جرائد متتابعة تتفاوت أعمارها طولاً وقصراً، منها « السنة » و « الشريعة » و « الصراط » وكانت « البصائر » أطولها عمراً في سلسلتها الاولى .

الى جانب الصحافة العربيـة الاستعمارية التي أشرنا اليها ، والصحافـة الوطنية الاصلاحية ، كانت الصحافة التي تمثل اتجاه « النخبة » المثقفة ثقافة فرنسية ، والتي لم تتورع أن تقف موقف المناهضة للصحافة الوطنية . وكانت جريدة « التقدم » عنوان هذا الاتجاه .

وفي مجال ثالث ، تنبعث النوادي الثقافية والفكرية النابعة من الاتجاهات المختلفة، والتي غذت النشاط الفكري بالمحاضرات التي تلقى فيها ، والمواسم الثقافية التي تنظمها .

كان في قسنطينة « نادي صالح باي » أسس سنة ١٩١١ . وفي الجزائر العاصمة « نادي الترقي » المؤسس سنة ١٩٢٦ ، الى عديد من النوادي انتشرت في أنحاء القطر، وكانت وليدة الثلاثين سنة التي ندرسها .

واذا تحدثنا عن الكلمة المقروءة النابعة من أرض الجزائر في صورة صحافـة جزائرية ، فلا يمكن أن نغفل تلك الكلمة التي كانت تفد عليها من الخارج ، وتلك الروافد التي عرفت كيف تتسلل خفية الى ماوراء الستار الحـديدي والتي كانت تجسم النتـاج النهضتين الحديثتين في الدين والادب في المشرق .

= ولقد غالبته الظروف بما لها من قوة وسلطان ، ولقد قاومها بما له من حق وإيمان ولو حاربته بغير المال لخرج كعادته غالباًمنصوراً . ولو أراد الاستكثار من هذا السلاح بكل وجـه ، فكان نصيبه فيه نصيباً موفوراً ، ولكنه عف وتكرم فـكانت الغلبة عليه .

أجل قد قهرته الظروف فغيرته من صورته الاسبوعية الى هيأته الشهرية ، ولكنها لن تستطيع بإذن الله أن تمس ضميره بسوء ، فتصيب منه في شيء » .

(٢٥) كان « الطيب العقبي » مديراً لجريدة (القبلة) في مكة في حكومة الشريف حسين ، ومديراً لمطبعتها . قبل رجوعه الى الجزائر سنة ١٩٢٠ » .

كانت كبريات الصحف العربية في بداية هذا القرن ، وأشهر المؤلفات التي تمخضت عنها النهضة الادبية الحديثة ، تمثــل المنافذ التي فتحت الطريق للاشعاعات ، ولا يمهل لها بالمرصاد ، تؤول بمجموعها الى « ادارة الشؤون الاهلية » بالولاية العامة ، لحجزهــا ومصادرتها ، ومتابعة من أرسلت اليهم .

وتلك حقيقة عاشها « محمد فريد » بنفسه وهو بالجزائر في زيارته الأولى لهــا سنة ١٩٠١ «٢٦» .

« وقد منعت عنهم الجرائد العربية ، وزاد التشديد في منعها كلها بعد حــادثة « مرغريت »(٢٧) التي هولت جرائد فرنسا فيها ، واتخذتها الحكومة سببــاً لتشديد المراقبة والتضييق على العرب ، فلم أجد في جميع مدينة الجزائر نسخة من « اللواء » ولا من « المؤيد » مع أن المشتركين فيهما كثيرون ، ولا تصل هــذه الجرائد الا لادارة « المبشر » مبادلة ، وهناك تحفظ في حرز مكين حتى لا تخرج بعض أعدادها من الادارة ، فتصل أخبار الاسلام والمسلمين الى اخوانهم الجزائريين ، وأخبرت أنــه أثناء حرب اليونان مع الدولة العلية ، منعت نفس الجرائد الفرنساوية التي كانت تنشر أخبار انتصار العساكر الاسلاميه على الاروام ، الا لبعض كبار الافرنج والموظفين . الا ان ذلك المنع والتضييق لم يمنع وصول الاخبار السارة اليهم في خطابات خصوصية .

ولما أرسلت إلي الجرائد المصرية أثناء اقامتي بمدينة الجزائر ، حجزتهــا ادارة البوسطة ، وأرسلت لي جميع الجوابات فقصدت « الم. ميرانت » رئيس تحرير جريدة « المبشر » وطلبت منه أن يكتب للبوسطة بتوصيل جرائدي الي أو بارسالها بعنواني الى باريس لاستلامها حين عودتي اليها ، فأرسلت الي في اليوم الثاني بطريقة استثنائية » .

وما ذكره « محمد فريد » ليس بدعاً ، فلم تزل الحكومــة الفرنسية في الجزائر تطارد الصحف العربية ، وتتحاشى وقوعها تحت أعــين الجزائريين ، فما بشرت الايام بصحيفة عربية جديدة ، الا وتلقتها بقرار بمنع دخولها الجزائر .

---

(٢٦) من مصر الى مصر ص ٦٦ — ٦٧ .

(٢٧) انظر تفصيله لهــذه الحادثة في كتاب (الحركة الوطنية الجزائرية) د . أبوالقاسم سعد الله — دار الآداب .

في سنة ١٩٢٧ أصدرت الحكومة قرار بمنع جريدة « الشورى »«٢٨» السورية من دخول القطر الجزائري .

وفي نفس السنة صدر قرار مماثل بمنع دخول مجلة « المنهاج » الى الجزائر«٢٩». ومجلة « الفتح » لمحب الدين الخطيب لم يسمح لها بدخول الجزائر الا بعد سنتين من صدورها «٣٠» .

وبالرغم من هذه الرقابة الصارمة ، والعين اليقظة ، فان هذه المطبوعات لم تعدم طريقها الى الجزائر ، بل الى الصحافة الجزائرية التيتزخرت بالمقالات المنقولة عن كبريات الصحف العربية . وتتجلى « المنار » في طليعة هذه الصحف، وقد اعترف قادة الاصلاح الديني في الجزائر بأن « المنـار » لعبت دوراً حاسماً في التمهيـد لهم . ونحن نلمس المكانة المرموقة التي تمتعت بها هذه المجلة في قلوب الجزائريين في هـذه الفترات للشيخ « رشيد رضا » .

« وقد عهد اليه«٣١» هؤلاء الفضلاء«٣٢» أن يوصي صاحب « المنار » بأن لا يذكر في مجلته دولة فرنسا بما يسوءها لئلا تمنع المنار من الجزائر . وقالوا له : اننا نعده مدد الحياة لنا ، فاذا انقطع انقطعت الحياة عنا ، وقد وجد له في تونس والجزائر حزباً دينياً ينتمي اليه من حيث لم يكن يعلم، وانما الصلة بينهم وبينه مجلة «المنار»«٣٣» .

ومحمد البشير الابراهيمي يعترف بهذا الدور الرائد لمجلة « المنـار » وهو يؤرخ للحركة الاصلاحية في الجزائر ويستعرض البواعث لها ، والدوافع اليها :

---

(٢٨) الفتح ع ٦٧ أكتوبر ١٩٢٧ . السنة الثانية (الصحافة في المغرب) .

(٢٩) نفس العدد من المجلة .

(٣٠) بدأ توزيع مجلة « الفتح » في « تلمسان » و « قسنطينة » في سنة ١٩٢٩ . وهي السنة الرابعة . انظر المجلة ع ١٧٧/١٩٢٩ .

(٣١) الشيخ محمد عبده في زيارته للجزائر .

(٣٢) من المرافقين الجزائريين للشيخ وكان في طليعتهم الشيخ محمد بن مصطفى ابن الخوجة ، والشيخ عبد الحليم بن سماية .

(٣٣) رشيد رضا . تاريخ الاستاذ الامام . ج١ ص ٨٧٠ .

« ويضاف الى هذا العامل«٣٤» قراء « المنار » على قلة قرائه في ذلك العهد ، واطلاع بعض الناس على كتب المصلحين القيمة »«٣٥» .

والاستاذ سعد الدين بن شنب لا يغفل هو الآخر الدور الطلائعي للجرائد العربية التي كانت تصل الى الجزائر (٣٦) .

« وابتداء من سنة ١٨٨٩ م ، أخذ « المؤيد» يدعو الى اليقظة واصلاح المفاسد المتفشية بين العرب ، ويبث حب الحرية والثورة على الاستبداد الاستعماري . فكانت الصحف والمجلات تأتيهم مباشرة من مصر ، أو تصل اليهم عن طريق غير مباشر ، أو بين حقائب الحجاج عند رجوعهم من البلاد المقدسة ، وكان كل عدد من تلك النشرات يزيدهم شجاعة وثقة وايماناً بمستقبلهم العربي الاسلامي ، فمن آثار تلك الروابط الروحية والعقلية بين الشرق والجزائر في ذلك الزمن ، أن أحدثت منذ طالع القرن الرابع عشر الهجري حركة علمية أدبية تنتمي الى النهضة الشرقية من ناحية وتقتدي بها ، ومن ناحية أخرى تقلد أساليب الغرب العلمية في البحث . »

ذلك في مجال الاصلاح الديني ، والتحرر الفكري ، وليس الموقف دون ذلك تأثراً في المجال الادبي ، بل لا يكاد يشك مؤرخ منصف بأن النهضة الأدبية في الجزائر صدى لرائدتها في المشرق ، عليها تخرج شعراء الجزائر . وعلى هديها نسجوا ، وباشعاعاتها تلمسوا طريقهم في الانتاج ، وربما بدأت النهضة في الجزائر تقليداً عقيماً لاختها في المشرق وترديداً باهتاً لاصدائها ، وتشطيراً لأشهر القصائد التي تتوافد مع الدوريات العربية الى الجزائر ، أو تونس حيث تتجمع البعثات العلمية الجزائرية .

ثم لبث التجاوب أن فجر صورة الطاقة الخلاقة الكامنة . وأصبحت النظرة المقلدة نظرة مجددة ، بل تطلعت الى مواقف نقدية تقييمية لما تتلقاه من روافد المشرق العربي. وذهبت أبعد من ذلك في طرح انتاجها في المجال العربي الواسع ، تتلقاه الدوريات العربية بترحيب وتقدير ، وتفسح له صفحاتها الأولى .

---

(٣٤) محمد البشير الابراهيمي . يقصد بالعامل السابق المناقشات التي كادت تثور في الجزائر حول الامام محمد عبده ، ومنهجه الاصلاحي .

(٣٥) « سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » .

(٣٦) مجلة كلية الآداب . جامعة الجزائر . ع١ س١ / ١٩٦٤ ص ٤١ .

وكان في طليعة من ساهم بانتاجه الأدبي شعراً ونثراً في صحافة المشرق : « عمر ابن قدور » صاحب جريدة «الفاروق» قبل الحرب العالمية الاولى ، وكان ينشر قصائده ومقالاته في جريدة « الحضارة » بالاستانة ، التي كان يصدرها الشهيد « عبد الحميد الزهراوي »«٣٧» .

و « محمد السعيد الزاهري » الشاعر الكاتب ، الذي ساهم بعد الحرب في كل من مجلة « الفتح » و « المقتطف » و « الرسالة » .

وغيرهما كثير ، يدينون بالفضل الاسبق للنهضة الادبية في المشرق ، فهما نهضت بهم في الانتاج ذاتية مستقلة فهي تنزع في جذورها الى تلك النهضة .

يقول «الهادي الزاهري» أحد أفراد الطليعة ، ومؤلف كتاب : « شعراء الجزائر في العصر الحاضر » :

« ومن منا معشر الادباء الجزائريين من لم يفتح عينيه منذ انتهت الحرب الكبرى الاولى على آثار مدرسة اسماعيل صبري وحافظ وشوقي ، وطه وأحمد أمين والمنفلوطي والزيات من أفراد الرعيل الثاني .

أقول الثاني لأنهم سبقوا بطبقــة الشيخ محمد عبده ومن التف حوله من أمثال رشيد رضا ، وعبد العزيز جاويش ، وطنطاوي جوهري ، وعلي يوسف ، وتوفيق دياب ، والمرصفي . وخلف من بعد هؤلاء الخلف الصالح كأحــد أمين والمنفلوطي والرافعي ، فكانت « الهلال » و « المقتطف » و « المنار » هــذه الثلاثة على الخصوص رسل النهضة الادبية المشرقية الى الشمال الافريقي .

وكأن أساتذتنا لا يفتأون يتحرون لنا من منظومهم ومنثورهم ، ما يؤثر ونتابه لتثقيف عقولنا واصلاح ألسنتنا ، وتبصيرنا بما تجود به أفكار المدرسة الحديثة في عالم العرب»«٣٨» .

---

(٣٧) أعدم الشيخ الزهراوي من طرف الاتحاديين الاتراك شنقاً . في المحاكم العرفية المشهورة في بيروت ١٩١٦ .

(٣٨) وجاء في ترجمة « محمود بن دويدة » وهو من ضمن الجزء الثاني من « شعراء الجزائر » :

واذا حددنا ملامح هذا الصراع بين ثقافة تقليدية عميلة، وثقافة اصلاحية متحررة، وبينها وبين ثقافة عربية منحرفة نستطيع أن نتصور في الوقت ذاته ملامح المعركة الصاخبة بين هذه الاتجاهات بما أوتي بعضها من سند الحاكم، وأوتي البعض الآخر من سند الشعب وتعزيزه المعنوي .

وهذه المجالات الفكرية، سواء ماقصر عمره وحدد أفقه بمطاردة المستعمر ومحاربته، أوطال عمره برعايته وعنايته، وتلك الصحيفة التي قد لايطالع المرء أسمها أكثر من مرة واحدة أو مرتين حتى تباغت بالمصادرة، أو تلك الصحافة المؤمنة للمستعمر فيمتد بها الأجل حتى تعمر، وتلك المدارس الحرة التي لاتفتتح بعصامية شعبية، الا لتغلق بيد استبدادية، وتلك النوادي التي تعيش في أفق شيق حدده لها المستعمر، أوالتي تطوح في غفلة منه، أو مناورة له، الى آفاق بعيدة متجاوبة مع أماني الشعب .

كل هذه المجالات المتفاوتة أعماراً، المتباينة وجهة، المختلفة أسلحة، فجرت في جزائر القرن العشرين نشاطاً فكرياً ملحوظاً سيكون نعم المناخ المحتضن للنص الأدبي الحديث .

= والمترجم ولع كبير بالأدب العصري، ومطالعة كتبه وتتبعها بامعان، وبهذا كان أستاذ نفسه فيما عنده من أثر في الشعر والنثر .

وله على الخصوص تعلق بشعر شوقي والرصافي وحافظ ابراهيم ومطران، وما الى هؤلاء من رجالات الادب . وقليل مايفوته لهؤلاء شيء بطرق سمعه » .

« شعراء الجزائر » ج ٢ ص ١٤٠ . مطبعة النهضة تونس ١٩٢٧ .

الدكتور حسام الخطيب

مع كولن ولسون وتجربته الفكرية

بين يدي الكلام

١ ـ مساء الخامس والعشرين من أيار ١٩٧٤ تحدث كولن ولسون أمام جمهور المركز الثقافي العربي بدمشق عن نفسه وعن أفكاره وعن تجربته في الكتابة والتأليف .

والعرض الذي يراه القارىء هنا دُوّن مباشرة بالعربية عن لسان كولن ولسون ، وهو يشمل القسم الأكبر والأهم من حديث الكاتب الانكليزي ،وفيه محاولة للحفاظ ماأمكن على صياغة الجمل الأصلية .

٢ ـ لم يتح لجمهور دمشق مناقشة أفكار كولن ولسون لأنه كان على عجلة من أمره وكان عليه أن يغادر الى بيروت في المساء نفسه .

والحق أن جانباً كبيراً من أفكار كولن لايبدو لنا مقبولاً وصحيحاً على نحو مايبدو له وهو يتحدّث بحرارة . وقد أدى تركيزه على الجوانب النفسية دون الاجتماعية الى اضعاف فكرته العامة وبالتخصيص الى اعطاء انطباع بأن مسألة السعادة مسألة شخصية وخاصة ، يمكن احرازها عن طريق تمرينات نفسية معينة تصل أحياناً الى مايشبه السحر . وعندما كولن،فقد بدا لي وهو يمسك بقلمه نصب عينيه ويركز بصره عليه كأي ساحر يستعين بقوى (روحية) أو (غير منظورة) لاثبات حقيقة يصعب اثباتها بالطرق العادية .

٣ ـ على الرغم من ذلك ، إن أفكار كولن ولسون تستحق أن تقرأ وأن تناقش لأنها تنطلق من الايمان بالانسان وقوته وطاقته الداخلية ، وكذلك لأنها إيجابية ومتفائلة ورافضة للنزعة التشاؤمية التي تطبع أفكار معظم الفلاسفةالفرديين في عصرنا .

★ ★ ★

قال كولن :

سألخص بسرعة الأفكار التي تحدثت عنها خلال السنوات العشرين الماضية ابتداء من « اللامنتمي The Outsider » الذي أعتقد أنني بسطت أفكاره تبسيطاً شديداً . و « اللانتماء » مشكلة اجتماعية في مظهرها ، ولكن الجانب الاجتماعي لم يثنني من الاهتمام بالجانب الآخر وهو الجانب النفسي .

١ – ماهي المشكلة الاجتماعية « للامنتمي » ؟

في المجتمع الحديث عدد كبير من الناس لايستطيعون احراز المكانة المعتبرة التي ينشدون ، ولكنهم من الذكاء بحيث يقبلون المكان الذي يعطى لهم ، وبين هؤلاء فنانون وأدباء ، وهم يشكلون طبقة وسطية بين الطبقتين الأخريين : طبقة المتطلعين الطامحين وطبقة الراضين القانعين ، والمجتمع مملوء بأمثال هؤلاء الوسطيين الذين يتقبلون الأمور تقبلاً واقعياً وإرادياً ، وهم يودون لو يستطيعون التعبير عن أنفسهم ولكن الظروف لاتمكنهم من ذلك .

وقد حدثني « روبرت أودري » قصة من الحرب الكورية تكشف الستار عن سر غامض من أسرار هذه الحرب ، وذلك هو عدم وجود حوادث هرب من الأسر بين الجنود الاميركيين الذين يقعون في قبضة الصينيين ، فقد كان الصينيون يستخدمون تكنيكاً خاصاً للحراسة يوفر عليهم استخدام عدد كبير من الحراس . كانوا يخضعون الأسرى الجدد لمراقبة دقيقة جداً ، ثم يختارون من بينهم أولئك الاسرى ذوي المواهب القيادية ويعزلونهم ويشددون عليهم المراقبة بينما يتركون سائر الاسرى تحت حراسة عادية، ولم يكن في مقدور هؤلاء الاسرى أن يهربوا لانهم كانوا بغير قيادة .

وبين الحيوانات أيضاً يتضح تماماً هذا الانقسام بين العناصر القيادية القليلة وبين الاخرين القابلين للقيادة ، ولا تتجاوز نسبة هذه العناصر ٥ ٪ . وهناك تجارب أجريت على الفئران وأكدت فكرة وجود نخبة قيادية في حدود ٥ ٪ .

كما أن نسبة القياديين في كثير من المجتمعات لاتتجاوز ٥ ٪ عدداً .

والقاعدة العامة أن من يصاب بالخيبة من نخبة الخمسة بالمئة يصبح مجرماً أو ثائراً على المجتمع ، وكثيرون من هؤلاء هم قادة الثورات التي تهدف الى التغيير .

وفي انكلترا وأميركا عدد كبير من المجرمين ذوي الذكاء الرفيع ، وهم خائبون اجتماعياً ، ولكنهم ثمينون للحضارة وضروريون في الاصل ، ويجب التفكير في استخدامهم والاستفادة من مواهبهم في سبيل الحضارة ، لانهم ينتمون الى الفئة التي يصعب لولاها أن تقوم حضارة.

ولنعد الى اللامنتمين . انهم الوسطيون الاجتماعيون البارزون ، إنهم بارزون ولكن إلى حد معين ، وليس لهم مكان بين الخمسة بالمئة ، وهم يقفون بين العناصر القيادية والعناصر القابلة للقيادة .

وحين كتبت (اللامنتمي) لم أكن مهتماً بالناحية الاجتماعية، وإنما عنيت بالظاهرة السيكولوجية. وفي البدء لفت نظري أن هناك لحظات معينة في حياة كل انسان يشعر خلالها بالسعادة وبالقيمة . وهو يستمتع استمتاعاً شديداً بهـذه اللحظات ، ولكنه يحس بعد انتهائها احساساً حاداً بالخيبة ، وتساءلت : أي الحالين هو الصحيح ؟

حال السعادة الغامرة ؟ أم حـال الضيق والبرم بالحياة ؟ وحاولت أن أبحث في الموضوع وأحقق منه . ووجدت حالات كثيرة تستحق الدراسة .

في القرن التاسع عشر انتحر عدد من الفنانين والرسامين ، ومات عدد أخر قهراً أو بالسل ، لأنهم لم يجدوا مكاناً لائقاً بهم في المجتمع من جهة ولأنهم – من جهة أخرى – مارسوا لحظات من النشوة ثم خاب أملهم بعد انقضاء تلك اللحظات .

وفي القرن التاسع عشر بدا واضحاً أن الأدباء أخـذوا يهتدون إلى فكرة لحظات النشوة ، وقبل ذلك كان عدد من الفلاسفة قد نوه بهـذه الفكرة . ويعد (وردزورث Wordsworth) من أبرز الذين أحسوا بلحظات النشوة ، وقـد تحدث عنها في بعض شعره ، وأشار إلى مشاعر الارتياح التي تعقب الاحزان فجأة وتعيد القوة للنفس .

وحقٌ ما قاله وردزورث ، فالنشوة تنقضي بسرعة ولكنهـا يمكن أن تستعاد من خلال القوة النفسية. إن ذلك ممكن وإن كان الوجوديون عادة ينكرون ذلك ويعتقدون أنه غير ممكن . على أي حال تدل شواهـد كثيرة على أن لا منتمي القرن التاسع عشر كانوا ضحايا آلية نفسية مشتركة، وتتألف تجربتهم من لحظات من النشوة والشعور بالحرية والسعادة ، تعقبها مشاعر حادة بوطأة الحياة اليومية وكآبتها وإملالها ، وتنتهي هـذه التجربة بالاعتقاد بأن الحياة غير محتملة . وهذه هي المشكلة الحقيقية للامنتمي ، إنها مشكلة نفسية أكثر مما هي اجتماعية .

٣ – ولدت لأسرة من الطبقة العاملة ، وكان دخل والدي ضئيلاً لا يتجاوز ثلاثة جنيهات أسبوعياً . وكانت ظروف طفولتي سيئة جداً . وقد اضطررت أن أشتغل في أحد المصانع حين أصبحت قادراً على العمل . وكل من ينشأ في الطبقة العاملة عليه أن يعمل لصالح الوضع الاجتماعي القـائم سواء أراد ذلك أم لم يرد . وهناك أناس كثيرون يكرهون هذا الوضع وأنا منهم طبعاً . ولكنني اعتقدت آنذاك أنه لا مخرج لي من هـذا الوضع ، وبذلك انتابني شعور اللامنتمي ، وهـذا الشعور هو الذي حفزني إلى كتابة « اللامنتمي » فيما بعد. وقد تركت المصنع الى خدمة القوات الجوية ، وسرعان ماقررت

التخلص من الخدمة وتذرَّعت بأنني مصاب بالمثلية الجنسية(Which Iam not) ، وتحقق لي التسريح . وبعدها قررت أن لا أعمل في أيّة وظيفة لا أحبها ، وتشرَّدت في أحياء لندن وباريس مفكراً في الطريقة التي يجب أن أكتب بها كتابي الأول « طقوس في الظلام Rituals intheDark» لا« اللامنتمي » . كنت اذهب يومياً الى مكتب المتحف البريطاني لأكتب هذا الكتاب . ثم تبيَّن لي أنه كتاب مملوء بالاشارات الثقافية المتبجحة ففكرت في تجريده من الاشارات وكتابة كتاب سلس خال منها.وكان من ذلك«اللامنتمي» الذي كتبته بسرعة شديدة وقبله الناشر بسرعة شديدة .« يصادف يوم ٢٦ أيار١٩٧٤ عيد ميلاده الثامن عشر » . وفي الاسبوع نفسه الذي شهد ظهور اللامنتمي ألف جون أوزبورن كتابه « انظر الى الوراء بغضب Look Back in Anger » وقرّر النقاد أنني واياه وجون وين وكتاب آخرون من « الجيل الغاضب Angry Generation ».

وقد كنت اكتب دائماً تحت شعور الوحدة . وفجأة بعد ظهور كتابي قال الجميع انني عبقري . ووجدتني اقبل ذلك ، لكنني شعرت ان هناك خطأً ما متضمناً في شيوع هذا الاعتقاد . وقد تناول النقاد الجديون جميع كتاب (الجيل الغاضب) بالهجوم وكان الصحفيون هم الذين اذاعوا صيتنا . وقد اشتدّ الهجوم عليّ ، وعرض عليّ الناشر وظيفة في دار النشر (بدلاً من استمراري في الكتابة) . ورفضت العرض وذهبت الى الريف لاكتب الكتب ، واخذت اكتب الكتب بسرعة ، وكان من بينها « مدخل الى الوجودية الجديدة Introduction to the New Existentialism » الذي لم يحظ بأية مراجعة أو دراسة من قبل النقاد . ومن بين جميع كتبي ظل « اللامنتمي » قوياً جداً ووقف وحده وصمد . على انه في السبعينات بدأ النقاد يتحدثون عني وقرروا انني كاتب جيد . ويبدو انهم اعتقدوا – على الأقل – انه لا خطر من الاعتراف بي ، وهذا سبب من اسباب تغير موقفهم .

بيت القصيد :

آ – سنة ١٩٥٩ ارسل لي العالم النفسي ابراهام مازلو Maslow رسالة قال فيها انه كعالم نفس تعب من دراسة المرضى ، ولم يتعلم منهم شيئاً ذا بال ، ولاحظ ان الاصحاء نفسياً لا يتحدثون عن صحتهم والسعداء لا يتحدثون عن سعادتهم . وشرع في دراسة الاصحاء ، واستنتج ان الاصحاء يمارسون تجارب السعادة الغامرة المتمثلة في (تجربة الذروة Peak Experience) ، وان هذه التجربة تأتي بشكل مفاجىء

ودون قاعدة . فمثلاً الأم التي اعتادت ان تطعم ابنها صباحاً دونما تفكير في نفسها ، قد تشرق عليها الشمس فجأة من النافذة ، فتعي سعادتها وتمارس تجربة ذروة . وهناك عشرات الامثلة التي تدل على ان تجربة الذروة تأتي فجأة ، ومن خلالها يتوصل الانسان الى اكتشافات ذات طبيعة خاصة لا تتوافر له في لحظات اخرى .

وإن هذه التجارب تحصل لنا بكثرة ولكننا لا نشعر بها شعوراً كافياً ولا نقدرها تماماً كما لو كنا نأكل طعاماً شهياً ونحن غارقون في الحديث . ويستنتج من ذلك طبعاً ان الناس اسعد مما يبدو عليهم ، ولكنهم لا يعرفون هذه السعادة . ويذكر « مازلو » أن تلاميذه ـ بعد ان فطنوا للأمر ـ اخذوا يتذكرون تجارب الذروة الماضية واخذوا يعون ان هذه التجارب هي احتمالات ممكنة وتجارب سوية بالنسبة لكل المخلوقات ، وعليهم ان يترقبوها ويسعوا إليها .

ب ـ كيف تحصل الذروة ؟

أردت أن أعرف كيف تحصل الذروة ، ولم يكن ذلك لاسباب شخصية فأنا رجل سعيد . وتساءلت : كيف يمكن أن تحقق الذروة عمداً ومن خلال الارادة النفسية ؟ إن تجربة الذروة تُري أنفسهم فجأة كأنما من خلال مرآة وتظهر لهم إلى أي مدى يمكن أن يكونوا سعداء . إن مثال الام الذي ذكر سابقاً لا يعني أن الام أصبحت فجأة سعيدة وإنما يعني أنها اكتشفت فجأة أنها سعيدة . والمشكلة أننا لا نعرف أننا سعداء ونحن نبدّد السعادة بسبب جهلنا بها ، وخلافاً لما أعتقده الرومانتيون دائماً ، ليس الانسان تعيساً في أعماقه وإنما هو سعيد ولا يعرف ذلك . إن كتاب « الغريب » لالبير كامي ينتهي بتجربة ذروة تعتبر مفتاحاً لهذه الفكرة . إن حياة البطل كلها ملل وضجر وغربة عن المجتمع . وفي نهاية القصة تنتاب البطل نوبة من الغضب على أثر مقابلة الكاهن له قبل اعدامه ، ومن خلال انتهاره للكاهن وخروجه عن طوره يضيء داخله فجأة ويشعر بالاتحاد مع الكون والنجوم . فجأة يعرف أنه كان سعيداً دون أن يعرف شيئاً عن سعادته . وكان هذا الاكتشاف هو المفتاح الاول للفكرة الجديدة حول (تجربة الذروة) .

أما المفتاح الثاني فكان مقالة لجراهام غرين . في التاسعة عشرة كان شديد الملل ، وأتيحت له بعد ذلك ظروف محاولة للانتحار جعلته يكتشف أن الحياة ذات معنى.وهذا النوع من الاكتشاف مثله كمثل ضوء يشعل فجأة في غرفة مظلمة . وإذ ذاك يرى المرء

ما كان موجوداً بالفعل من قبل ، ان الضوء الجديد لا يخلق أشياء جديدة ولكنه يمكنك من رؤية ما كان قائماً بالفعل .

وازاء كل ذلك برز في ذهني سؤال ملح : لماذا لا ترى السعادة الموجودة في حياتنا ؟

وقد سبق للكاتب (دو كوينسي) أن سأل (وردزورث) : من أين تأتي بلحظات السعادة ؟ ولم يستطع (وردزورث) أن يعطي تفسيراً كافياً ولكنه أشار الى أنه يركز على أشياء لاشأن لها بالشعر، ثم فجأة يتراخى فيشعر بالجمال وحرارة الاكتشاف، وبالنسبة لفراهام غرين هناك ظرف معيّن أتاح له الاكتشاف ، فمن خلال محاولة الانتحار ضغط على زناد المسدس المصوّب الى رأسه ولكن الرصاصة لم تنطلق ، وفجأة اكتشف السعادة التي تنطوي عليها الحياة .

حـ ـ في التجربة القصدية :

انتهيت أخيراً الى أنني يجب أن أمارس تجربة الذروة قصداً . فكنت مثلاً أركز على قلم تركيزاً شديداً كأنما حياتي معلقة به ، وفجأة الصوف عنه . وكلما ركزت ثم تراخيت شعرت بتجربة الذروة . كيف ؟ ولماذا ؟ ماهو هذا التعب المركز الذي يقود الى الذروة ؟

بعد سنوات من هذه التجربة توصلت إلى نتائج أو ضحتها في مقال لمجلة أميركية. وخلاصة هذا التفسير أن تحركات الناس في الحياة اليومية ذات طابع آلي في الغالب . في داخل كل إنسان عقل آلي يتولى التصرف Robot . حين نتعلم أشياء صعبة نستخدم انتباهنا الكامل لتعلم الحركات . لكن بعد أن نتقن التعلم يتولى (الانسان الآلي) العمل عنا بسرعة ودون وعي منا . لسنا نحن الذين نمارس يومياً العمليات ذات التعقيد الشديد بمثل تلك السرعة ، بل الانسان الآلي في داخلنا هو الذي يفعل ذلك ، والمشكلة أنه يتولى عنا عمل أشياء لا نريده أن يعملها . مثلاً حين نستمع إلى الموسيقى يستمع العقل الآلي معنا وبما أنه يعرفها جيداً فإن شغفنا بها يتلاشى ولا نستطيع الاستمتاع الواعي بها .

متى يتولى « الانسان الآلي » العمل ؟

حين يكون المرء متعباً . اذا ذهبت لحفلة وافرطت في الشرب وتعبت ، فانك ترجع الى البيت ولا تذكر في الصباح كيف عدت، ان « الروبوت » هو الذي فعل ذلك. هناك أشياء كثيرة حين يتولاها الروبوت لا نستمتع بها، وحين نفعلها بوعي نستمتع بها .

ان « الروبوت » هو الذي يكون سعيداً في لحظات عدم الشعور بالسعادة التي نعيشها يومياً . وتحصل الذروة حين نتولى الامور بدلاً من الروبوت . وكثيراً ما نعمد الى ايقاف « الانسان الآلي » وتولي الامور بأنفسنا . حين تبطل مثلاً مفعول قنبلة لا تأتمن الروبوت عليها وتقوم بهذا العمل بوعي شديد . وههنا المفتاح . بعد لحظات التركيز الشديد يمكن ان نشعر بالذروة . والقاعدة العامة هي انه حين يتعب المرء يتولى الانسان الآلي الامور تلقائياً . ما اكثر ما نشعر أننا قدنا السيارة عشرة أميال مثلاً دون أن نعرف ذلك . والتفسير هو ان الروبوت تولى الامر عنا . وبالانتباه الشديد نستطيع ان نبعد الروبوت عن تولي الامور ، وبالتالي نصبح اكثر قدرة على ممارسة تجربة الذروة . وحين يعيش الروبوت بدلاً منا نصاب بالملل والضجر . بطاريتنا تتلف لاننا لا نستعملها ، وبالجهد العقلي المركز يمكن أن نحقق الذروة .

وفيما يلي مثال لتجربة شخصية تعود الى عام ١٩٦٨ . كنت اعلم في جامعة بفانكوفر بكندا وتحدثت كثيراً عن هذه الامور . في نهاية الاسبوع بدأت أشعر بالملل وقدت السيارة الى المنزل لكي اشرب واسترخي واشاهد التلفزيون . وفي الطريق كنت انحدر من التل الى السهل ورأيت منظراً طبيعياً رائعاً واسفت لانني لم استطع الاستمتاع بالمنظر ما دام الروبوت هو الذي يتولى الامور عني بسبب التعب ، ثم تذكرت ما كنت اقوله للتلاميذ عن امكان تسلم الزمام من الروبوت حتى في لحظات التعب . وصممت، وفعلتها ، وشعرت بتجربة الذروة .

ملحق : كولن والعرب

في ختام الحديث الطويل الذي همس به كولن لمستمعيه في المركز الثقافي العربي عشيه الخامس والعشرين من أيار ، أحب أن ينتقل إلى توضيح رأيه في القضية العربية . وكانت الهوة بعيدة ، وإبم الحق كان يتحدث عن تفجير الطاقات الداخلية للانسان، وعن ظاهرة اللامنتمي ، وعن الانسان الآلي (روبوت Robot) ، وعن تجارب الذروة ؛ وخيل لأكثر الناس أن كولن أوغل بعيداً بعيداً عن البترول العربي ومعارك الجولان والوحدة العربية . وكان كولن — أكثر من أي شخص آخر — واعياً لوجود تلك الهوة ، وخيل إليه أن الهوة ليست غير قابلة للردم ، وأن ردم الهوة يمكن أن يكون في مصلحة أفكاره وفي مصلحة الاهتمامات العربية في وقت واحد .

تساءل كولن في الجزء الأخير من حديثه عن علاقة المسائل الفلسفية والسيكلوجية التي طرحها بالقضايا السياسية والاجتماعية في الوطن العربي. وتساءل : هل تبدو (تجربة الدروة) تافهة إزاء مثل هذه القضايا ؟ وأجاب فوراً بالنفي . وعنده أن هناك موقفين ينبغي إقامة توازن بينهما لتستمر الحياة قوية ومعافاة . إذ : لا معنى للهرب من المشكلات السياسية والاجتماعية، وكذلك : لا معنى للتركيز المطلق على هذه المشكلات .

وعند كولن ولسون أن التوازن مطلوب لئلا تضيق الرؤية أو تهرب . ومثال ذلك أوروبا اليوم . في رواية (المثقفون) لسمون دوبوفوار مثلاً نجد شخصيات مثقفة تشكو من الملل والضجر ولا تدري ما تصنع بحياتها ، ومن الواضح ان احد اشخاص هذه الرواية هو البير كامي الكاتب المعروف ، ويمثل هذا الشخص ذروة الملل . وفي اميركا تغلغل الملل في المجتمع ويبدو الانسان غير عارف ما ينبغي ان يصنع بنفسه .

في البلاد العربية يبدو الناس أقل فساداً وإكثر اتصالاً بالجذور ، فالصلة الأسرية قائمة ، والصلات الخاصة قائمة ، والجميع يشعرون بفرديتهم ، لم يتحولوا بعد الى أزرار في الآلة الاجتماعية الجبارة . وهناك تغيير خطير سيطرأ على حياة العالم في مدى السنوات العشر المقبلة وسوف يصبح العرب من بين اعظم امم العالم . وسوف يخلفون اليابان التي تزاحم اميركا وروسيا اليوم ، وعند العرب ثروة عظيمة كما ان عندهم امكانات ثقافية واسعة . وتاريخهم يشير الى ذلك . ففي القرن العاشر الميلادي سيطروا على اوربا بفكرهم وثقافتهم ، انهم امة متعلقة بالافكار خلافاً للانكليز الذين يطغى عليهم الطابع العملي ولا يكترثون بالفكر والنظرية . والحرية السياسية للبلاد العربية مسألة وقت وسنوات ، وكذلك الوحدة العربية مسألة وقت ! خلال هذا الوقت يجب ان نفكر بامور اخرى الى جانب المشكلة السياسية والاجتماعية ، لانه بعد حل تلك المشكلات يخشى ان نقع في الازمة نفسها التي تعاني منها اوربا واميركا اليوم .

★ ★ ★

مقابلة مع

كولن ولسون

أجرى المقابلة الدكتور غسان رفاعي

• يسعدنا كثيراً أن نلقاك في دمشق . بالطبع ، لاحاجة الى تذكيرك بأننا نعتبرك في بلادنا شخصية شعبية ومحببة . هذا ماقلته لك هذا الصباح حينما التقيت بك لأول مرة. لقد ترجمت أكثر كتبك الى اللغة العربية ، وكانت أفكارك الرئيسية التي بثثتها في كتبك محور مناقشاتنا الايدلوجية والسياسية . إن أجيالنا الجديدة تتأثر بأفكارك ومنطلقاتك ، وترى فيك مفكراً رائداً فذاً . وهذا يلقي عليك مسؤولية ضخمة . لاأعرف اذا كنت

مستعداً لتحملها . أنت تزورنا للمرة الأولى جسدياً ، ولكنك زرتنا أكثر من مرة روحياً ، ويمكن أن يقال بأنك كنت دوماً بيننا . فما هي مشاعرك ، الآن ، وأنت معنا ، صديقاً مع أصدقائه ، ومفكراً بين معجبين بأفكاره ؟

● ● في البلاد العربية دفء انساني ماكنت اتوقعه . لقد لاحظت بان العربي يلامس يد العربي بحرارة حينما يلقاه أو يحدثه ، وهذا تصرف مستغرب بالنسبة للبريطاني الذي يفضّل ان يبقى بارداً مترفعاً . الظاهرة الأخرى التي استرعت انتباهي هو هذا الاقبال على قراءة كتبي في بلادكم . انا انكليزي ، ولا افهم لغتكم ، وقد يصعب عليّ ان اتصور ان بعض الناس عندكم ينظرون إليّ كقائد فكري .

حين ظهر كتابي الاول « اللامنتمي » في عام ١٩٥١ طفا على السطح مباشرة في بريطانيا والولايات المتحدة ككتاب غريب ، ولكن الصدف هي التي ابرزت هذا الكتاب ، فقد صدر في نفس الوقت الذي صدرت فيه مسرحية للكاتب البريطاني اوزبورن « انظر خلفك في غضب » وفي نفس الوقت ظهرت فيه رواية « غرفة في السقن » للروائي جون برين . ووجد الادباء في هذه الكتب الثلاثة بدء تيار جديد ، وأطلقوا علينا اسم الكتاب الشباب الغاضبين . ويبدو ان اوزبورن كان غاضباً على الحكومة وعلى الملكة ، وجون برين كان غاضباً على التركيب الاجتماعي لبريطانيا ، ولكنني لم أكن غاضباً على شيء محدد .. لقد أجرت مجلة بريطانية مقابلات معنا نحن الكتاب الشباب الغاضبين ، وحينما وجه إلي السؤال التالي ، ما الذي يغضبك : أجبت ، لاشيء ، فدفعت الي مبلغ ١٠٠ جنيه ، وكان هذا التصرف مثار غضبي ، ومن ذلك الوقت بدأت الصحافة الادبية تعاملنا وكأننا نمثل حركة نصف سياسية ، ولكن هذا التعامل لم يكن يروق لي ، اذ ليس فيما اكتبه وأدافع عنه مايوحي بانني اناضل في سبيل قضية سياسية . والشيء الذي حدث بعد هذا هو ان الصحف الرصينة ندمت على اثارة ضجة حولنا ، فأخذت تتجاهلنا ، او لعلها مرحتنا من الحياة الادبية ، مدعية باننا لانستحق ان تثار حولنا مثل الضجة التي أثيرت .

● ماهي الأسس التي اعتمدعليها نقاد الأدب لتسريحكم ، أو اغفال الحديث عنكم ، أعني هؤلاء النقاد المحترفين الذين يملأون الصحف بمقالاتهم .

● ● اعتقد كل ناقد بان تأليف كتاب مثل اللامنتمي من اختصاصه هو

او ان بمقدوره ان يضع كتاباً على شاكلته . السبب هو ان كتابي يستشهد بعدد كبير من الكتب الأخرى ، وهذا مادفع بالنقاد الى الاعتقاد بان كتابي ليس اكثر من الجمع لفقرات منتقاة من كتب أخرى . الناقد كما نعرف لايؤلف رواية أو مسرحية ، ولكنه قادر على ان يجمع أقوال الآخرين . ولهذا كانت النقمة منصبة علي اكثر من زميلي أوزبورن وبرين . وحينما تحدث عنا النقاد أكثر من اللازم مدة ستة أشهر ، في الصحافة والاذاعة والتلفزيون، بدأ الناس يعربون عن قرفهم من الحديث عنا ، والنتيجة المتوقعة هي عزوف النقاد والصحف عنا طوال الستينات .

• تقول بأن النقاد تناولوا كتبك بالتجريح والنقد ، أريد أن أعرف ماهي أسس هذا النقد ، هل تعادل تقدم الافكار الجديدة التي طرحتها المنطلقات الاجتماعية التي أتيت بها ، أم أن نقدم انصب على الاسلوب الادبي الجديد الذي تعيشه في كتاباتك ؟ هل وجدوا في اللامنتمي آراء اجتماعية وسياسية تهدد سلامة المجتمع البريطاني أم أنهم رفضوا البدعة الادبية الجديدة التي ارتبطت باسمك ؟

• • الحقيقة ان النقد الذي وجه اليّ لاعلاقة له بكل الاشياء التي ذكرتها . لقد اتهموني بالفاشية بعد اللامنتمي ، لا الفاشية بالمعنى المألوف الكلمة ، ولكن الفاشية التي لاتنزلق الى اليسار بما فيه الكتابة . فأما ان تكون شيوعياً والا اتهمت بانك فاشي. انا أعرف بان هذا المنطق غير مقبول ولكنه منطق انكليزي صرف ، أما ان تكون فاشياً أو شيوعياً ولا يوجد موقف متوسط من الموقفين ، والمصيبة اننا في بريطانيا لانبحث الأفكار ، ويمكن ان يقال بان لاعلاقة لنا بالافكار ، اننا لاناقش الافكار ، ولا نتحملها . نحن شعب عملي الى درجة فظيعة ، انتم في البلاد العربية تحتمون وراء تقاليد فكرية عريقة ، وكان العرب دوماً رجال أفكار ، وهذا ينطبق على الشعب الالماني ، والشعب الفرنسي بطريقة ما . اما في بريطانيا فلا توجد عندنا مثل هذه التقاليد ،وعلى هذا فحين انتقد النقاد كتبي ، كان هدفهم ان يظهروا بانني اشكل خروجاً عن التقاليد البريطانية ؛ اتهمت بانني ادخل سلعة جديدة الى السوق . ولكن بعد ١٨ عاماً من الكتابة والانتاج والضجة بدأ النقاد ينظرون اليّ وكأنني شرٌ لاغنى عنه ، انني مازلت في الميدان الادبي ، وينبغي ان أقبل بطريقة ما ، مبدعة أدبية لها ثقلها ، لا كحامل لأفكار جديدة .

• ولكنك روائي الى جانب كونك مفكراً، الا يعترف بك النقاد في بلادك كروائي؟

• • اخشى بأن النقاد البريطانيين لا يعترفون بويلي كروائي ، في جميع الكتب النقدية التي تناولت الرواية الانكليزية وتطورها في العشرين سنة الماضية لم يأت ذكري ، ولا نوه بأسماء رواياتي .

الحقيقة انهم يتجنبون التحدث عني كمفكر اولا وكروائي ثانياً .

افكاري لا تنسجم مع تقاليدهم ، واسلوبي في كتابة الروايات لا يروق لهم .

• ولكن ما هو السبب في هذه الكراهية للافكار في بريطانيا؟ مثل هذه الكراهية غير موجودة لا في المانيا ولا في فرنسا مثلاً .

• • ان المزاج البريطاني هو مزاج ذرائعي. البريطاني هو رجل عمل لا رجل تأمل وتفكير لهذا السبب امتدت الامبراطورية البريطانية ، ولهذا السبب ايضاً زالت هذه الامبراطورية. استطيع ان اقول لك بكل صراحة بأن الانكليز اقرب الى الغباء ، بل هم اغبياء جداً فهم صفات قيادية رائعة ولكنهم يتجنبون او ينفرون من الافكار المجردة . ان الفلسفة الانكليزية هي فلسفة ذرائعية وعملية ، وهذا شيء جميل في تاريخ الفلسفة ، ولكن هذا التعقيد قد افقر الحياة الفكرية الانكليزية الى حد كبير. الحقيقة انه لا توجد عندنا حياة فكرية اذا ما قيست بالحياة الفكرية المتطورة الموجودة عندكم .

• هذه اول زيارة لك للبلاد العربية — كنت في لبنان وانت الآن في سوريا . ان زيارتك قصيرة جداً ، وقد لا تستطيع الآن ان تخرج بانطباعات شاملة عن الوطن العربي ، الانسان العربي ، الفكر العربي ، التناقضات العربية . لقد تحدثت عن الحياة الفكرية المتطورة عندنا ، فما هي الأسباب التي دفعتك الى الخروج بهذا الانطباع ؟

• • ولد عندي هذا الانطباع المقابلات التي اتيح لي ان أجريها مع بعض المثقفين العرب في بريطانيا اذا ما ظهرت في برنامج تلفزيوني ، اول ما يهتم به الناس هو معرفة حياتي الخاصة زواجي ، فضائحي الاخلاقية ، ولكن اول ما يسأل عنه الناس في بلادكم هو الافكار . وبعد مضي عشر دقائق من الحديث يبدأ حديث السياسة ولكنكم لا تهتمون بحياتي الخاصة والوضع في بلادي مختلف جداً ، ان الاشياء الخاصة ، هي مثار الانتباه والجدل فقط .

• اذن لنعد الى عالم الافكار ، انت تشعر بان كتبك مكتظة بالافكار الجديدة ، المعجبون بك يتداولون هذه الافكار في احاديثهم ومناقشاتهم، فما هي ام الافكار الجديدة التي اتيت بها ، ما هي الافكار والمفاتيح التي تدور حولها فلسفتك ، ان كانت لك فلسفة خاصة ؟

• • الحقيقةإنني لاأعرف ماالذي يستهويكم في كتبي؟ تقول بأن الأجيال الجديدة تقرأ كتبي ، لكني لم أتعرف على هذه الأجيال، ولم تتح لي فرصة للقاء بها . اني أعتقد مع هذا بأن ما يشدكم في هو أن افكاري الهامة التي أحاول دوماً أن أركز عليها في كتبي هي اللاانتماء. لقد سمي كتابي الاول اللامنتمي. انه يدرس مجموعة من الناس يشعرون بغربتهم عن المجتمع الذي يعيشون فيه ، انهم اذكياء ، اقوياء ، متطرفون ، في حساسيتهم ، ولكن هذه الصفات المفروشة فيهم تبعدهم بالضرورة عن مجتمعهم . في كتابي اردت أن اقول بأن المجتمع المعاصر قد ولد زمرة من الناس يشعرون بذكائهم وقوتهم ولكنهم لايقبلون وضعهم الانساني في مجتمعهم ، هذا انسان ولد في وسط فقير جداً ، عليه ان يعمل في منجم الفحم مثلاً ، او في معمل ، انه ليس من الذكاء بحيث يقنع المجتمع بأن يتعامل معه كما يريد هو أن يعامل ، انه ليس أديباً ولا عالماً ولا استاذاً في جامعة ، ولهذا فهو يفشل في اقناع المجتمع بقيمته ، وهو لهذا السبب يبقى غريباً مستلباً. ان مجتمعنا مليء بهذا النمط من الناس. انهم يتباكون بصمت ولكنهم لا يستطيعون ان يتجاوزوا وضعهم الانساني المجتمع يريد ان يجعل منهم ارقاماً وهم يرفضون ان يكونوا هذه الارقام. فماذا يفعلون ؟ بعضهم ينقلب الى ثوريين لا لأنهم مقتنعون بفائدة الثورة او جدارتها، ولكن لانهم لايستطيعون ان يتحملوا هذه الغربة الدموية. في الولايات المتحدة ينقلب هؤلاء الناس الى مجرمين ، الى قتلة . ان الظاهرة التي تلفت النظر في امريكا ان معظم المجرمين في السنوات الاخيرة هم من اشد الناس ذكاء ، خذوا مثلا شارل مانسون الذي تحدثت عنه الصحافة بما فيه الكفاية . هذا يعني بأن اللامنتمين يثورون على المجتمع بطريقة شاذة وغبية . ان ما اردت ان اقوله في كتابي ، هو ان امثال هؤلاء الناس موجودون فعلا ، ان فائدتهم للمجتمع لا يمكن ان تكون موضوع نقاش، ولكن المشكلة أن المجتمع لا يريد ان يستفيد منهم انه يرفض عنهم الحق في ان يبدعوا، في ان يبذلوا ، في ان يضحوا ، انهم اشبه ما يكون بالدودة التي تفتك بالتراب كيما تزيد هـذا التراب خصباً وعطاء . ان المجتمع لا يريد ان يعطيهم المكان اللائق بهم ، وهم لهذا

السبب يبددون ويتلفون أنفسهم ، وعلى هذا لا يوجد الا حل واحد ، اما ان يتكيف هؤلاء اللامنتمون مع المجتمع بحيث يصبحون قادرين على العطاء ، واما ان يتكيف المجتمع مع هؤلاء اللامنتمين بحيث يفسح لهم المجال للعطاء والابداع .

● معظم النقاد يقولون بان شخصيات روايتك هي شخصيات شاذة، فما قولك في هذا النقد ؟ لماذا تختار هذه الشخصيات الشاذة المرفوضة المهروسة ؟

○ ● لقد كتب الكثير من الكتاب قبلي عن اللامنتمي ، وقد نقلت الشيء الكثير عنهم ،مثلاً الشاعر الألماني ريلكه وكامو وسارتر، ولكن هؤلاء اللامنتمين لم يكونوا قادرين على فعل شيء سوى كتابة المذكرات الخاصة .

معظم الكتب التي كتبت عن اللامنتمين كانت على شكل مذكرات خاصة أو يوميات اللامنتمي هنا بصراحة « اني سئمت من الحياة ، الحياة لاتثير في إلا القرف .» ولكنه لا يقوم بأي عمل مجد أو غير مجد . أما اللامنتمي الذي تحدثت عنه فهوانسان يتحرك، يعمل ، يرتكب ، يصارع ، هذا معناه أن اللامنتمي عندي أخصب من الحياة نفسها ، انه يدخل في مؤثرات ، وصراعات ودوامات ، ومواقف حقيقية وتصبح عن نفسه وعن أفكاره من خلال هــذا كله ، ولكن اللامنتمي ، سواء أرفض هو المجتمع أم رفضه المجتمع، لابد من أن يتخذ موقفاً ، ولكنه صريحاً لابد من اللامنتمي من أن يتخذ موقفاً سياسياً . فكيف يمكن أن تحدث توازناً بين اللاانتماء وبين الالتزام القيامي ؟

● ان تصويرك للامنتمي صحيح ، فالمعنى الدقيق للكلمة ، ان معظم اللامنتمين هم بعيدون عن السياسة ، او على الاصح لا يتخذون موقفاً سياسياً محدداً. انهم يشعرون في اعماقهم بسخط عارم ضد المجتمع الذي يعيشون فيه .

ولكن هذا السخط هو شكل من اشكال الالتزام السياسي قيل انه موقف سياسي .

○ ● هذا صحيح ، ولكن هذا السخط قد يقودهم ، كما هو الحال في بريطانيا والولايات المتحدة، الى السحر، الى المخدرات ، أي التصوف ، لا الى النضال السياسي. فئة قليلة منهم تنضم الى النضال السياسي ، وهنا تنفتح أمامها قبل الثورة ؛ وقد تكون الثورة سياسية ، ولكنها قد تكون اجتماعية أيضاً . اذا أردت رأيي الخاص ، فانا أعتقد بأن اللامنتمي لابد من أن يدخل ميدان النضال السياسي ، ولكن هذا يحتاج الى تصحيح، الى أعداد ، الى تمام . على اللامنتمي ، قبل كل شيء أن يعرف مكانه من المجتمع ، أن تعرف بأن اللامنتمي هو إنسان لا يثق بنفسه ، انه يشعر بأن المجتمع قوي وقاس

ويشعر بنفس الوقت بأنه ضعيف ومنبوذ ، وبالتالي فانه يشعر بأن لا مكان له في المجتمع . في كتاب اللامنتمي أوردت هذه القصة عن راما كريشن ، القديس الهندي ، القصة اسمها النمرة التي تأكل الحشيش ، وملخص القصة أن نمرة تقفز فوق قطيع من الخرفان ، ولكنها أثناء هجومها على الخرفان تضع طفلا . وينمو هذا الطفل بين الخرفان وهو يعتقد أنه خروف ، وفي أحد الأيام يهاجم نمر متوحش قطيع الخرفان ، وفجأة يرى النمر الطفل بين الخرفان ، وهو يقلد أصوات الخرفان ، فيتقدم منه ، ويخرجه من القطيع ، ويقول له أنت نمر لا خاروف ، ولكن النمر يستمر في الثغاء ، وهنا يمسك رأسه ، ويشده أمام ساقية صاخبة ، ويصراخ في وجهه : انظر أنت نمر لا حمل ! » .

ان وضع اللامنتمي شبيه بوضع هذا النمر الصغير ، انه نمر ، ولكنه يعتقد بأنه حمل ، أول ماينبغي أن نعمله هو أن نشعره بأنه نمر ، وحينئذ يمكن أن يتبدل وضعه الانساني .

● افهم من كلامك ان اللامنتمي سيصبح سياسياً حينا يستيقظ وعيه الداخلي ؟

● ● كان برناردشو يقول بأن" اهتمامنا بالعالم هو نتيجة ينفى من الداخل ، المعنى اننا لا نهتم بالعالم الا بعد أن نمتلك القدرة على فهم أنفسنا ، حيثما نكون صغاراً ، فان عالمنا الداخلي يكون من الفقر بحيث لا يستطيع أن نهتم الا به ، ولكن حينما نتأمل عالمنا الداخلي ، فاننا نفيق ، ونصحو ، وحينئذ يبدأ اهتمامنا بالعالم الخارجي ، وبالآخرين ومثل هذا الاهتمام لا يقتصر على السياسة ، وانما يمتد ليشمل كل مظاهر الحياة وعلى هذا فأنا أعتقد أن من واجب الفلاسفة والمفكرين أن يفعلوا كل ما في وسعهم لمنع الناس من التصرف اللاعقلاني ، وهذا معناه ان الفيلسوف لابد من أن تكون له وجهة نظر سياسية ، لأن معظم الناس يتصرفون بشكل لاعقلاني .

● ولكن اللامنتمي، بالرغم من هذا كله مطالب بان يتخذ مواقف محددة ، لا أن يقتصر على تبني وجهة نظر سياسية في مجمل الحياة الانسانية. ان عالمنا مكتظ بالصراعات، والازمات . سأكون اكثر تحديداً، نحن في الشرق الأوسط نحيا توتراً سياسياً حاداً ، انت تشعر باننا نناضل في سبيل قضية عادلة وتشعر باننا على استعداد للتصميم في سبيل هذه القضية العادلة، لنفرض بانك انت هذا اللامنتمي الذي نتحدث عنه ، فماذا سيكون موقفك تجاه هذه القضية ؟ ما الذي سيفعله اللامنتمي اذا وجد نفسه في بلادنا ، ووقف وجهاً لوجه امام كل هذا التطرف الدقيق الذي نجتازه ؟

• ○ اذا أردت مني أن أحدد موقف اللامنتمي بدقة ، فاني سأقول لك بكل صراحة ،أنه سيتجنب هذا الموقف وسيقول : هذا هو التاريخ ، لقد كان دوماً مكتظاً بأمثال هذه الاحداث الدامية والصراعات الضيقة التي لا معنى لها ، لا يمكن للامنتمي أن يتخذ موقفاً سياسياً واضحاً الا بعد ان ينضج .

• لنفترض انه وصل مرحلة النضج هذه ، فما هو الموقف الذي سيتخذه .

• ○ حسنا سأتحدث عن نفسي . لقد تعرفت الى القصة الفلسطينية منذ سنوات . الصدفة هي التي مكنتني من هذه المعرفة . ان الذي ترجم كتبي الى العربية هو فلسطيني . كنت اشعر ان البريطانيين هم ضد الفلسطينيين بصورة عامة ، خصوصاً بعد ان ارتبط اسم الفلسطينيين بأعمال عنيفة مثل حادثة ميونيخ مثلاً ، انهم يشعرون ان هذه الاعمال العنيفة لا لزوم لها ، ثم انهم يشعرون بأن الاسرائيليين بحاجة الى وطن يستقرون فيه ، وها أنا في الشرق الاوسط ، انني اكتشف حقائق جديدة لا يعرفها امثالي من البريطانيين او لعلهم لا يريدون ان يعرفوها ، انني مقتنع الآن بأن القضية العربية هي قضية عادلة ، على الفلسطينيين ان يعودوا الى بلادهم التي اخرجوا منها . وحينما اعود الى بريطانيا ، سأكتب كثيراً حول هذا الموضوع ، وسأحاول ان يكون موضوعياً . هذا ما سأقوله للمواطنين في بلدي : ان الفلسطينيين لا يجيدون التعبير عن قضيتهم العادلة بشكل جيد . وهذا شيء ينبغي ان يتخلصوا منه بأسرع وقت ممكن . ان الفرد العادي في بريطانيا ينظر الى اعمال المقاومة الفلسطينية بنفس المنظار الذي ينظر فيه الى اعمال العنف التي تمارس في بقاع اخرى من العالم ، مثل اختطاف باتي هرست من كاليفورنيا مثلاً ، وهكذا فان الفرد العادي في بريطانيا حينما يسمع بأن الطائرات الاسرائيلية تقصف مخيات اللاجئين في لبنان فانه يجد بأن مثل هذا القصف له ما يبرره ، هذا ليس صحيحاً طبعاً ! ولكن لكي يتجاوز الفرد العادي هذا الموقف ، فان علينا ان نضع الحقائق بين يديه ، وهذا يعني بأن من واجب كتاب من امثالي ان يقوموا بعمليات الشرح والتحليل . انا وحدي لا اكفي . انتم بحاجة الى مئات من امثالي . يبقى ان نعرض القضية بموضوعية ونزاهة . وعرضت بهذا الشكل فان الكثير من الناس سوف يقبلون بها ، ويتحمسون لها . ان الانسان العادي يقتنع بالعدالة بسرعة شريطة ان نجيد عرضها عليه .

• لقد حاولنا ان نقنع الناس بعدالة قضيتنا ولكن بعض الناس يرفضون ان

يسمعوا واعتقد ان هنالك بعض الافكار السقيمة التي ينبغي ان يتخلص منها الكثير من المفكرين والناس العاديين في بريطانيا ، والا ما معنى ان يستمر التضليل والتستر، بالرغم من ان القضية واضحة وضوح الشمس ؟ ان هناك دعاية مركزة تستهدف عقول الناس وضمائرهم، ومن واجب المفكرين ان يقفوا امام هذه الدعاية المستقلة ، لا يكفي ان ندعي بان الازمة هي ازمة حق لكن تحجب ، او ازمة اناس لم يطلعوا بعد على الحقائق ، ان الازمة هي ازمة وعي سياسي ، ازمة فكر انساني متطور ؟

• انت تقول بأن الدعاية الصهيونية هي دعاية نافذة وقوية ، ولكن العرب أقوياء واغنياء ايضاً، اني مقتنع بأن العرب سيصبحون في مدى عشر سنوات من الدول الكبيرة المؤثرة. ان العرب سيلعبون دوراً هاماً في التوازنات الدولية كالدور الذي تلعبه امريكا والاتحاد السوفياتي الآن ، وانا مقتنع ايضاً بأن العرب سيسهمون في الحضارة الانسانية الجديدة مثل ما اسهموا في الماضي، اقول اكثر من ذلك ان العرب سيتحكمون بالعالم ثقافياً وحضارياً مثلما تحكموا في القرن العاشر ، في العرب طزاجة حضارية لا يوجد نظير لها في العالم اليوم . انهم لم يفسدوا كما فسدنا نحن، انهم يرتبطون بجذورهم اكثر منا، العرب مثلاً مرتبطون بالوجود العائلي وهذا شيء غير مألوف في بريطانيا وامريكا ، ثم ان العرب يفخرون بكرامتهم الشخصية أيضاً ، فكأن في كل عربي ملكاً . حينما اخرج من غرفتي في الفندق يصافحني العامل ويقول لي صباح الخير . انه يشعر بكثافة انسانيته ويريد ان يعامل الآخرين انطلاقاً من هذه الكثافة ،وهذا يعني بأن العرب لم يتبدلوا كما تبدلنا في هذا المجال . وانا متأكد بأن تطورات جذرية ستحدث في الوطن العربي ، انكم تقللون من أهميتكم ومن قوتكم ولا تستثمرون قواكم بما فيه الكفاية . لقد تعودتم على الشعور بالنقص ، وقد يصعب عليكم ان تنتقلوا الى الشعور بالتفوق فجأة وبدون تدرج . وحينما تنتقلون الى هذه المرحلة ستتبدل كل العلاقات في هذه المنطقة. أنا أعرف بأن هناك الكثير من الصراعات والتناقضات التي تعصف بمجتمعكم ، ولكن هذا كله سيزول حينما تكتشفون هويتكم الحضارية الجديدة ، وحينما تتعرفون الى ابعاد قوتكم .

العناكب

قصة عادل أبو شنب

كان وحيداً يدخن ويمضغ أفكاراً قديمة .

أريد أن أرقص ، أرقص ، أرقص . هاتي يدك يا عبلة . مدي ذارعك النحيلة إلي ،طوقي بها عنقي، لتتشابك أصابع يدك اليمنى، بأصابع يدي اليسرى، وسأقوم برحلة طويلة ، طواف مذهل ، أمس خلاله مسام ظهرك ، أعلو واهبط حتى اصل إلى . . .

أريد ان ارقص لأول مرة ، لآخر مرة .

كانت تدلي نفسها عبر خيط واه ، ظنّه اول الأمر شعاعاً رقيقاً من اشعة الشمس المتسللة الى غرفته . كانت شبيهة بدمية مطاطية من دمى ابنه احمد الذي لا يدري اين هو الآن .

قام واقترب منها فتوقفت عن الحركة . لعلها كانت تنظر إليه في خوف. وضحك .. وفكر ، اكثر من مرة ، في ان ينفث دخان لفافته في وجهها ،لكنه احجم .. فها هي ذي الفرصة سانحة ليبدد سأمه بالنظر إليها وهي تبسط بأرجلها العديدة وشعرها الرمادي المقزز .

اسمعي يا عبلة . ليلتصق جسدانا . الساق تقبل الساق . الصدر يضغط على الصدر والوجه يشعل الآخر بلهاثه . سنتحرك معاً دون ان نتحرك . متر واحد يكفيني . لا أريد ان اذرع بك ارض الغرفة . حسبي ان جسدينا ملتصقان ، وان نغماً ما يساعدنا ان نهتز معاً ونحن واقفان في هذه البقعة الصغيرة التي نملكها لدقيقة واحدة .

وعاد الى مقعده ، وراح يرنو اليها وهي تدلي نفسها في كثير من الطمأنينة. انه اعزل ، لا يستطيع ان يفعل اكثر من التحديق والتدخين والانتظار والرغبة في الرقص . . لقد تمكنت من أن تنتشله من وحل افكاره المضطربة عن زوجة هاربة مع رجل آخر . انها تسليه على نحو ما .

ليس هاماً أننا لا نعرف الرقص من قبل . ان يتحد جسدان ، تتقابل عيون أربع . ان ينهض فم لفم ، تتشابك أصابع بأصابع ، هذا هو الرقص . تعالي الي .. أريد ان أشم رائحتك عن قرب ، بالرقص يا عبلة .. استطيع أن أستنفر حواسي كلها . لا تفزعي ان انا مررت بأنفي على عنقك .

وفكر : لعلها تريد أن تحتل جزءاً من حياتي ، هي الأخرى . وصغرت

عيناه لفرط ما فكر ودخن ، وهاجه النعاس كجيش مدجج لا يمكن صده ، وارتعشت أهدابه ، فأطبقها على بعضها البعض وراح في خدر قلق. الجدران تدور. السقف يدور . الأرائك تدور . ولم يصرخ . كان كأنه يشهد ميتة رجل آخر سواه . كان كأن عينيه منفصلتان ، تريان كل شيء حتى الوجه الذي انفصلتا عنه .

وراعه .. ان رأى مئات هابطات اليه من السقف عبر خيوط دقيقة شبيهة بأشعة الشمس الذابلة ، فجزع وفكر في النهوض والهرب ، لكنه لم يقو فتمدد على أرض الغرفة ..

تعالي الي يا حبيبتي . اسمعي . انه لحننا القديم . حسبنا اننا التقينا من جديد ، وان اللحن يملأ آذاننا ، فلنرقص معاً رقصتنا المشتهاة ، لنعبر معاً الحدود التي كانت قائمة بضراوة . ليلتصق جسدانا . اضغطي بقوة . اغرزي اصابعك في أصابعي . احس دفء لحمك . لم يعد ثمة مسافة . الوجهان وجه واحد . الجسدان جسد واحد . بقعة أرض صغيرة تكفي انرقص معاً ، لنموت معاً .

كان سرب من العناكب السوداء قد غطى جسده . . وحوله الى قطعة من الليل الاسود ، وكانت عيناه المنفصلتان عن وجهه تتمتعان بريق عيني رجل حي . . وكانت الغرفة قد امتلأت حتى سقفها بالعناكب السوداء الجادة في الوصول الى جسده .. عندما بدأ جرس الباب يرن رنيناً طويلاً منتظماً .

الذئاب

قصة : أحمد ابراهيم الفقيه

السماء نائمة هذه الليلة ، أغمضت كل عيونها ، لم يبرق ضوء نجمة واحدة !

الشجرة التي آوى اليها عجوز قديمة ، برزت أضلاعها كجثة رجل مات منذ ثلاثة أعوام ، آثار حروق وطرقات فؤوس تملأ جذعها العتيق ، وطلقات رصاص تناثرت آثارها كثقوب كثيرة في بدن الشجرة العجوز ، لا شك ان فارساً قديماً احتمى وراءها يتقي طلقات الرصاص ، وهو اليوم فارس جديد يأوي اليها ليتقي رصاص ليلة شتوية عاصفة باردة !

عثمان الغول ، ليس غريباً عن الليالي العاصفة ، فمنذ كان طفلاً يرعى الجديان

ويرتدي القميص بلا عباءة وها يطارد العواصف يهزمها حيناً وتهزمه حيناً ، والغول ليس اسماً ولد معه ، أو اسم جد له أو أب ، انما هو اسم اكتسبه اكتساباً كما يكتسب البطل لقباً أو وساماً ، فقد عاش حياته غولاً يخافه الناس، مرق أيام كان قانون الجوع يفرض عليه أن يسرق ، وقتل عندما اضطرته مواقف وأمور أن يكون قاتلاً، وعاش هارباً في جبال وشعاب وعرة لا تطأها أقدام انسان ، حتى أيام جرائم الثأر لم يكن للقرية أحد آخر تقدمه ليأخذ بثأرها غير عثمان الغول ، وكثيراً ما انطلقت الزغاريد في الافراح لأن الغول قد استرد للقرية شرفاً مسلوباً ، فعثمان الغول كان قطعة صابون تغسل للقرية عارها ، حتى في خصومات الحرث ، والارض كانت الكلمة الاخيرة له ، عندما كان الخصوم ينسحبون في خوف لتبقى الارض للغول وأهل قريته يحرثونها ، وبعد أن استتب الامن واختفت جرائم الثأر والنهب ، كان الغول يكره أن يعيش حياة مستقرة في القرية ، فكان يبحث عن شعبة من الشعاب يختار كهفاً من كهوفها يقيم فيه وحده ، يقطع الاشجار ليصنع الفحم أو يجمع جذور الحلفاء ثم يبيعها. كان دائماً كضبع عجوز يعيش بين الشعاب وحيداً ، وظل اسمه دائماً الغول، وظل عندما يظهر على الناس بشاربه المفتول الكثيف الاسود ، وسحنته التي ربما كانت بيضاء أو صفراء فحولتها السنوث الطوال من الشمس والبرد الى سحنة قاسية ضاربة الى السمرة .. ظل دائماً مهاباً يبعث الرعشة في أصابع القدمين !

وعندما غادر القرية هذا المساء عائداً الى احدى شعابه ، كان الجو يمتلىء غيوماً وغباراً ، ثم اظلمت الدنيا ، واشتد عواء الريح ، وتخفى البرد تحت جلد الليل وجاء متسللاً يعضه من الفه وأذنيه ويخترق اهراء العباءة الى كل بدنه .. ورأى من الحكمة ان يأوي هذه الليلة الى هذا الجذع العتيق يتقي شر هذه الليلة الغاضبة ، ويواصل سيره في الصباح .

جمع عثمان الغول بأصابع مخشوشنة معصورة لم يعد يؤثر فيها البرد قليلاً من الأعواد والقش ، أوقد ناراً ، مد أصابعه ، يتدفأ بلهيبها ، ويراقب دخانها وهو يذوب في الظلمة .. حتى لكأن هذه الظلمة الكثيفة ماهي إلا دخان تجمع وتكاثف وتحول ظلاماً !

وكانت العاصفة من حوله كأنها مليون ذئب تنبح وتعوي .. وناره وعباءته وجذع الشجرة التي آوى اليها . كلها تنهزم أمام البرد الذي تحول الى مدراة تنغرز في

لحه ، احس عثمان الفول بنفسه أبريقاً من الفخار مملوءاً بالصقيع وفوق رأسه كانت الغصون والاوراق يصفعها الريح فتتألم وتتأوه وتضج بالصراخ وتصر صريراً موحشاً رهيباً كحشود من البشر تسحقها براثن وحش خرافي .

اخرج من وعاء كان معه رغيفاً يابساً من الخبز ... قربه من موقد النار ، ليسخن ويلين قليلاً .. وبدأ يجرب ان كانت اسنانه قادرة على المضغ .

وفجأة ..

ومن خلال الظلمة ، برقت على ضوء اللهب عينان تقتربان نحوه ، وتزحفان فوق الارض على مهل .

لم تكن عينين آدميتين ، كانتا صغيرتين مشروطتين ، يتوسط كل منها بؤبؤاً أسود كحبة عقيق صغيرة .

وبدأ يتبين على ضوء اللهب أن هناك ايضاً رأساً ، وان هناك أيضاً اذنين ..وشيئاً فشيئاً ظهر امامه كل شيء ، كان القادم ذئباً صغيراً ، ذئباً رمادياً ، امتزج لونه بلون الظلام ، استرد اطمئنانه .. كان ذئباً طيباً وديعاً .. رأسه في الارض ، وذيله بين قدميه !

ذئب صغير جائع ، مزق البرد امعاءك ، اخرجك البرد من جحرك لتبحث عن طعام .. لنتقاسم هذا الرغيف ايها الذئب الجائع الصغير .

اقعى الذئب قريباً من اللهب ، مد رأسه ، واذنيه .. وظل باقياً !

رمى اليه بقطعة من الخبز ، في هدوء ووقار مد اليها الذئب فمه ، ابتلعها شاكراً ثم مد رأسه ينتظر لقمة أخرى !

أكل كسرة ورمى باخرى اليه التقطها الذئب سريعاً ، وظل ينتظر ، ثم اخرى ، الذئب يبتلعها في صمت ، ثم يمد رأساً رمادياً، واذنين رماديتين ينعكس فيها الوهج ينتظر لقمة أخرى ، رمى اليه بكل ما بقي من الرغيف ، مضغه الذئب في هدوء .. ثم ظل باقياً في مكانه .

آن لك ان تذهب ايها الفأر الماكر ، اطعمتك عشائي ، فماذا تريد ايضاً .. اومأ عليه بطرف العباءة .. ثم حرك في وجهه العصا .. لم يتحرك الذئب .

تناول حصىً كانت بجانبه ، رمــاه بالحصاة ، اختلجت شعرات بدله قليلاً وظل باقياً .

يا لك من ضيف سخيف ثقيل الدم .

أثار الذئب حنقه فانتقى من موقد النار شهاباً كبيراً ، ورمى بالشهاب بين عينيه حتى احترق جبينه ، انتفض الذئب في رعب ، كشر عن انيابه ، ودمدم في غضب .. وخب هارباً وسط الظلام !

وتنهد في ارتياح .. لقد عرف كيف يطرد هذا الذئب الجائع السخيف .. واتكأ برأسه على جذع الشجرة ، ومدد قدميه ، وسوى اطراف عباءته من حوله ، وقبل ان يسبل رموش عينيه لينام قليلاً ، سمعه ينطلق ، كأنه القذيفة ، عواء ذئب قريب ، عواء طويل ممدود كالاستغاثة .. اعقبته فترة صمت ظن معها عثمان الغول ان الامر قد انتهى عند هذا الحد ، وهم بان يعاود رقاده الا ان العواء عاد من جديد..انطلق من كل الجهات، لم يكن عواء ذئب واحد .. انما عشرات الذئاب تعوي .. عواء جاء به الريح من بعيد.. وآخر قريب دوى في أذنيه كطلقات الرصاص .. امتلأت الشعاب عواء" وعندما ارهف اذنيه ووصل اليه صوت اقدام الذئاب وهي تخب وتعدو في كل مكان انتفض عثمان الغول واقفاً ، وانتصبت اذناه في خوف ، وادرك كل شيء .. ان الذئاب تتآمر عليه .

لقد عوى الذئب الصغير مستغيثاً ، فردت عليه ذئاب المنطقة وهرولت جميعها نحوه ، انه يعرفها ... الذئاب ، لقد حدث مرة ان تجمع عليه ذئب جائع كل ذئاب المنطقة ، ايامها كان حمل السلاح مباحاً ، اطلق من بندقيته سيلاً من الرصاص ، هربت على أثره كل الذئاب ، وهو اليوم أعزل من كل سلاح . ماالعمل؟ لقد وقع في مصيدة الذئاب، سوف تهرول نحوه بعد قليل عشرات من الذئاب الجائعة ، سوف تغرز انيابها في بدنه ، وتأكله لحماً وعظماً ، والتفت شمالاً ويميناً ، وبعاطفة يكتشفها لاول مرة ود لو رأى شبح كائن بشري ، حتى لو رأى وميض ناره ، من بعيد لكان هذا كافياً لأن يجعله يطمئن ويواجه الامر بشجاعة ، لكن لم يكن هنا سوى الظلام والعاصفة . بقعة مقطوعة عن كل الدنيا .. الليل يبني جدران سوداء حوله ، وهو معزول ، العالم أفرغ من وعائه كل البشر . لم يبق سوى عثمان الغول وحده .. وعليه ان يواجه الذئاب الجائعة وحيداً .

تجمعت الذئاب . . وصل اليه وقع أقدامها تهرول قادمة نحوه من احدى الهضاب القريبة . . وبدافع شعور غريزي يرفض أن يستسلم للهزيمة منذ أول مرة ، أمسك بجذع الشجرة ، وتسلقها في سرعة وعندما جاءت الذئاب رآها من فوق الشجرة تتشمم مكانه ، وتحوم بموقد ناره ، كانت ذئاباً كثيرة ، أكثر من عشرة ذئاب ، جاءت يقودها ذلك الذئب الرمادي الصغير الذي أطعمه رغيفه ، لكنه لن يكتفي الا بلعق دمه ومضغ كبده ورئتيه .

وعندما اكتشفت الذئاب مكانه فوق الشجرة ، تبادلت النظرات ، وزمجرت بالعواء ، وهجمت جميعها تحاول أن تتسلق الشجرة وتنشب أظافرها وأنيابها في جذعها العجوز ، وكانت العاصفة تتآمر ضده مع الذئاب فجمعت كل مالديها من برد وريح هناك بين أعراف الشجرة، لتحوله عوداً يابساً من البرد . وكان كل همه الآن أن يجد غصناً لايهزه الريح يستطيع أن يثبت فوق قدميه . وعندما ثبت قدميه ووجد أن الذئاب قد أكملت حصارها حوله ، انتزع غصناً كي يمنع به الذئاب من الوصول اليه . كانت الذئاب قدقسمت العمل بينها ، اتجه عدد منها يحفر الارض وينبش تحت عروق الشجرة كي يقتلعها من عروقها بعد أن فشل في تسلقها. في حين ظلت الذئاب الاخرى تنتصب على أقدامها الخلفية وتمد براثنها الامامية وتنشب أظافرها وتجدف عبر جذع الشجرة ، وكان عواؤها يختلط برعد العاصفة ورياحها وضجيج أوراق الشجرة فيهبط قلب عثمان الغول الى قدميه ويملأ الوهن ركبتيه وتلهث أنفاسه وتتهدج كالمخنوق ويحس أنه قبل غمضة عين سوف يسقط من فوق الشجرة الى أنياب الذئاب . وظل يومىء بغصنه شمالاً ويميناً ومن أمامه ومن خلفه ، والذئاب تقفز حتى تكاد تصله ، وحتى لو كانت الشجرة أكثر طولاً . وحاول أن يجرب غصناً أكثر علواً يثبت فوقه قدمه . . لكن الغصن انكسر تحت ثقله . . وزلت قدمه حتى كادت تسقط في فم ذئب كان يجهد في التسلق نحوه ، واهتاج الذئب ، وفتح أنيابه وقفز في الهواء ، إلا أنه وبقوة لايدري كيف واتته، رفع قدمه قبل أن تصلها أنياب الذئب ، واهتز قلبه رعباً عندما أضاءت الدنيا ومضة برق ، ولمعت مع تلك الومضة عيون الذئاب من حوله. رأى عشرات العيون تحوطه من كل جانب ، عيون شرسة جائعة تفتح أفواهها ، ورأته الذئاب واضحاً على ضوء البرق ، فأطلقت عواءاً شرساً رن في جوف الليل رنيناً رهيباً ، وتردد صداه في كل الوهاد . فبدا كأن الكون كله يمتلىء ذئاباً . ولم يكن البرد الذي جمد أمعاء عثمان الغول وورم أنفه وأذنيه وشفتيه وجعل بدنه غصن من أغصان تلك الشجرة يصطفق ويرتعد ، لم يكن هذا البرد الا شيئاً هيناً بجوار تلك العيون الجائعة التي لمعت في الومض . . والتي بدت لعثمان الغول كأنها عيون أبالسة ومردة خرجت له من تحت غطاء الليل لتمسخه وتمزق بدنه. وما تنبه عثمان الغول الا وفماً مفتوحاً برزت أنيابه كالمسامير على مقربة منه ورأى ذئباً ضخماً قد ارتفع عن الارض وغرز براثنه في أعلى الجذع ومد عنقه كي يصل اليه بأنيابه ويجره من قدمه . وازداد العالم ضيقاً أمام عثمان الغول ، الغصن الذي يدافع به كان قد سقط ، والشجرة لم تعد فيها أغصان أعلى يثبت فوقها قدميه ، وأنياب الذئب تقترب من قدمه ، وبجسارة ومخاطرة لم يدر كيف

جانه رفع قدمه وهوى بها فوق رأس الذئب حتى أن الذئب ارتطم بالارض وهو يعوي عواء رهيباً ، ثم جرى مبتعداً عن الشجرة ، وولى مزمجراً غاضباً وقفز في الهواء قفزة شيطانية ، لو أن الغول لم يرتم محتمياً بأحد الاعراف لكانت براثن الذئب قد جرته الى الارض .

وبدا لعثمان الغول ان الليل هو ايضا يتآمر عليه فقد احس به يطول ويتمدد ويتحول الى دهور ، الى عمر طويل لا نهاية له ، وفيما كان ينتزع من اعراف الشجرة عوداً آخراً يرد به هجمات الذئاب على احدى الجهات ، لم ينتبه الا وشيئاً يمسك به فجأة من وراء ظهره ويسحبه في قوة الى اسفل ، وكاد يسقط الى الارض رعباً ، فقد ايقن ان ذئباً قد وصل اليه من الخلف ، واطلق عثمان الغول صرخة يائسة تردد صداها عبر الاركان الاربعة، وتشنجت يداه فوق اقرب غصن ، وعندما استدار لم يجده ذئباً قد نبت في ظهره وانما وجد طرف عباءته يتدلى مع جذع الشجرة وقد امسكته الذئاب بانيابها واظافرها لتجره الى الارض ، وكدت تفلح في اسقاطه ، لولا انه التف في سرعة وسلخ العباءة ، رماها الذئاب تمزقها ، وبقي يواجه هجوم البرد في اعلى الشجرة بلا عباءة . عارياً سوى قميص يغطي جلده .. واحس بالبرد كما لم يحس به من قبل. احس به يجلده بمليون سوط في ظهره واضلاعه ووجهه وعنقه وساقيه.. وعاودت الذئاب هجومها بعد ان لهت قليلا في تمزيق العباءة .. وعاود البرق وميضه . وعاودت العيون، عشرات العيون الملتهبة الجائعة ، لمعانها من حوله . وازداد رعبه رعباً عندما القى نظرة الى اسفل فوجد ان الذئاب قد افلحت في أن تشق خنادق اسفل الشجرة . ورأى عروق الشجرة التي كانت تضرب في الارض قد تعرت بعد ان حفرتها الذئاب . وعدد من الذئاب رآه يواصل الحفر بامتداد العروق حتى يستلها من منابتها . عندها .. ايقن عثمان الغول ان الامر قد انتهى . وان الذئاب التي لم تفلح بعد في الوصول اليه فوق الشجرة سوف تقلب الشجرة بعد قليل .. لا مفر .. وفكر عثمان الغول في كل هجماته وجرائمه . فكر في كل معاركه وخصوماته. ما كان افضل له لو كان هو القتيل من ان يكون قاتلا، ما كان افضل له لو اخترقت رصاصة رأسه من أن يسقط الآن بين انياب الذئاب تلتذ بأكله ظفراً ظفراً وقطعة قطعة .. ام هل تراه لم ينج من كل تلك الاهوال والمعارك الا لكي يكون وجبة شهية على مائدة هذه الذئاب الجائعة .. ثم هذا البرد اللعين الذي صار ينفذ من خلال جلده الى كبده وفؤاده وامعائه يمضغها ويسحقها .. وبدا عثمان الغول خائراً واهناً في مواجهة الذئاب .. مستسلماً كخروف العيد .

وبدون ان يحس ، وجد ان الظلام يتبدد، وان نكهة الصباح تنتشر فوق اعراف الشجرة، وان الطيور قداستيقظت وملأت الدنيا تغريداً ، وان الندى صار يتلألأ فوق اوراق الشجرة الخضراء ناعماً رطيباً .. والذئاب بدت تتسلل الواحد بعد الآخر .. لم يبق منها سوى تلك التي تواصل الحفر تحت العروق . . ثم هي ايضاً مع ذهاب كل أثر لليل صارت تترك الحفر وتخب هاربة ، وكان آخر ذئب تسلل هارباً ، ذلك الذئب الرمادي الصغير الذي أطعمه رغيفه فجمع عليه الذئاب .

وأشرقت الشمس .. ونزل عثمان الغول الى الأرض في اعياء ووهن .. ومسح المكان بنظرة متعبة .. كان كل شيء يدل على ان معركة ضاريه شهدها الليل الذي تسلل هارباً مع الذئاب . كان جذع الشجرة قد تقشر وتقلم كله ... صار الجذع القديم الكثير الأضلاع الذي يمتلىء حروقاً وآثار فؤوس ورصاص . صار الآن مسلوخاً أبيض كشاة الضحية . الاغصان التي تهشمت تملأ الأرض وأسفل الشجرة قد تحول الى خنادق يتراكم ترابها كقبور الرجال الطوال .. والعروق التي كانت مدفونة في الارض تمتد حتى مسافات طويلة عارية لايغطيها شيء .. وخروق كثيرة تناثرت عرف فيها عباءته التي مزقتها الذئاب .. وكان عثمان الغول يقف يابساً معروقاً أصفر كشجرة جفت عروقها .. كانت الاغصان التي تسلقها واحتمى بها قد ملأت ذراعيه ويديه ووجهه خدوشاً وجروحاً، أما الذئاب التي حاصرته طول الليل فانها لم تستطع أن تمسه بشيء . ان ظفراً من أظافرها أو ناباً من أنيابها لم يصل اليه.. ومع ذلك كان عثمان الغول وهو يخب في قميصه الممزق راجعاً الى القرية ، وهو يلتفت شمالاً ويميناً كلما تكسرت تحت قدميه عشبة يابسة فارتعشت أصابعه وارتعش شنبه . كان عثمان الغول يحس خلال ذلك كله أنه ليس حقاً قد نجا من الذئاب . . ان شيئاً كبيراً قد فقده البارحة ، شيئاً كبيراً فيه قد أكلته الذئاب !

الدكتور سامح الكسم

ازدواج الدلالة في الثقافة العربية

يتألف هذا الكتاب من مجموعة من الأبحاث يصعب الحديث عن أبرزها في هذا العرض الموجز .

ولكننا نذكر من بين الباحثين جاك برك ، صاحب الدراسات الاجتماعية العديدة عن العرب ، ولوي غارديه صاحب عدد من المؤلفات عن الفكر والتصوف في الاسلام ، وريجي بلاشير صاحب الدراسات المختلفة في الأدب العربي ، وأحد

الذين ترجموا القرآن الكريم الى اللغة الفرنسية ، وجان بول شارنيه ، صاحب الدراسة المطولة عن التشريع في الجزائر في النصف الاول من القرن العشرين ، وروجيه ، ارناديز صاحب الدراسات المستفيضة عن ابن حزم الاندلسي ، ودافيد كوهن ، المستشرق المختص باللسانيات ، وجيرار لوكونت ، المختص بابن قتيبة وغير هؤلاء من المستشرقين كما نذكر بعض الكتاب العرب مثل دجي كمال وشفيق شحاته ومحجوب بن ميلاد .

وقد أشار شارنيه في مقدمة الكتاب الى ان الابحاث المندرجة فيه قد وجهتها فكرة كان لوى ماسينيون قد عبر بها عن اعتقاده بأن الاضداد في اللغة العربية مثال يدل على ان الحدود الاساسية في الثقافة العربية ذات مدلول مزدوج» وسنقتصر الكلام على موضوعات ثلاثة هي « الاضداد » في اللغة العربية و « الاختلاف » في الفقه الاسلامي و « الجدل » في الفكر العربي .

١ — تضم اللغة العربية عدداً من الكلمات تسمى بالاضداد ، وتدل كل واحدة منها على معنيين متضادين . ومثال ذلك : المولى وتعني السيد والعبد ، والجون وتعني الابيض والاسود ، والمأتم وتعني اجتماع النساء عند الفرح او عند الحزن ، وباع وتعني باع واشترى ، واسر وتعني اخفى واعلن (وبأن وتعني ظهر واختفى ، وغير ذلك من الكلمات التي اختلف اللغويون القدامى في حصرها ، والتي بلغت عند بعضهم نحو اربعمائة كلمة .

ومن اشهر الذين عالجوا هذه الظاهرة اللغوية منذ اواخر القرن الثاني للهجرة الاصمعي وابو زيد الانصاري وقطرب تلميذ سيبويه ، وابو بكر الانباري المشهور بكتاب « الاضداد » ، وابن درستويه في القرن الرابع للهجرة .

والملاحظ ان من بين هؤلاء كالانباري مثلاً ، من اشار الى ان اهل الاستهزاء ، اي الذين يحبون ان يسخروا من اللغة العربية ، قد اتخذوا من ظاهرة

الاضداد حجة على ضعف هذه اللغة وعجزها عن التعبير الواضح . وهو يذهب في رده على الشعوبية ، الى ان وجود الاضداد في اللغة العربية من فوائد هذه اللغة ، وانها دليل على الغنى لا على الغموض والابهام . ذلك ان الكلمة الواحدة من هذه الاضداد ليس لها الا معنى واحد في سياق معين . كما نجد ان ابن درستويه ، الفارسي الاصل ، ينفي وجود الاضداد نفياً كاملا ، الامر الذي دفع بالاشير الى ان يشير الى الحماسة الكبيرة للغة العربية عند غير العرب من المسلمين .

ولا مجال للحديث هنا عن ظاهرة الاضداد في اللغة العربية من حيث نشأتها ، أو من حيث تفسيرها بتعدد اللهجات العربية ، وما طرأ على بعض الكلمات من تطور . ولكننا نشير الى محاولة طريفة وعجيبة حقاً ، للكشف عن نشوء بعض الاضداد الجديدة في ايامنا هذه . فقد ورد في الابحاث التي يضمها الكتاب ان الفعل « ركد » وهو في اللغة الدارجة مخفف من « ركض » ، يدل في سورية ولبنان على الجري السريع ، بينا يدل عند القاهري على السكون ، كما هو الحال في اللغة الفصحى ، وأن كلمة « قومي » تدل في دمشق على ما يتصل بالوطن العربي الكبير . بينا تدل في القاهرة على ما يتصل بالقطر وحده ، ولا نحسب ان مثل هذه المحاولة بحاجة الى أي تعليق .

كما اننا لا نحق ان نعلق على ماورد في بحث لدافيد كوهن عن كلمة « بعد » التي يرى انها لا يمكن ان تعنى الا « قبل » حين وردت في آيتين كريمتين هما : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر » ثم « والارض بعد ذلك دحاها » . وذلك لان صاحب البحث يرى ان الزبور كان قبل الذكر ، اي القرآن الكريم ، وان الارض قد خلقت ، وفقاً لآية اخرى ، قبل السماء

لابعدها . كما لا نعلق اخيراً على قول بلاشير ان كلمة « امر » تعني اخفى واعلن لان عبارة « أسروا الندامة » في القرآن الكريم تعني عقلاً ، عند المترجم ، انهـا اعلنوها .

وانما نريد ان نقف عند سؤال تردد على استحياء في بعض الابحـــاث المذكورة يتصل بمبدأ الذاتية او الهوية . فجان بول شارنيه يشير الى ابحاث الكتاب ستين الى اي حد يظل مبدأ الذاتيـة قاعدة للتفكير العربي . وجاك برك الذي ادهشته ظاهرة الاضداد في اللغة العربية واثارت فضوله كله ، وجعلته يصر على ان عدداً منها على الاقل يبقى عصياً على الذوبان، يقول في بحث له: « ان مبدأ الذاتية هو ، كما نعرف ، الخصم الأكبر للاضداد » . ص ١٣٤ بل ان محجوباً بن ميلاد نفسه يذكر ان الذين ينكرون وجود الاضداد هم الذين يرون انهـا لا تضـع مبدأ الذاتية موضع الخطر ، وان الذين يؤكدون وجودها لا يرون كيف يمكن، عند ذلك ، انقاذ مبدأ الذاتية (ص٣٧٦) وهذا على الرغم من أن الكاتب التونسي يحاول ان يميز ، ولكن بصورة غامضـة ، بين « التناقض المنطقي » الذي يهدم كل تفكير وبين « التناقض الجدلي » بوصفه مبدأ اعلى للمعقولية يسمح لنا بأن نفهم ضروب تحول واقع ينمو باستمرار .

الحق اننـا لا نفهم اطلاقاً كيف يقذف الكتاب بين صفحاته مثل هـذا السؤال الخافت عن مدى احترام الفكر العربي لمبدأ الذاتيـــة . ان في ابحاث الكتاب نفسه ما يبين ان ظاهرة الاضداد تـكاد تكون عامة في جميـع اللغـات اما ان يحاول احد ان يقفز من ذلك الى تمييز عقـل انساني عن عقل انساني آخر فمغامرة خطرة . لقد حدثنا ليفي برول في كتاباته الاولى عن عقلية سابقة للمنطق، ينعدم فيها مبدأ الذاتية وتخضع لمبدأ المشاركة ، عقلية ظن انه اكتشفها لدى القبائل البدائية . ولكنه تراجـع عن هذا الاكتشاف في ايامه الاخيرة . واما ان تقام

فكرة الجدل على انقاض مبدأ الذاتية في العقل ، فهذا ما كف عنه منذ وقت طويل هؤلاء الذين اغرتهم المحاولة في بادىء الامر . ولا يتسع المجال لتفصيل ذلك كله . وانما نكتفي بالقول ان اللبس لا يقع في اللغة العربية ولا في العقل العربي ، ولكنه يقع في اكتشافات وتساؤلات ساذجة .

يبدو اننا لم نخرج من قصة الاضداد الابتيجة سالبة . ولكنها قد تكون مفيدة من بعض الوجوه . ولعلنا أن نخطوا خطوة اخرى اذا عدنا الى بعض النقاط في بحث لمحجوب بن ميلاد عن النظرية العامة لما يسميه بالقطبية في الثقافة العربية . فهو يرى ان الروح التأملية للغة العربية ، تملك الاضداد من بين ما تملك من وسائل التعبير عن سيولة الواقع في نقائضه الاساسية . فالتضاد بين الظهور والاختفاء ، المتضمن في الفعل « بان » انما يفسر بأننا ، من جهة اولى ، كثيراً مالا نرى الشيء الموجود أمام ابصارنا ، واننا من جهة ثانية ، لا نحس بحضور شخص عزيز علينا الا حين غيابه و كذلك الامر في صور اخرى للتضاد .

ونحن في الواقع لانرى في هذه الأمثلة مايوضح لنا في التطبيق ، التمييز الذي يقيمه صاحب البحث بين التناقض المنطقي والتناقض الجدلي . ولكن محجوباً بن ميلاد يرى ايضاً ان هناك نوعاً من التناسق الازلي بين الروح التأملية للغة العربية وبين الوحي . ودليله على ذلـــك ان « المثاني » الوارد في الآية الكريمة : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم » ، والتي تدل على الآيات المتشابهات ، تتصل بنظرية الاضداد كما تتصل بالتناقض الجدلي نفسه . وتدل بعض هذه المثاني على التناقض بين الحرية والجبر ، وبين العقل والايمان وبين الحياة الدنيا والحياة الأخرى . ففي المثنى الاخير مثلاً يجد بن ميلاد اتصالاً وانقطاعاً بين الحياتين . فهناك اتصال لان في الحياة الاخرى جزاء الحياة الدنيا ، وهناك انقطاع لأن الحياة الدنيا لا قيمة لها بالنسبة الى الحياة الاخرى . واستناداً الى ذلك يتضح عنده

معنى الحديث الشريف أو القول المأثور « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً »،واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

اذا تركنا النظرية العامة للاضداد والقطبية في الثقافة العربية كما يتصورها محجوب بن ميلاد ، وتأملنا معه معنى القول المذكور ، وجدنا ان لا يقوم على تناقض مهما يكن نوعه ، وانما يقوم على تكامل يستوعب الابعاد الثابتة للوجود الانساني الواحد . فان نعمل للدنيا كأننا نعيش ابداً لا ينفصل عن عملنا للآخرة كأننا نموت غداً . ولعـــل من الخير بدلاً من ان نتحدث عن « تناقض جدلي » يربط مصيره بمصير نظرية الاضداد ونظريات اخرى كثيرة ، ان نتحدث عن وحدة جوهرية قائمة على تعميق كل من العملين بالعمل الآخر .

٢ ـ فنتقل الآن الى ظاهرة « الاختلاف » في التشريع الاسلامي.وكل مايهمنا منها في هذا الحديث انها ربطت أيضاً عند بعض المستشرقين الذين اشرنا اليهم ، بظاهرة الاضداد في اللغة .

انها تبدو في أعينهم مظهراً آخر لازدواج الدلالة في الثقافة العربية . فهم يشيرون الى المذاهب الفقهية المعروفة ، والى مسألة الاعتراف بأنها صحيحة كلها حتى حين تطلق أحكاماً متعارضة في مسألة وحدة معينة . فجاك برك مثلاً ، يقص علينا ان قاضياً في المغرب العربي و « في قلب القرن العشرين » قد فسخ زواجاً لأن الزوج قد غير اقامته وانتقل من مدينة الى مدينة أخرى (ص٢٣٣) ، وان قاضي الاستئناف قد نقض هذا الحكم مطبقاً مبدأ معارضاً كل المعارضة لمبدأ القاضي الاول . وواضح هنـــا ان جاك برك لم يقف إلا عند المظهر السطحي والخارجي لهذه القصة . ثم هو يحدثنا عن الشيخ المالكي محمد عليش الذي يذكر القول المأثور « اثبات الضدين معاً محال أقبح مايأتي من المحال » (هذا القول الذي يرى جاك برك أنه مطابق لما يراه القاضي المغربي المدافع عن مبدأ الذاتية) ،

والذي ينتهي على عكس ذلك ، الى اقرار الصحة لرأيين متعارضين . وهذا المثال، في نظر جاك برك ، تطبيق واضح لنظرية الأضداد .

لن نعود مع برك الى الاضداد . ومن حسن الحظ ان بحثاً آخر في الكتاب لصاحبه ايفون ليان دي بلفون ، يتحدث عن الحالات المزعومة لازدواج الدلالة في الفقه ، وعن وجود « الاختلاف » تحت اسماء أخرى في جميع المذاهب القضائية . وكل ماتريد ان تنتهي اليه هو ان الفقه الاسلامي يكشف عن مرونة خصبة حين يقرر مثلاً أن اختلاف الائمة رحمة ، وان الضرورات تبيح المحظورات . ففي هذين المبدئين وحدهما مايشهد بقدرته على استيعاب الظروف المختلفة ، وعلى التلاؤم مع مقتضيات الحياة الواقعية . وهذه القدرة هي التي تطبعه بطابع الانفتاح .

٣ ـ نصل أخيراً الى القسم المتعلق بجدلية الفكر العربي ، كما يحاول لوي غارديه ان يعين خصائصه . فهو يبدأ بتعريف الجدل بمعناه الواسع على أنه ايقاع الفكر الذي ينتقل من الشبيه الى الشبيه أو من الشبيه الى ضده ، فيقع بدوره على ظاهرة الاضداد ويضيف اليها ظاهرة التضمين . وهو يعترف بان اللغة العربية يمكن ان تكون أداة ممتازة للتجريد الصوري ، وتشهد على ذلك فلسفة ابن سينا وفلسفة ابن رشد . ولكن الفكر التلقائي عند العرب يدرس المعاني في ترابطها . فهو يثبت معنى ثم ينفيه باثبات نقيضه . فمعنى الفناء عند الصوفية لاينفصل عن معنى البقاء . ففي خطوة أولى نجد الفناء عن .. أي الغاء كاملاً للمخاوق . وفي خطوة ثانية نجد الفناء ب .. أي الغاء للمخاوق . وفي الوحدة الالهية . وفي خطوة ثالثة نجد البقاء الى ينفي الفناءين ويختلف الجدل هنا عن الجدل الهيجلي في ان عمليات النفي والاثبات لايتولد بعضها عن بعض . فالبقاء لايتعين بالفناء بل يمكن ان يتخلف عنه .

ويذهب غارديه الى ان فنومنولوجيا الوجود الحسي التي يقدمها التحليل الماركسي للظواهر التاريخية والاقتصادية والاجتماعية يمكن ان تبدو للوهلة الاولى موافقة للذهنية العربية ، ويمكن ان تغريها ، ولكن هذه الذهنية ، اذا ظلت وفية لذاتها وللجدل الكبير ، جدل الحق والخلق ، فلا بد ان تصطدم بالمصادرة الاعتباطية التي تؤكد ان الوجود هو الوجود الحسي وحده . ان الجدل الخاص بالعبقرية العربية ينتقل من توكيدات الى توكيدات معارضة بحيث ينفي كل منها الآخر ويستدعيه في الوقت نفسه . وطابع الانفصال في هذا الجدل يتيح له ان يدرك تشابهاً عميقاً يتفرع الى متعارضات ، يقف كل منها شاهداً على الآخر .

ونعتذر هنا عن عدم عرض الجانب المنطقي المحض لنظرة الاستدلال في الجدل العربي كما يراها غارديه . والفكرة التي يمكن أن نستخلصها من هذا البحث كله هي ان الفكر العربي ، يملك الى جانب الاسلوب المتصل في الربط بين المعاني ، والمتمثل بالبحث عن الحد الاوسط كما هو الحـــال في المنطق الارسطي ، اسلوباً جدلياً يجعله لا يكتفي بالوقوف عند المضمون المباشر للمعنى الواحد ، وانما يجدده ويغنيه بواسطة المعنى المقابل له ، كما هو الحال في معنى الفناء والبقاء أو معنيي الحق والخلق .

لا شك أن في هذه النظرية محاولة جادة لتحليل منهج في رؤية الواقع يناسب مستوى خاصاً من المستويات التي يعمل فيها التفكير . ولكننا نحب ان نسجل على هذه النظرة بعض الملاحظات ، منها ان اسلوب المقابلة ، او « الجدل الانفصالي » ليس الاسلوب الوحيد او الاسلوب السائد في الثقافة العربية ومنها ان هذا الاسلوب ليس خاصاً بالتفكير العربي بحيث يميزه ويفصله عن صور أخرى للتفكير الانساني . لذلك ، بدلاً من ان نقول مع غارديه انه يعين خصائص الجدل العربي يحسن ان

نقول انه وجه من اوجه التفكير الجـدلي العام الذي عرفه الفكر العربي خلال تفتحه .

ومثل هذه الملاحظة تنطبق على محاوله جاكبرك لدراسة الاضداد منزاوية ازدواج الدلالة . فهو يقول في احد بحوثه ان جورج جرفتش قد ذكر في كتابه « علم الاجتماع والجدل » أن جيلنا الحالي يتمثل فكرة الجدل من خلال جـدل النقائض كما يعرضه الفكر الماركسي ، بينما هو لايمثل الا ضرباً واحداً منضروب الجدل . فهناك مثلاً جدل التكامل الذي يناسبدراسة الظواهر الطبيعية ، وجدل التضمن المتبادل ، وجدل ازدواج الدلالة ، ويضيف برك ان هذا الجدل الاخير لايتجلى في علم الاجتماع فقط ، حيث تتخذ العلاقة مع الآخرين صور الجـذب والنبذ ، ولكنها تتجلى ايضاً على مستوى الحياة الاخلاقية ومستوى الحياة النفسية ، عندما يشير فرويد مثلا الى ازدواج الدلالة في السلوك الانساني . ان قول بركهذا يدل بوضوح على انه اقتصر على مظهر واحد من مظاهر الفكر الجدلي ثم اراد ان يتصور الثقافة العربية مطبوعة كلها بطابعه .

هـذا ونعتقد ان مناقشة مفصلة لأهم ما ورد في الكتاب ، تحتـاج الى دراسات مطولة .

شؤون فلسطينية

مجلة شهرية فكرية لمعالجة أحـداث القضية الفلسطينية
وشؤونها المختلفة

تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور أنيس صايغ

يشارك في التحرير : محمود درويش وابراهيم العابد
الى جـانب مجموعة من كبار الكتّاب والمختصين بالقضية الفلسطينية

نحو ٢٤٠ صفحة من القطع الكبير تحوي مجموعة من المقالات والدراسات تعالج النواحي العسكرية والسياسية والفكرية والاقتصادية للقضية الفلسطينية وللشعب الفلسطيني . الى جانب الابواب الثابتة التي تسجل الأحداث والنشاطات الفلسطينية .

ثمن العدد : ٢/٣١ ل. ل . في لبنـان ، ٢/٤١ ل. س . في سوريا ، ٤٥٠ فلساً في الكويت والعراق ، ٢/٤١ ل. ل . في سائر الاقطار العربية. الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٤٠ ل. ل . في لبنان ، ٥٠ ل. س. في سوريا ، ٥٠ ل. ل. في سائر الاقطار العربية ، ٦٥ ل. ل. في اوروبا وافريقيا ، ٩٠ ل. ل. في اميركا واستراليا وآسيـا . الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل. ل. في جميع الدول العربية .

العنوان : بنـاية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص. ب ١٦٩١ ، تلفون ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقياً مر أبحاث ، بيروت .

صفوان قدسي

في الفكر الاشتراكي المعاصر

يواجه الفكر الاشتراكي المعاصر مهمة تجاوز نفسه باستمرار ، والتكيف بحسب التطورات السريعة والمتلاحقة التي تفرض نفسها على عالم اليوم ، وبالتالي الخروج بصيغ علمية جديدة تحدد ملامح العصر وتكشف عن العوامل التي تتحكم في عملية التطور الاجتماعي بعد سقوط الصيغ القديمة التي تم وضعها في القرن التاسع عشر ، والتي رسمت صورة التطور للمجتمعات الاوربية في عصر الرأسمالية .

ان القوانين التي جرت صياغتها في القرن التاسع عشر ، ومن خلال ظروف المجتمعات الاوربية الرأسمالية ، أصبحت بحاجة الى اعادة النظر ، الى اكتشاف الصحيح منها ، الى محاولة تبذل من أجل تطويرها وملاءمتها مع احتياجات العصر وظروفه الجديدة .

من هنا ، فان الفكر الاشتراكي المعاصر في أوربا بصورة عامة ، وفي فرنسا بصورة خاصة ، يسعى الى التصدي لهذه المهمة الشاقة ، الحافلة بكل أشكال الصراع والتناقض التي لابد وأن تتبدى من خلال هذه المواجهة الجادة لمشاكل العصر .

إلا أن ذلك قد تسبب في ماهو أكثر من مجرد الصراع والتناقض . لقد تسبب في انقسامات خطيرة ظهرت داخل الحركات الاشتراكية المختلفة ، وظهرت معها اتجاهات متباينة ، وكادت الحقيقة ذاتها أن تضيع . وفي مقابل ذلك ، كانت الصورة على درجة غير عادية من الوضوح . كانت كافة الاتجاهات تقود الى ساحة اللقاء الأخيرة . كان الشعور بضرورة مايسمى بتجديد الاشتراكية هو تلك المساحة التي التقت فيها كافة الاتجاهات ، على مابينها من تباين وتناقض في معظم الأحيان .

والكتاب الذي نقدمه « دراسات في الفكر الاشتراكي المعاصر » يسلط الأضواء الكاشفة على تلك المهمة التي يضطلع بها الفكر الاشتراكي المعـــاصر ، ويناقش عدداً من المسائل الهامة ، من مثل مسألة العلاقة بين الديمقراطية والاشتراكية وقضية الجوع ، ونقد الماركسية ، والاشتراكية ورأسمالية الدولة ، ونظرية الثورة والتحرر الوطني والاجتماعي في افريقيا .

الاشتراكية المتجددة :

ان مجموعة هذه الأبحاث تصل الى حقيقة واحدة وهي أن الاشتراكيـة ليست نصوصاً جامدة ، وانما هي رصد مستمر وتحليل متصل لواقـــع يتحرك ،

وبالتالي فهي ليست مذهبية متحجرة بقدر ماهي اكتشاف للقوانين من خلال الممارسة والتجربة .

يقول الاشتراكي الفرنسي « جوريس » : ان النهر يبقى أميناً على أصله ومنبعه اذ يتجه نحو البحر ويعلق «أدوار ديبرو» الامين العام للحزب الاشتراكي الموحد في فرنسا ، وأحد الوزراء السابقين ، على ذلك بقوله : « ان الاشتراكية الغربية تحتاج الآن الى المزيد من التكيف والتلاؤم والمطاوعة مع قضايا الساعة المطروحة في العالم . ان العودة الى الأصول والمنابع يمكن أن تساعد على هذا التجديد الذي لا غنى عنه للاشتراكيين اليوم ، ولكن اذا مارسنا هذه العودة بالروح نفسها التي أشار اليها جوريس .. نحن نحتاج الى مراجل السلف لكي نستعيد منها الشعل الحية لا الرماد الميت » .

التأميم ومبدأ الربح

ان الاشتراكية بحاجة الى أن تجدد نفسها . الا أن هذا التجدد يثير أكثر من سؤال . وعلى سبيل المثال ، فان السؤال الذي يطرحه الفكر الاشتراكي المعاصر هو : ألا يمكن رد الاشتراكية الى سلسلة من التأميمات ؟..

والاجابة التي يقدمها « ديبرو » في دراسته « تجدد الاشتراكية » تنفي أن يكون بالامكان رد الاشتراكية الى سلسلة من التأميمات ، لأن التأميم في قلب نظام اقتصادي تخضع جميع مرافقه لمبدأ الربح لايستطيع ان يخلق ذاكرة اشتراكية في المجتمع . كما ان نزع الصفة الفردية وابدالها بالشكل العام ، وبتعبير آخر ، احلال الدولة محل الفرد ، لا يشكل اصلاحاً من نوعية اشتراكية ، لأن العامل والمستهلك كلاهما لا يشعر بأن شيئاً أساسياً قد تبدل وتطور من جراء حلول الدولة محل رب العمل . ومعنى ذلك أن التأميم يمكن أن تأخذ به الدول الرأسمالية ذاتها ،

من مثل ذلك التأميم الذي أخــذت به بريطانيا ، أو ذاك الذي تحقق في المانيا الهتلرية وسمي اشتراكية وطنية . ان التأميم يمكن ان يعتبر اجراءاً اشتراكياً في حالة ما اذا تحققت ادارة المشروع المؤمم من قبل العمال أنفسهم .

الاشتراكية والحرية :

وعلى سبيل المثال ايضاً ، فان السؤال الذي يطرحه الفكر الاشتراكي المعاصر هو : ما هي العلاقة بين الاشتراكية والحرية ؟ ... والاجابة التي يقدمها « ديبرو » هي أنه لا اشتراكية الا في ظل الحرية وعن طريقها وفي سبيلها ، وانه خيانة للاشتراكية أن تدوس حقوق الانسان وأن لا تقف في وجه الاستعمار وأن تسكت عن التعذيب وألا تطالب بمعاقبة من سببوه ، وان تناصر العرقية . ان بين الاشتراكية والحرية جدلاً حياً . الاشتراكية تقود الى الحرية ، والحرية تقود الى الاشتراكية . ومن هنا كانت اشارة الفيلسوف الاشتراكي الفرنسي « هنري لوفيفر » الى ان ضرورة المطابقة بين الحرية والعدل الاجتماعي لا تأتي من كونها تتفق وطبيعة الأشياء ، وتنسجم مع معنى التاريخ فحسب ، بل لانه لا يوجد أساس اقوى من العدل الاجتماعي واكثر متانة وصلابة يمكن ان تقيم عليه الحرية .

الاشتراكية واللامركزية :

وبين الاشتراكية واللامركزية علاقة صميمة . ان العاصمة التي تحتكر الجهد كله وتجعل من نفسها أداة تتحكم في بقية المناطق ، تخنق «عبقرية الشعب» . أن اللامركزية تحقق الديمقراطية ، ولكي تكون الاشتراكية ديمقراطية فان عليها أن تعيد النظر في تحكم العاصمة وأن تحرر « الاجزاء المنسية من الوطن وبلدياتها من النظام المركزي الذي يقضي على مفهوم الديمقراطية داخل الوطن ذاته » .

وماذا عن الفلاحين ؟

والاشتراكية المتجددة ترفض الرأي القائل بضرورة أبعاد الفلاحين عن الصراع القائم بين الاشتراكية وخصومها . ان علاقات الانتاج الرأسمالية تؤدي بشكل مستمر الى تناقص نصيب الفلاح من الدخل القومي . ومثل هذه الحقيقة سوف تقنع الفلاحين بأن اقتحام الاشتراكية لمراكز الانتاج الزراعي لا يمكن ان يلحق الضرر بعناصر هذا القطاع الانتاجي الهام .

ان على الاشتراكيين أن يسعوا باستمرار الى استبدال القناعة القائمة لدى الفلاحين والقائلة بأن الحل الصحيح لمشاكلهم يتحقق عن طريق الارتباط بأشكال الاستثمار القديمة ، بقناعة أخرى وهي ان حل مشاكلهم سوف يتحقق عن طريق ارتباطهم بعمال المدن واشتراكهم مع هؤلاء في المصير نفسه . ومثل ذلك وغيره لا يمكن أن يتحقق الا بتحقيق « اصلاح زراعي جريء يستطيع أن يخرج نظام الاستثمار الاسري من شكله القديم ، وان يعطيه شكلاً تقدمياً يتفق مع مصلحة الاسرة الريفية ومع مصلحة الاقتصاد القومي » .

الرأسمالية المعاصرة :

ان أخطر مايواجه الاشتراكية في هذا العصر ، هو أن الرأسمالية ، على عكس نبؤات مفكري القرن التاسع عشر ، تسعى الى التكيف مع الأوضاع الجديدة . وبدلاً من أن تتجه الأمور الى مزيد من الفوضى في الانتاج ، فان التنظيم وجد لنفسه مكاناً في النشاط الرأسمالي . « لقد عادت الرأسمالية بروح مستعارة » ، وكان ذلك بمثابة حقن المورفين المخدرة التي تزرق في دم المريض الذي يعاني آلاماً مبرحة . ان هذا التطور الجديد لا يعني أن الرأسمالية المعاصرة تملك القـــدرة على التصدي لكل المشاكل الناشئة عن « التحدي الذي تأتي به الفعالية الآلية الذاتية » .

أن الظروف الجديدة تفرض على الرأسمالية المعاصرة أن تنقص من استثماراتها ، الأمر الذي يؤدي الى نقص في العمالة وظهور البطالة الكثيفة . كل ذلك يقود الى البحث عن طريق ثالث غير الرأسمالية والشيوعية ، « يسمح بالمصالحة والتوفيق بين تزايد الانتاج تزايداً متصلاً ومتسارعاً ، وبين تفتح شخصية الانسان تفتحاً كاملاً » .

يقول « ديبرو » : ان هذا الطريق هو الاشتراكية . ثم يتساءل بعد ذلك على الفور : هل انتهى الصراع الطبقي في البلدان الرأسمالية ؟ .. ويجيب : « اننا لانستطيع أن نقول بأن الصراع الطبقي قد انتهى ، أو بأنه أصبح من محتويات الماضي ، إلاعندماينتصر العلم والاشتراكية معاً » . إلا أن بعض مظاهر الرأسمالية المعاصرة تثير الخوف ، كأن يكون في الرخاء عامل تهديد للاشتراكية ومثل هذا الخوف يربط قضية الاشتراكية بالازمات الكبرى التي تتعرض لها الرأسمالية ، وهذا خطأ كبير ، لأنه يعني افتقار الاشتراكية للقدرة على التكيف مع الظروف الجديدة ، وعجزها عن استيعاب التطورات الجديدة التي طرأت على طبيعة الرأسمالية المعاصرة .

ان مسؤولية الاشتراكيين الاوروبيين لاتنحصر في الاهتمام بمشاكل مجتمعاتهم فقط ، بل تتعدى ذلك لتصل الى مجتمعات البلدان المتخلفة حيث يموت الناس دون ان يعرفوا السبب ، وحيث تنخفض معدلات الاعمار بصورةمروعة . ان الدول الرأسمالية التي تدعم الانظمة البالية المهددةبالانهيار ، انما تكرس مشكلة الفقر والجوع والمرض ، كذلك فان طبيعة الانظمة الرأسمالية لايمكن أن تسمح لنفسها بأن تسهم في القضاء على بؤس البلدان المتخلفة ، حتى لو أرادت ذلك .

وحدة اليسار

ثم هنالك مشكلة وحدة اليسار في اوربا عامة ، وفي فرنسا بصورةخاصة. أن هذه الوحدة يصعب تحقيقها بسبب مواقف بعض الاحزاب الشيوعية . وعلى سبيل المثال ، فان الاشتراكيين لايتفقون مع قادة الحزب الشيوعي في نقطتين :

« أولاهما ان الاشتراكيين يفكرون بأن حرصهم على التقليدالديمقراطي يجعل أساليبهم أكثر حظاً من النجاح في تحقيق الثورة الاجتماعية ضمن شعوب انطبعت بالطابع الديمقراطي .

أما النقطة الثانية فهي ان الاشتراكيين لايعتقدون بأن الغاية مهما سمت وكانت نبيلة يمكن ان تبرر استخدام أية وسيلة لأن الوسائل قد تشوه الغاية » .

معنى ذلك أنه ينبغي البحث عن طريق آخر غير وحدة اليسار ، وهو طريق الوحدة النقابية ، لأن في ذلك تجديداً للاشتراكية . ان في الوحدة النقابية تجديداً للأسس التي تقوم عليها الاشتراكية في أوربا ، وتجديد هذه الأسس يعني تجديد الاشتراكية ذاتها .

الاشتراكية عبر البرلمان

هل يمكن أن يتم الانتقال الى الاشتراكية عن طريق البرلمان ؟ . . ان التطور المستمر الذي يطرأ على النظام البرلمـــاني يجعل من فكرة « الاشتراكية عبر البرلمان » مسألة قابلة للتحقيق في المجتمعات الاوربية . ان تاريخ النظام البرلماني مرتبط بتاريخ الوعي الشعبي ونموه . لقد كان البرلمان صورة لاستغلال البورجوازية الصاعدة على أنقاض الاقطاعية ، للمطالب الشعبية ، وكان حق الاقتراع مقصوراً على الطبقة البرجوازية . الا ان ذلك لم يستمر طويلا ، فلقد استطاعت الطبقات الشعبية الحصول على حق الاقتراع أولاً ، وحق التمثيل في المجالس النيابية بعد

ذلك . ورغم ذلك ، فقد احتفظ البرلمان بشكله القديم ، وظـل اداة في يد البورجوازية تضمن بوساطته مصالحها الاقتصادية عن طريق التشريعات التي يصدرها والتي تخدم هذه المصالح . ولقد تسبب ذلك في مزيد من الضغط فرضته القوى الشعبية واستطاعت بوساطته ان تواصل زيادة تمثيلها في المجالس النيابية . وقد أدى الوضع الجديد الى اضعاف البورجوازية لسلطة البرلمان ، ونقل هذه السلطة الى يد البيروقراطية السياسية والعسكرية ، ، تلك البيروقراطية التي تطورت بتطور النظام الرأسمالي .

من هنا ، فان النظام البرلمـاني الذي انتقل من يد البورجوازية الى يد الطبقات الشعبية ، اصبح مهدداً نتيجة للحلف الجديد المعقود بين البورجوازية من جهة ، وبين البيروقراطية السياسية والعسكرية من جهة اخرى . الا ان ذلك لا يضعف من اهمية البرلمان في التحول الاشتراكي ، بل يحافظ على تلك الاهمية لعدة اعتبارات ، اهمها ان النظـام البرلماني يسمح للقوى الشعبية بأن تضعف البيروقراطية كخطوة للاجهاز عليها ، ويسمح لها بأن تقوي تنظيماتها وخبرتها النقابية ، ويسمح لها بعد ذلك بأن تحقق الاشتراكية عبر النضال البرلماني .

رأسمالية الدولة

هل يمكن اعتبار رأسمالية الدولة مرحلة ضرورية في الطريق الى الاشتراكية ؟..

لقد تسببت الازمات المتلاحقة التي تعرضت لها الرأسمالية ، في تدخل الدولة لحماية النظام الرأسمالي من الكارثة التي كان يمكن ان تتحقق لولا ذلك التدخل . كذلك فقد لعبت الحروب دوراً اساسياً في تدخل الدولة في العلاقات الاقتصادية التي تحكم المجتمع . ان الحروب من جهة ، والازمات الاقتصادية من

جهة اخرى ، تسببت في نشوء ما يسمى برأسمالية الدولة . والفارق الوحيد بين العاملين ، الحروب والازمات الاقتصادية ، هو ان الحروب عامل خارجي كان من نتائجه ان تدخلت الدولة لتوجيه الجهود نحو كسب الحرب ، أما الازمات الاقتصادية فهي عامل داخلي ينبع من الظروف الموضوعية لتطور النظام الرأسمالي . لقد اصبح تدخل الدولة وإسهامها في الحياة الاقتصادية للمجتمعات الغربية المعاصرة ، قانوناً من قوانين الحياة الاقتصادية الغربيـــة . وفي مجتمعات اوربا الشرقية الاشتراكية ، تفرض الدولة تدخلها ، انما لاسباب مختلفة . اما في مجتمعات الدولة النامية ، فان تحكم الدولة امر لا مفر منه نظراً لضرورات التنمية السريعة التي تتطلب مركزية قوية ، بالاضافة الى ان هذا التدخل يسهم في حماية الدولة من الخطر الخارجي ، وفي توطيد استقلالها الاقتصادي .

ان رأسمالية الدولة خطوة الى الامام . انها مرحـــلة اكثر تقدماً من الرأسمالية ، ولكنها لا تصل الى مرحلة الاشتراكية . ومع ذلك فان بالامكان تطوير رأسمالية الدولة ، والانتقال بها الى مرحلة الاشتراكية . ومثل هذا الامكان يصبح أمراً واقعاً في حالة ما اذا كانت القوى الشعبية على درجة كافية من القوة بحيث تستطيع الاضطلاع بهذه المهمة . ان الانتقال من رأسمالية الدولة الى الاشتراكية لا يمكن ان يتحقق « إلا بواسطة هذه القوى ، وعن طريق الديمقراطية ، وازالة الاجهـــزة الادارية البيروقراطية والديكتاتورية الكثيفة التي تطبع أنظمة رأسمالية الدولة » .

مشاكل العمل الثوري :

مشكلة العمل الثوري تتلخص في ازمة الاختيار بين الاخلاص للحقيقة وبين القدرة على التأثير والانجاز . انها ازمة التطابق بين الغاية والوسيلة .

يقول « برنارشار بوتو » في دراسته عن الثورة والاصلاح : « للخروج من هذا الحرج ، يحاول المفكرون الاصلاحيون ان يفرقوا بين الحكومة وما هي ملازمة به دائماً من تآلف مع الامـــور الواقعية ، وبين القوى الثورية التي تدفع الحكومة في طريق القيام باعمال تنسجم مع الخط الثوري .. الا ان نقطة الضعف في هذه الفكرة هي كونها تطرح المسألة خارج نطاق التاريخ » .

ان اخطر مايمكن ان يتعرض له الثوري هو ان يتحول الى رجل إصلاح، ان يتحول من رجل يشعر بعدم التآلف والانسجام مع المجتمع الذي يعيش فيه ، الى رجل يقبل الواقع كما هو ، ويجد ان بالامكان التلاؤم مع هذا الواقع .

ان الثورية ليست مغامرة او تطرفاً . المغامرون وحدهم هم الذين يفكرون بالاستيلاء على السلطة ، أما الثوريون فانهم يسعون الى خلق « وسائل للعمل والنضال » ، الى اكتشاف الواقع على حقيقته من اجل التغلب على كل ما في هذا الواقع من مقومات . من هنا ، فان الثوري رجل واقعي . انه يكتشف القوانين من اجل تطويعها وليس من اجل الخضوع لسطوتها . والثوري لا يمكن ان يكون تطهرياً ترهبه فكرة التلوث ، ولا يمكن ان يكون صوفياً يبحث عن « اسطورة بارعة » تستر الواقع عن « أعين الوعي » . والثوري رجل علم وحياد وتجرد ، لا يلتفت كثيراً الى الوراء ، ولا يلجأ الى التاريخ او الفلســفة . انه يسعى باستمرار الى تطويع الواقع لمشيئته من اجل تجاوزه . انه يعمل « لتحقيق ما يجب ان يكون » ويربط بين امكانية العمل وغايته .

ما هي الثورية :

ثمة سؤال : ولكن ... ما هي الثورية ؟ ..

الثورية عقليـــة شاملة ، ومنطق يغوص في اعماق الواقع ولا يكتفي بالظاهر منه . انها عقلية تبحث عن الحلول الجذرية وتكتشف جوهر الاشـــياء وحقيقتها ، وترفض المنطق الاصلاحي . وهي من ثم عقلية ايجابيـــة ، اي انها لا تكتفي بموقف رفض النموذج القديم ، وانما تحاول ان تصنع النموذج الجديد . انها لا تهدم الواقع القائم إلا لكي تستعيض عنه بواقع أمثل . كذلك فهي اسلوب في العمل يتخذ مدارين ، مداراً شخصياً يحقق فيه الثوري ولاءه المثل التي يناضل من اجل ان تســـود ، ومداراً جماعياً يتحمل فيه الثوري جزءاً من المسؤوليات الملقاة على عاتقه باعتباره جزءاً من « متحد قومي » ، أو منظمة سياســـية ، أو نقابة مهنية » .

النخبة والعنف والزمن :

والثورية وعي لا يجد طريقه الا الى عقول نخبة من مجموع الامة . من هنا كانت الثورية صفة طليعية . والحركة الثورية تحتاج الى ايديولوجية ثورية وانسان ثوري . وقد يكون العنف احياناً من ضرورات العمل الثوري ، وقد لا يكون ، بحسب الملابسات الموضوعية التي تكتنف العمل الثوري . ومع ان الثورة تختصر الزمن ، فان ذلك ليس الا احد جوانب العمل الثوري ، بمعنى ان تحريك الزمن واغناءه ، من الصفات الملازمة للعمل الثوري . « ان مفهوم الثورية للزمن يرتكز على دعامتين : تحريك الزمن والانتاج فيه طبقاً لنموذج حضاري معين ، واختصار الزمن في مضمار التقدم الانساني » .

الحتمية وارادة الانسان :

ان العمل الثوري ليس خضوعاً لمنطق يفترض وجود آلية في التاريخ

تحركه . ان الايمان بحتمية الثورة شيء ، والعمل من اجل هذه الثورة شيء آخر تماماً . ليست هناك حتمية تاريخية منفصلة عن الارادة الانسانية . ان لهذه الارادة دوراً جوهرياً في صنع التطور التاريخي للمجتمعات الانسانية . من هنا ، فان الثوري يتصدى لمنطق التطور ، ولا يستسلم لوهم الحتمية التاريخية الخارجة عن ارادة الانسان وقدرته على اقتحام مجرى التاريخ .

عدنان بن ذريل

مضمون الاسطورة في الفكر العربي

لا مراء في أن اصطناع مناهج العلم الحديث ، النفسية والاجتماعية ، من أجل انصاف « الفكر العربي » ، وأيضاً الثقافة العربية على العموم ، سنة رشيدة يمكن أن تؤتي أينع الثمرات في جلاء مظاهر التجربة العربية .. فكيف تكون الحال ، اذا شفعت هذه المناهج بمفاهيم ثورية علمية تدعو الى العدالة الاجتماعية ، والتبصر بالواقع وتحقيق الذات كافة ..

والمحاولات في استكشاف « الفكر العربي » ، أو أيضاً تقييمه، تتوالى في اتجاهات

مختلفة تاريخية ودينية ، وعلمية مع مالك بن نبي ، وزكي الأرسوزي ، وساطع الحصري ، وزكي نجيب محمود ، وصدقي اسماعيل ، ومطاع صفدي وغيرهم ، ناهيك بالمحاولات التي يرصدها كاتب هذه السطور في المجال الحضاري العام .. والدكتور « خليل أحمد خليل » دارس اجتماعي ثوري ، مخلص لعروبته ، ومخلص لمنهجيته العلمية الاجتماعية ، خصّ الجانب الاسطوري من الفكر العربي ، بدراسته هذه ، ـ مضمون الاسطورة في الفكر العربي ـ ، وراح يكتشف عناصره ، وحيثياته ، لينطلق منه الى التحول التاريخي للمجتمع العربي المعاصر ..

في حين أنه من المعروف حضارياً وواقعياً ، ليس من الضروري مثل هذا التخصيص (١) ، ولا سيما أن الغاية الثورية الأصلاحية انما هي مقوم آنيّ لعيشه النفوس اليوم ، تحت وطأة المؤامرات الحالية ، ومظاهر الفساد التي اكتسحت وتكتسح المجتمع العربي الحالي ، وهو مجتمع متخلف لا يزال يئن بما يثقل كاهله من جرائم الاستعمار ، أو من العادات والتقاليد المتنوعة فيه .. وان وراء هذا المقوّم الآني مقومات أوسع مدى ، هي « الأصالة » العربية نفسها ، والتي كانت ولا تزال أصالة علمية واقعية في جوهرها ، وفريدة خالدة ..

لقد ارتأى الدكتور « خليل أحمد خليل » أن « العلم » وحده ، هو السبيل القويمة الى النهوض ، والى بناء الغد المأمول ، فاصطنع النظرة البنيانية الاجتماعية لتحليل الجانب الاسطوري في الفكر العربي ، ولكنه غاب عنه جدل الحياة العربية نفسها ، وجدل الأصالة العربية في تاريخيتها ، وحضارتها ، وعلى الخصوص مكانيتها وزمانيتها . وأن غيساب « المقارنات » التاريخية ، والحضارية عن منظورات هذه الدراسة الاستكشافية الثورية ، يعتبر بالفعل الثغرة الظاهرة التي تسربت منها أوهام المؤلف ، والذي بدا مجرد داعية للعلم ، والثورية العلمية ، في حين أن جدلية الواقع العربي منذ ذلك الفجر الخالد الذي أطل على العالم مع الرسول العربي ورسالته الخالدة ، هي بالأحرى فجر تاريخي وتحويلي خالد في عمر المجتمع العربي ، وتاريخه الحضاري ، والفكري جميعاً ..

---

(١) والجدلية التاريخية نفسها لاتبيح القفز من التقرير العلمي الى المعيار الثوري ، كما سنرى .

لقد بدأ المؤلف دراسته بالتعريف بالأسطورة(١) ، فقرر : — أنها حكاية عن كائنات تتجاوز تصورات العقل الموضوعي — وأنها بالتالي تتميز عن الخرافة بما لها من أثر في المعتقدات ، وأنها أذن ، — موضوع اعتقاد — (ص ٨) ثم أنه من أجل أن يصل الى غايته في الكتاب ، وهي أسهامه في الثقافة العلمية للثورة ، يقرر أن دراسته لا تزعم تحرير المجتمعات العربية من أسطوريتها ، ولكن الثورة في حسمها « التناقض » الرئيسي بين الفكر الاسطوري،على حد تعبيره ، وبين الفكر العلمي والثوري هي وحدها التي يمكنها تحقيق مثل هذا الاسهام عبر الصراع الدامي والطويل ، مع القوي المعادية لتحرير الشعب ، وتقدمه (ص ٩) ..

ولذلك بعد ان يستعرض المؤلف المدارس المختلفة في علم الأساطير ، مثل مدرسة « كارل يونغ » التي ركزت على صراعات اللاوعي البشري ، ومدرسة «جورج-سوريل» التي درست مكونات الوعي الجماهيري غير المرتكزة الى واقع موضوعي، ومدرسة(سيجموند فرويد) التي ترى في الاساطير صوراً أوديبية ، كرمز الطوطم للأب . . يؤثر مدرسة «كلودلفي ستروس» التي تعتبر الأسطورة انعكاساً للبنية الاجتماعية، وأيضاً العلاقات الاجتماعية « ص ١٠ — ١٢» . ومن هنا بدت دراسته اجتماعية اكثر من اللازم(٢)، ترد الرصيد الأسطوري العربي الى البنى الاجتماعية في المجتمع العربي ، وهي بنى متطورة ومختلفة طبيعية ، واقتصادية ، وخاصة تجارية ، وذلك اليوم غير كاف ، وغير منصف ..

نعم ان مجرد الاعتماد على المناهج الاجتماعية لابراز حيثيات المضمون الأسطوري في الفكر العربي لا يكفي اليوم،وخير منه أخذ المجادلة التاريخية ، والحضارية بالاعتبار.. وذلك بدليل أن « الاحتفاءات » الطقوسية ، ومنها الاحتفاءات الطوطمية ، مثل

(١) مضمون الأسطورة في الفكر العربي ، تأليف الدكتور خليل أحمد خليل ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٣ ،

(٢) الملاحظ كذلــك أن المؤلف « خليل أحمد خليل » لا ينوه بين مراجعه العديدة ، بكتاب الدكتور « محمد عبد المعيد خان » المندي : — الأساطير العربية قبل الاسلام — مصر ١٩٣٧ ، والذي اعتمد بالأحرى المنهج التطوري في دراسة الأسطورة، وهو يرتقي بالتفسير من النظرة الحيوية للأشياء ، فالطوطمية ، فالفيتيشية ، فتعدد الآلهة فالتوحيد .. انظر أيضاً ماكس موللر ، دراسـات في تاريخ الأديان ، باريز ١٨٧٢ ، وليفي سبنسر ، المدخل لعلم الأساطير ، لندن ١٩٢١ .

« الثقافة الالف ليلية » التي نوّه بها المؤلف ليست رصيداً عربياً ، احتفائياً أو ثقافياً خالصاً ، وانما هو رصيد تاريخي وحضاري عام . .

ان الدكتور « خليل أحمد خليل » عندما فنّد مضمون الاسطورة في الفكر العربي وجد انه يشمل ـ التكوين القدسي ـ ، أي مشكلة الخلق والوجود ، ثم ـ مقدسات الأرض العربية ـ ، أي مشكلة واقع البيئة العربية ، ثم ـ الانسان والترفع بالنبوة ـ ، أي مشكلة الرياضة ازاء المطلق ، ثم ـ الاسطورة وصوفية الأولياء ، وهي مشكلة متفرعة عن السابق وتظهر التلاقي الجدلي لانهائي واللانهائي في الوجود . . « ص ٤٨ ـ ١١٧ » فاكتفى باستعراضها استعراضاً . .

وان ما يقوله المؤلف اذن عن الالوهة ، والملائكة ، واللوح المحفوظ ، والقدرية ، والاختيار « نفس الصفحات » ، ورده الى البنى الاجتماعية ، يظل بالفعل بدون تفسير .. لانه ليس معطى واقعياً خالصاً ، بل هو مظهر من الرصيد العام للمجادلة التاريخية والحضارية العربية (١) ، في احتكاكها بالحضارات الأخرى ، ومعطياتها المختلفة ، مثل التعالي ، والخلق بالنطق ، اللوجوس ، أو مثل الأرواح الخيرة ،والأرواح الشريرة ، ثم الكهانة وتحديد المصير ، وعلى الخصوص الرتب الأوزيريسية التي نجدها في كافة شرقنا العربي القديم في عبادة مردوك البابلي ،أو عليان السوري وترجع الى تحقيق النطق (٢) . .

ان حيثيات الوجود في « الفكر العربي » هي ، في نظرنا ، حيثيات النطق/صيغة « كن فيكون » ذات التعالي الظاهر ، أي ما يسميه المؤلف ، « الخلق بالكلام » :

---

(١) يقول الدكتور محمد عبد المعيد خان : ـ فهو « أي العربي الجاهلي » مع كونه وثنياً كان يعيش عيشة دينية مثل اليهود والنصارى والصابئة ، فهو يحج ويعتمر بدل أن يقيم الأسواق، مثل عكاظ،وذي المجاز، ويعبد الأوثان كعبادةالصابئة للكواكب، لكن غرائزه الطبيعية كانت تسوقه الى دين الآباء القدماء ، فهو يعبد الحجر والشجر..الخ ـ ص ٢٠ من كتاب « الأساطير العربية قبل الاسلام » .

(٢) تجد في كتاب « برهات تاريخية » لعدنان بن ذريل تفصيل القول في مفهوم النطق ، وتحقيقه ، والأشكال التي اتخذها منذ البرهة الأبيدوسية ، فالبرهة المردوكية ، فالبرهة الأبولونية ، ثم القفزات التي حققها عند اصطدامه بثقافة اليونان ، ومنطقهم .

واسترزق الله مما في خزائنه . فان رزقك بين الكاف والنون . .

« عن قصص الانبياء ، المصدر المذكور ص ٥٠ » أو « الخلق بالنظر » :

— السماوات والارض خلقهـا الله جوهرة ، ثم نظر اليها فصارت ماء ، ثم نظر الى الماء فغلا . . — « المرجع نفسه ، المصدر المذكور ص ٥١ » . .

وكذلك يسلسل بواسطتها القلم واللوح ، ثم قدر المطر والأرض ، ثم قدامة الموجودات النباتية والحيوانية ، ويظهر تداخل فعل الخلق فيها . .

ولكن هل هـذه الحيثيات هي وحدها مجتلى « الفكر العربي » في قديمه ، اي في الجاهلية ، ثم في تطور مراحله ، وخاصة مع المفكرين والفلاسفة العرب والمسلمين، والذين طوروا معطيات الثقافة العربية والاسلامية بما ربحتـه جهودهم الجلية من الثقافتين الكبيرتين وقتها ، اليونانية ؟والفارسية ؟!.

أبداً ! . ان المؤلف يتناسى جميع التطورات الـتي لحقت على الفكر العربي والاسلامي ، والذي صار مع الكندي ، والفارابي ، وابن سينا الى التمنطق ، وأيضـاً الى الاشراق ، واللذين يعتمدان ثقـافة اليونان الى حد كبير ، وأيضاً يجادلانها . . لقد تناسى المؤلف ذلك والصرف الى المظاهر الطبيعية ، والاجتماعية ، كما تجلت في قصص ألف ليلة وليلة ، والتي هي نفسها ذات مصدر أجنبي صريح عمل عليه القصاصون . .

ومثلما أهمل المؤلف « الدرس المقارن » في تبين حقيقة صيغة « كن فيكون » ومظاهرها ، فقد أهمل الدرس المقارن في تبيّن حقيقة الحيثيات في العادات والتقاليد التي عكستها ألف ليلة وليلة . . ولسنا نغفر له هذا الاهمال على الرغم من كونه ظل مـع منهجيته الاجتماعية التحليلية ، وعلى الرغم من حرصه على اظهار الحيثيات الطبيعية المتعلقة بالكواكب ، والنجوم ، ونماذج الانسان الساحر، والكاهن، والعراف، والتاجر . .
ومن هنا فان كتاباته عن المرأة ، والجنس ، أو أيضاً الاقتصاد،والتجارة ، ظلت بدون مرتكزات توضيحية مقارنة . . يقول المؤلف :

— ان الف ليلة وليلة المشهورة بحكاية « الغرائب والأمثال » لا تروي في رأينـا سوى حكاية جوهرية واحدة ، حكاية القمع في العصور العربية الوسطى ، ذلك القمـع المتجسد في عبودية المرأة في ظل سيطرة العلاقات التجارية على المجتمع المكون بدوره من طبقة الملوك والوزراء والأمراء والحكماء والكتـاب الموظفين والتجار . وفي قلب هذه الطبقة السياسية برز نموذج التاجر . — « ص ١١٩ » .

ثم يصل الى أن « الجنس » في المجتمع العربي — علاقة صراعية يكبتها القمع — كما هو يقول ص ١٢٠ ، وان مشاهد الحريم من الداخل أو الخارج، واحتفالات حياة المرأة كلهـا مغلقة بالأساطير العربية « ص ١٣١ — ١٣٤ » .. في حين الأصح أن نقول هي مغلقة بالرصيد التاريخي والحضاري للمجتمع العربي الاسلامي وقتها ، والذي كان مجتمعاً مزيجاً صريحاً ، وان هذه العلاقات ليست مما تتم به الاسطورية العربية وحدها وقتها .

ونادراً بالفعل ما نجد التنويه بأدلة مقارنة ، مثل « السير على المـاء » : — اتفق أنني توجهت الى البحر ليلة ومشيت على الماء — « ص ١٣٤ » أو « السندباد التاجر » : — وتحته حصان كأنه عنتر في حومة الميدان — « ص ١٣٥ » أو « الملـك شهرمان » المسحوبة قصته على قصة سيدنا زكريا في القرآن ، نفس الصفحة ، أو عـلاء الدين ابي الشامات المسحوبة قصته على قصة سيدنا يوسف ، وغير ذلـك ، من مثل ابراز النزعة الصوفية :

— لقد زهدتيني يا « شهرزاد » في ملكي ، وندمتني على مـا فرط مني في قتـل النساء والبنات — « ص ١٣٥ » .. مما هو صريح العجمة ، ودخيـل على العادات والتقاليد العربية نفسها .

وكذلـك الأمر في قول المؤلف — ان « التجارة » هي مرتكز مـادي للقمع الاجتماعي ، والاستلاب الجنسي — « ص ١٣٦ » فذلـك مجرد لغو ، ويحتاج الى دراسة اكثر دقة واكثر نزاهة ، ومن هنا تهافتت تحليلات المؤلف عن النماذج التي صار يتسقطها للتاجر الحكيم « ص ١٣٦ » ، والتاجر الممسوخ « ص ١٣٧ » ، والمدينة المسحورة بالزنى « ص ١٣٨ » ، والتاجر العنصري « ص ١٤٠ » والتاجر الولهان « ص ١٤١ » والتاجر النخاس « ص ١٤١ » ، والتاجر المتفقه « ص ١٤٥ » ، والتاجر السندباد « ص ١٤٦ » وغيرها من نماذج متـكافئة ..

يقول المؤلف : — الاسطورة صنعها العقل ومارسها الناس . والعلم صنعه نفس العقل ومارسه الناس . وقد يتعايش العلم والاسطورة ولكن في مجتمعنا العربي المعاصـر « العلم » يتبـع خطى الاسطورة ويخدم الحكم الاعتقادي والغيبي . وهذا يعني تحويل العلم عربياً الى نوع من المطلق المثالي ، المستسلم للسلطان برغم طبيعته المتناقضة للاسطورة . وما تبعية المثقفين والعلماء العرب بالمبايعة والهجرة والنزوح سوى دليـل بسيط وواضـح على مدى خضوع فكرنا العلمي لفكرهم الاسطوري . — « ص ١٥٦ » .

وهذا غير صحيح ، بدليل اخفاق المنهجية الاجتماعية نفسها عن أن تلم بوقائع الاسطورية العربية وتطوراتها ، والتي يتسقطها الدارسون ، ونتسقطها من وجهات نظر مختلفة تاريخية وحضارية وعلميـة وثورية مقارنة ، وليس فقط من وجهة نظر العلم الاجتماعي الذي يعجز عن تقديم تبرير للتطور ، أو تقديم باعث للتحويل ..

يقول المؤلف : ــ فكران يريدان التغيير ، الاسطوري بالعودة الى السلف الصالح ، والثوري بصراع مرير مع الحاضر ، بما في ذلك بنيته الاسطورية ، جاعلا من الناس ، لا من الآلهة ، مقياساً لتبصر مستقبلهم ، وأداة وحيدة لصنعه ، فكران نقيضان يعيشان معاً في المجتمع العربي ويشطران الانسان العربي انسانين في الآن واحد : انسان تقليدي وانسان ثوري . ــ « ص ١٦٣ » .

ولكن ، أليس هذا التمزق الذي يعيشه الانسان العربي اليوم ، دليل ثراء لاينضب وعطاء سمح لا يكف وجيبه ، يحفز بالأفراد والجماعات الى أن يتبصروا « واقعهم » ، وامكاناتهم ، ويتبصروا على الخصوص « حاضرهم » بكل أثقاله الواقعية ، حتى اذا ماطمحوا الى المستقبل ، طمحوا اليه واقعيين ، مجادلين يحققون ماتزخر به نفوسهم من آمال ؟.. ان المجادلة هي الحياة ، والأمل نبراسها ، والوفاء للاصالة هو الأصالة نفسها ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ..

بلال الجيوسي

من الجرذ إلى الانسان

نازي جديد ، نيتشوي ينادي بالانسان الاعلى ، خطورة اجتماعية ورؤية ضيقة. هكذا يرى بعض علماء النفس ب. ف. سكنر في كتابه الجديد: «وراء الحرية والكرامة»(١).

ويكتب آرثر كومستلر : « السلوكية تفاهة هائلة تحاول رد علم النفس الى العصور المظلمة » . ويؤكد بيتر جاي « السذاجة الكامنة والافلاس العقلي ، والقسوة نصف المتعمدة في السلوكية » . ويشير ريموند ماك كول في مجلة علم النفس الاكلينكي الى أن « أبرز صفات سكنر وأكثرها تأثيراً ، عبقريته المجددة في مجال تكنولوجيا السلوك ، ثقافته ، جلده ، ثقته بنفسه ، ومزجه الذي يندر مثيله بين الابداع العلمي وسحر

(١) Byond freedom and dignity , A Bentam/ Vintage Book, New York. 1971 ,

الشخصية . هذه الصفات تشابه القوة اللامحدودة للشيطان في تدمير النفوس الخيرة كما كان يراه أهل القرون الوسطى » (١) .

هذا بعض ما استدعاه سكنر من نقد قبل ظهور كتابه الجديد « وراء الحرية والكرامة » وبعده . فماذا قال سكنر حتى عرض نفسه لهذه الهجمات وغيرها ؟

الهدف الاقصى لـ ب.ف. سكنر كما يصفه في كتابه هو تمكين الانسان من مواجهة مشكلاته الكبرى التي تهدده بالفناء : تكاثر السكان ، الرعب النووي ، الحروب . . الخ . ويتحقق هذا الهدف – فيما يرى المؤلف – بتصميم ثقافة الانسان وضبطها ، تماماً كما نضبط تجربة في مختبر لعلم النفس التجريبي . ويمكن تصميم الثقافة بتطوير علم للسلوك يشابه في دقته وتكنولوجيته العلوم الطبيعية كالفيزياء والبيولوجيا . والخطوة الاولى نحو تطوير هذا العلم هي اكتشاف الأسباب التي أخرت ظهوره وتقدمه حتى الآن .

يتساءل سكنر : لماذا تخلفت العلوم الانسانية – أو كما يفضل أن يسميها : العلوم السلوكية « دلالة على أنها علم ما يقبل الملاحظة » – ، عن العلوم الطبيعية كالفيزياء مثلا ؟ ان أول ما يخطر على البال في الاجابة عن هذا السؤال هو أن المجال الانساني صعب ومعقد . يسلم سكنر بهذه الصعوبة ويقول : « ونحن نميل الى اعتباره صعباً لاننا غير قادرين على التعامل معه . ولكن هل كان ارسال انسان الى القمر أكثر سهولة من تحسين التعليم في مدارسنا الثانوية أو من تمكين كل انسان من العمل بشكل منتج ؟ » . أم أن سبب التخلف هو توافر أدوات ومناهج للعلوم الطبيعية لم تتوافر بعد للعلوم الانسانية ؟ « ولكن هذا ليس تفسيراً للمشكلة بقدر ما هو جزء منها » . وعلى أية حال فقد استخدم علماء السلوك أدوات العلوم احصاءاً وقياساً ومقارنة ، ولكن « شيئاً أساسياً في الممارسة العلمية ما زال مفقوداً في كل المناقشات الجارية حول السلوك الانساني ، شيئاً يتعلق بمعالجتنا لعلل السلوك » .

يلقي سكنر نظرة سريعة على تطور نظرة الانسان إلى علل الظواهر الطبيعية فيرى أن « تجربة الانسان الأولى مع الأسباب أتت ، على الأغلب، من سلوكه . فالأشياء تتحرك لأنه يحركها . فاذا تحركت أشياء أخرى فالسبب هو أن شخصاً آخر قد حركها

(١) Joutnal of clinical Psychology, vermont,Brandon April 1912 , vol. 28 No. 3 .

وإذا لم يتمكن من رؤية هذا المحرك فلأنه كان خفياً . وقد كانت الآلهة اليونانية ، على هذا النحو ، عللاً للظواهر المادية فقد كانت هذه الآلهة خارج الأشياء التي تحركها ، ولكن كان في وسعها أن تدخلها وتتقمصها » . وعلى الرغم من أن الفيزياء أقلعت عن تشخيص الأشياء بهذه الطريقة « فان السلوك الانساني مازال يعزى بشكل عام الى عوامل كامنة ومحركة . فسلوك الحدث الجانح مثلاً يفسر بشخصيته المضطربة وليس هناك من معنى لهذا الكلام إلا إذا كانت الشخصية متميزة - على نحو ما - عن الجسد الذي زج نفسه في المتاعب ». وكان أرسطو قديماً يعزو تسارع الجسم الساقط الى ابتهاجه لقرب وصوله إلى موطنه الاصلي . ونحن الآن قد نضحك على مثل هذه النظرة ، ولكننا لا نجد غرابة في القول ان الشخص الذي يحمل أنباء يسير بسرعة لانه يشعر بالفرح . وفي القرون الوسطى أخذت الفيزياء تعزو سلوك الاشياء الى الماهيات والطبائع . فالكيماوي في هـذه الفترة مثلاً كان يعتقد أن بعض خصائص جوهر ما تعود الى ماهية زئبقية . وقد نبذ نيوتن فيما بعد مثل هذا التفسير ، « ولكن السلوك الانساني مازال يعزى إلى الطبيعة البشرية، وهناك الآن علم نفس للفروق الفردية يصنف الناس فيه ويقارنون بمصطلحات معالم الشخصية والقدرات والاستعدادات » .

علم السلوك - اذن - ما زال يرزح تحت وطأة مفاهيم قديمة افلحت الفيزياء والبيولوجيا في الافلات منها لانها غيرتا نظرتها الى علل الاشياء . ولكن علماء السلوك ما زالوا يتحدثون عن علل السلوك بلغة النفس الداخلية . فكل حادثة سلوكية نعزوها الى كائن فكري نتصور انه يكمن داخل اجسامنا ، كائن يفكر ويختار ويقرر ، كائن ينوي ويقصد صفات لا يستطيع الجسم وحده القيام بها . هذا الكائن الذي يدعوه سكنر « الانسان الداخلي » هو ما يريد هدمه ، يقول « ولأنه ليس في مقدورنا ان نفهم كيف يتصرف شخص ما ، ولماذا يفعل ما يفعله فاننا نعزو سلوكه الى شخص لا نراه . وعلى الرغم من أننا لا نستطيع تفسير سلوك هذا الأخير فاننا لا نميل الى طرح أسئلة كثيرة عنه » . ويضرب سكنر مثلاً يوضح به هـذه النقطة . فعندما نسأل شخصاً ما : لماذا ذهبت الى المسرح ؟ فانه قد يجيب : لأني شعرت بميل للذهاب . ونحن نميل الى أن نعتبر هـذه الاجابة تفسيراً لسلوكه على الرغم من انا لو عرفنا خبراته السابقة فيما يتعلق بالمسرح لعرفنا سبب ذهابه الحقيقي . ولكننا نكتفي باجابته . « فمهمة الانسان الداخلي هي تزويدنا بتفسير لا يُفسَّر بدوره ، بل يتوقف عنده كل تفسير ».

يهاجم سكنر هذا التصور ، أي انه -بعبارة أعم- يرفض التحدث عن أي بعد نفسي او عقلي متميز عن الجسد ، فهو يلغي كل المفردات العقلية والنفسية التي تحاول أن تفسر سلوكنا بها عادة . ولكن ماذا يبقى للانسان حين نجرده من ابعاده العقلية والنفسية؟ يبقى الانسان من حيث هو نظام مادي . واين نفتش عن اسباب سلوك هذا النظام ؟

يجيب سكنر : « إن مهمة التحليل العلمي هي تفسير كيفية ارتباط سلوك الشخص من حيث هو نظام مادي — بالشروط التي تطور في ظلها النوع الانساني ، والشروط التي يعيش في ظلها الفرد » . هذا هو حجر الاساس في نظرية سكنر ، فهو يحاول القضاء على ثنائية النفس والبدن بالاستغناء عن مفهوم النفس والاقتصار على الانسان من حيث هو عضوية مادية . ويفسر سلوك هذه العضوية بارجاعه الى اسباب تتعلق بتطور النوع والى الشروط التي يعيش الفرد في ظلها سواء كانت هذه الشروط طبيعية او اجتماعية .

دور البيئة :

قد يقول قائل : وما الجديد في كل هذا ؟ لقد ظهر منذ زمن طويل مفكرون ماديون يردون النفس الى المادة ، ويرجعون سلوك الانسان الى البيئة وشــروطها . فهل أتى سكنر ليقول افكاراً قديمة بمفردات النظرية السلوكية ؟ يقول المؤلف : « لقد عرف الانسان منذ زمن طويل ان سلوك الانسان يدين بشيء ما للحوادث السابقة ، وان البيئة يجب ان تكون موضع نقد اكثر من الانسان نفسه . وكما لاحظ كران برنتون فان « تحويل الاشياء وليس تغيير الناس فقط » كان جزءاً هاماً من الثــورات الانكليزية والفرنسية والروسية . ولقد كان روبرت أوين ، حسبما يقول تريفليان ، اول من ادرك ان البيئة تصنع الشخصية ، وان البيئة في متناول الضبط الانســاني . وكتب جورج سيلدس ان الانسان هو ابن الظروف » . يسلم سكنر بكل هذا ولكنه لا يراه كافياً لبدء ثورة علمية في فهم السلوك ذلك « اننا بحاجة الى قدر كبير من الفهم حتى تصبــح حقيقة تأثير البيئة نافعة » .

سكنر — اذن — يأخذ على نظريات البيئة السابقة انهــا لم تكتشف كيف تعمل البيئة . ويتقدم ليعطينا مفتاح هــذا السر محاولاً توضيحه بمثال يستعيره من نظرية التطور . فقد كان علماء البيولوجيا قبل القرن التاسع عشر ينظرون الى البيئة على انها مستقر جامد تولد فيه انواع مختلفة من العضويات ، تتكاثر وتموت . ولم يفطن احد إلى

أن البيئة كانت مسؤولة عن اختلاف الأنواع هذا . والسبب هو أن البيئة كانت تعمــل بطريقة غير ظاهرة . فهي لاتجبذ ولا تنبذ ولكنها تنتخب Selects . وقد ظلت هذه العملية في الانتخاب الطبيعي مجهولة على الرغم من أهميتها القصوى ، ولكنها عندما اكتشفت أصبحت — بطبيعة الحال — مفتاح نظرية التطور . وبالمثل ، فان تأثير البيئة على السلوك بقي غامضاً لفترة طويلة . ذلك أننا نستطيع أن نرى مايفعل العضويات في العالم حولها ، فهي تأخذ منه ماتحتاجه وتتقي مخاطره . ولكن رؤية مايفعــل العالم للعضويات أصعب بكثير . فالبيئة فيما يرى سكنر لاتدفع أو تحث وحسب ، ولكنها تنتخب ، ودورهـا مشابه لذلك في الانتخاب الطبيعي .

هذا هو مايسميه سكنر التحليل العلمي للسلوك . وكتابه الذي نعرض له هنـا هو معالجة لنتائج هذا التحليل على الصعيد الثقافي والأخلاقي . ذلك أنه اذا كانت البيئة ومعطيات الوراثة تستنفد تفسير السلوك الانساني ، بمعنى أن كل حركة من حركات الانسان يمكن أن ترد الى البيئة الوراثية أو الى البيئة الراهنة ، فماذا يحدث لارادته الحرة ؟ لكرامته؟ للقيم؟ ماذا يحدث لبناء المجتمع ككل ؟

الانسان في بعض النظريات التقليدية حر ، أي أنه مستقل بمعنى أن سلوكه لاعلة له ، وهو لذلك مسؤول عما يفعله . ولكن سكنر يرى أن هذا الرأي يجب أن يراجع عندما يكشف التحليل العلمي علاقات سببية واضحة بين السلوك والبيئة . والاستثناء الذي كان الانسان يتمتع به من الحتمية الكاملة سينتهي مــع تقــدم التحليل العلمي . ان مثل هذا التحليل لايتحدى الحرية بمفهومها التقليدي وحسب ، ولكنه يتحدى الكرامة والجدارة اللذين يتمتع بهما الانسان في نظر المفكرين التقليديين . فالانسان ، عادة ، يقدر ويكون موضع اعجاب بانجازاته . والتحليل العلمي ينقل التقدير كما ينقل اللوم الى البيئة .

الحرية :

يستطيع المرء أن يتنبأ بوجهة نظر سكنر في المشكلة الفلسفية المعروفة : حرية الارادة الانسانية . فما دام الانسان مشروطاً بالبيئة ، وما دامت هذه البيئة تقف وراء تفاصيل سلوكه كلها ، فليس هناك هامش للحرية ، ولكن سكنر لايناقش مشكلة الحرية من هذه الزاوية الفلسفية . وانما يناقش هذه المسألة على مستواها العادي واليومي . وحتى على هذا المستوى فانه لايبحث إلا نقطة واحدة . يقول جون ستيوارت ميل : الحرية

هي أن يفعل الانسان مايرغب فيه . فالرغبة ، وفقاً لهذا التعريف ، هي معيار الحرية . وسكنر يعترض على هذا المعيار على أساس أنه ليس كافياً لتمييز حالات الحرية من حالات الضبط . « فالاحساس بالحرية يصبح دليلاً لايعتمد عليه عندما يتبع الذين يقومون بالضبط وسائل غير منفرة كي يتجنبوا ردود الفعل المضادة من الذين يمارس عليهم الضبط » . بعبارة اخرى اذا كانت وسيلة الضبط تعتمد الترغيب لا الترهيب فان المرء قد لايحس أن حريته قد ضبطت . ويصبح الامر خطراً عندما تكون النتائج البعيدة للفعل — الذي يقوم به المرء بدافع الترغيب — نتائج سيئة . يقول الاخوان غونكور في معرض تقييمها للأدب الخلاعي : « تروض الشعوب أحياناً كما تروض الاسود : بالعادة السرية .

يجب على من يهتم بالدفاع عن الحرية ، إذن ، أن لاينتبه الى حالة الانسان الداخلية أثناء ممارسته للفعل بل الى نتائج سلوكه القريبة والبعيدة . بكلمات أخرى : الترهيب ضبط ، والترغيب ضبط أيضاً . والذي يضمن حرية الانسان هو التأكد من نتائج الفعل الذي يقوم به . فاذا لم تكن هذه النتائج سيئة فهو حر . أما أن نزين للناس أمراً ما ليفعلوه ثم يتبين أن ما زيناه لهم كانت له آثار سيئة عليهم ، فهذه ليست حرية . لايريد سكنر نفي الضبط فتراه يقول : « قد يظن البعض أنه ما دامت الحرية خيراً فالضبط شر » . ولكن المطلوب ليس نفي كل أنواع الضبط . بل الضبط الذي تكون له آثار سيئة عاجلة أو آجلة . أما الضبط الذي ليس له مثل هذه النتائج ، فهو أمر مطلوب . إن الانسان إذ يحاول التحرر من بعض مظاهر البيئة الطبيعية فانه لايدمر البيئة كلها وانما يغير من طرق تعامله معها . وكذا الأمر في البيئة الاجتماعية فحين نريد التحرر من بعض أنواع الضبط فان هذا لايعني أن علينا أن نتحرر من كل ضبط آخر . ذلك أننا لسنا بحاجة الى تدمير البيئة أو الفرار منها : ما نحتاجه هو اعادة تصميمها .

الكرامة :

يعني سكنر بالكرامة هنا : الجدارة . فنحن نقدر الانسان عادة حين يقوم بانجازات ذات قيمة . نقدر التلميذ الناجح والمدرس الناجح ، نقدر الجندي الشجاع ، نقدر المكتشف والمخترع . نقدر في الانسان أفعاله الحميدة . لكن سكنر يرى أن لامجال لتقدير أحد . ذلك أن إذا كان سلوكنا يرد بجملته وتفاصيله إلى البيئة ، فلا فضل لنا في شيء بل الفضل كله للبيئة ، وما نحن عند سكنر إلا نتاج لهذه البيئة . ويعين المؤلف

في التحليل فيقول : نحن نكرم الانسان ونقدره عندما لانكتشف علل سلوكه الحقيقية. فأمين الصندوق الذي يمتنع عن سرقة الأموال التي في حيازته خوفاً من الشرطة مثلاً ، لانقدره لاننا نعرف سبب سلوكه . أما عندما يمتنع عن السرقة على الرغم من إمكان اقترافه جريمة كاملة دون أن يكتشف فاننا نقدره . والسبب هو أننا لانرى الدوافع الحقيقية لسلوكه ، وفي العادة فنحن نرد مثل هذا السلوك إلى ضميره الحي . والضمير هو جزء من الانسان الداخلي الذي نادى سكنر بالغائه في مطلع كتابه . وهدف هذا الفصل هـو الغاء مفهوم الكرامة التقليدي على أساس أنـه يقف في وجـه التحليل العلمي للسلوك .

هذا هو انسان سكنر على الصعيد الفلسفي : لاحرية ولاكرامة بل عضوية مادية تستجيب لمؤثرات البيئة . أين تقع القيم في هذه الصورة ؟ هل هناك مجال لمنظومة قيم في هذا العالم الوقائعي ؟ لو سألنا فيلسوفاً تقليدياً : ما القيمة ؟ لجاءت اجابته مفعمة بكلمات مثل الخير والمطلق والحدس والوجدان والواجب ، وتبقى هذه الاجابة مقبولة مادام في الانسان عالم نفسي وعقلي رحب يتسع للتجربة الجمالية والتجربة الاخلاقية . ولكن ماذا يبقى من كل هذا عندما نلغي البعد النفسي والعقلي ؟ لنسأل سكنر : ماالقيمة؟ يجيب على هذا السؤال قائلاً : « الأشياء الطيبة هي معززات موجبة . فالطعام الجيد يعززنا عندما نتذوقه ، والأشياء ذات المظهر الجيد تعززنا عندما ننظر اليها » . والقيمة اذن هي أثر الأشياء المعزز . ومادام علم السلوك علماً للاثار المعززة للاشياء فهو ــ بهذا المعنى ــ علم القيم .

هذا بالنسبة للاشياء ، فاذا انتقلنا الى عالم العلاقات الانسانية لوجدنا أن الناس يعزز بعضهم بعضاً بوسائل شتى . ولكن عندما يرتب الناس شروطـاً تعزيزية معينة ، فاننا نقول عن الشخص الذي يتأثر بهذه الشروط أن يعمل « لخير الآخرين » . الانسان في نظر سكنر لا يعمل لخير الآخرين بسبب حس بالانتماء ، ولا يرفض العمل لحيزهم بسبب حس بالضياع ، ولكن سلوكه يعتمد كلية على الضبط الذي يمارسه المحيط الاجتماعي عليه . الانسان في الاخلاق التقليدية يعمل من أجل الآخرين بسبب حس بالواجب ، بالايثار ، بحب التضحية . ولكنه عند سكنر يفعل هذا تحت وطأة الضبط الذي يمارسه المجتمع عليه. ويأخذ سكنر مثالاً على هـذا التحليل، تضحية الفرد بحياته من أجـل المجتمع . ففي الحالات المتطرفة قد يعزز الناس الفرد وفقاً لبرنامج يفضي به في النهـاية الى الموت.

ولنفترض – على سبيل المثال أن وحشاً مفترساً هدد جماعتنا ، فينبري فرد من هذه الجماعة يتمتع بقوة أو مهارة خاصة فيقتل هذا الوحش . وعندما تتخلص الجماعة من الخطر فانها تعزز البطل بالاستحسان والثناء والشرف والحب والاحتفالات والتماثيل وأقواس النصر ويد الاميرة ». « والواقعة الهامة في هذه الشروط هي أنه بمقدار مايكون الخطر كبيراً فان التقدير الممنوح للبطل يزداد . لذلك يتصدى البطل مرة ثانية وثالثة للاخطار المحدقة بالجماعة حتى ينتهي به الأمر بأن يُقتل » .

البطولة والتضحية مسألة معززات وليست مسألة احساس بالواجب أو الولاء . حتى مفهوم الواجب ذاته يتعرض لمطرقة سكنر التي تفتته . ما الواجب ؟ تحتل كلمة « يجب » مكاناً بارزاً في الأخلاق ، ولكنها عند سكنر لا تعني الا وعداً بالتعزيز . فعندما نقول لشخص ما : « يجب عليك أن تقرأ دافيد كوبر فيلد » . فاننا نعني أنه اذا قرأ هذه القصة فسوف يعزز . وبالمثل فعندما نطلق توصية أخلاقية : « يجب عليك أن تكون صادقاً » فان ترجمة سكنر لهذه العبارة هي : « اذا كنت تشعر بالتعزيز عند استحسان أقرانك لك ، فسوف تشعر بالتعزيز عندما تكون صادقاً » .

الانسان يسعى – إذن – الى تحقيق خيره الشخصي ، ثم يرتب الآخرون شروطاً تعزيزية تدفعه الى العمل من أجلهم . والسؤال الآن : هل توجد عدالة أو مساواة في التبادل عندما يعمل المرء من أجل الآخرين ؟ هل يقدم المجتمع للفرد بقدر مايأخذ منه ؟ وبالعكس ، هل يقدم الفرد للمجتمع بقدر مايأخذ منه ؟ كي نجيب على هذا السؤال فان علينا أن نعرف المكاسب الآجلة للفرد وللمجتمع في هذه الصفقة . فنحن لا نستطيع أن نقرر عدالتها أو المساواة فيها مالم نعرف جميع الخيرات المتبادلة الناجمة عنها . « ولا يمكننا تحقيق توازن معقول مادامت المكاسب الآجلة مهملة بسبب فردية متطرفة أو بسبب نظام استغلالي . ومن الجائز أن هناك حالة مثلى من التوازن يعزز فيها كل شخص . ولكن – يسأل سكنر – لماذا يهتم أي شخص بالعدالة أو المساواة ؟

هذا سؤال يتعلق بالثقافة ككل . ذلك أنه عندما يهتم الانسان بقيم على هذا المستوى فهو يهتم ببقاء ثقافته وشروط بقائها .

الفرد عند سكنر يعمل من أجل خيره الشخصي لأن شروطه البيولوجية تدفعه الى هذا . وهو يعمل من أجل خير الآخرين لأن هؤلاء يستخدمون هذه الشروط لجعله يعمل .

من أجلهم . ولكن لماذا يعمل الانسان من أجل الأجيال المقبلة ؟ لماذا يعمل إنسان الثلث الثالث من القرن العشرين من أجل إنسان الثلث الثالث من القرن الواحد والعشرين ؟ لماذا يهتم الانسان بمشروع لن تقطف ثماره إلا الأجيال المقبلة ؟ لقد عرفنا لماذا يعمل الانسان من أجل خيره الشخصي ومن أجل خير الآخرين ، ويبقى ان نعرف لماذا يعمل من أجل مستقبل ثقافته التي لن يعيش ليراه . بعبارة أخرى ، يرى سكنر ان الانسان سجين المعززات التي تحيط به . وإذا أردناه ان يعمل من أجل غيره فعلينا ان نعززه ليفعل ذلك . ولكن كيف نعززه ليعمل من أجل مستقبل ثقافته ؟ ذلك أنه سيكون ميتاً عندما تؤتي أعماله أكلها ، والميت في نظر سكنر لايعززه شيء ؟ يقدم سكنر إجابة غريبة عن هذه الاسئلة :

« لايوجد سبب وجيه يدفع الانسان الى الاهتمام بمستقبل ثقافته ، ولكن اذا لم تقنعك ثقافتك بأن هناك مثل هذه الاسباب ، فالسلام على مثل هذه الثقافة » .

هناك — إذن — ثلاثة أنواع من القيم : قيمة الحيز الشخصي ، وقيمة حيز الآخرين ، وقيمة حيز الثقافة . وهذه المنظومة الثلاثية تشكل عالم سكنر الاخلاقي إذا كانت كلمة « أخلاقي » تنطبق على العالم الذي يقدمه لنا .

تلك هي الوقائع كما يكشف عنها التحليل العلمي السلوكي ، وهذه هي النتائج الاخلاقية كما يشتقها سكنر ؟ فما هي الآمال والوعود التي يتفتح عنها الاشراط الاجرائي الذي تبناه سكنر وسيلة لفهم السلوك وتعديله ؟

تصميم الثقافة :

مادام السلوك يعدل بتعديل الشروط المحيطة به ، فان الطريق مفتوح لتصميم ثقافة نعيد فيها تشكيل الشرط الانساني بشكل يحفظ بقاءه ويحميه من الاخطار المحيطة به . يقترح سكنر يوتوبيا جديدة تتحقق عن طريق ضبط السلوك الانساني . ونحن نستطيع تصميم الثقافة — في رأي سكنر — كما نصمم تجربة في مختبر لعلم النفس التجريبي . فالثقافة تشابه مجال التجربة : فكلاهما يتألف من مجموعة شروط تعزيزية : الطفل يولد في ثقافة كما نضع عضوية ما في مجال التجربة ، وتصميم الثقافة يشبه تصميم التجربة : الشروط ترتب والنتائج تراقب .

يقترح سكنر تصميم ثقافة جديدة لبني الانسان ، كما يصمم هو تجربة لفأر أبيض

في معمل علم النفس التجريبي في جامعة هارفارد ، ولكن من ذا الذي سيصمم الثقافة ؟ من ذا الذي سيضبط الجنس البشري ؟ من سيتسلم هذه المهمة الخطرة ؟ والاجابة التي تخطر مباشرة على البال هي : تكنولوجيو السلوك : أمثال سكنر في العالم المتقدم . ولكن المؤلف لايقدم هذه الاجابة . فهو يقول ان هوية الجماعة التي ستمارس الضبط على بقية أفراد الجنس البشري ليست هامة : والمهم هو الشروط التي شكلت ممارسات هذه الجماعة، فاذا كانت شروطاً مناسبة فان ممارستها ستكون مناسبة أيضاً ، وعلينا أيضاً ان نرتب « ضبطاً مضاداً » يمارسه المضبوطون كي يجبروا الذين يمارسون الضبط أن يعدلوا ممارستهم باستمرار نحو ماهو أفضل . واللعبة تسير على النحو التالي : يجب أن توجد شروط مناسبة تشكل جماعة على نحو معين ليغيروا ثقافة الانسان عن طريق الضبط والتعزيز ، ويجب ان يوجد ضبط مضاد يعدل من ممارسات الفئة الضابطة حتى لاتبغي في ممارستها ولا تجور . كيف يتم ترتيب هذه الشروط ؟ لايجيب سكنر على هذا السؤال .

استدعت آراء سكنر انتقادات عنيفة . فقد وجد فيها البعض تبسيطاً مفرطاً للشرط الانساني ، واستدعت نظريته في ضبط الانسان وتصميم الثقافة مخاوف من استعمار جديد ، أو نازية جديدة تحت ستار تصميم الثقافة . وأشار بعض علماء النفس الى ان سكنر عمم نظرياته في سلوك الحمائم والجرذان على سلوك الانسان المعقد . يكتب فريدريك ثورن في مجلة علم النفس الاكلينيكي : « لقد ظهر الآن أن سكنر هو حلقة أخرى في سلسلة المنظرين الذين حاولوا أن يعمموا استبصارات جزئية الى مذاهب كاملة في علم النفس . وهو بذلك يكشف عن رؤية ضيقة تحد من قدرته على ادراك الشرط الانساني ككل ، ومن تعامله مع ظواهر هامة تقع خارج حدود المنهج الميكانيكي ». ويكتب ريموند ماك كول أيضاً : « ان سكنر يقلب منهجاً محدوداً وجزئياً الى ميتافيزيقيا شاملة » .

يتبنى سكنر في مواجهة هذه الانتقادات حجة طريفة . فهو يقول ان علينا ألا ننسى ان هذا العلم السلوكي ما زال في بدايته وهو — أي العلم — وان عجز عن تفسير بعض الظواهر الآن ، فهذا لا يعني أنه سيعجز عن تفسيرها في المستقبل .

وسكنر يشبه في تبنيه هذه الحجة الأب الذي يبرر تجاوزات طفله الصغير بصغر

سنه . وقد يكون هذا مقبولاً شريطة ألا يظهر في نهاية الأمر أن هـذا الطفل يخطط لمشاريع وأهداف تفوق مقدرة الكبار أنفسهم . إن معطيات كثيرة جداً يجب الحصول عليها ، وبراهين يجب التحقق منها ، وتجارب ينبغي اجراؤهـا قبل أن ينطلق سكنر من مخبر علم النفس الى الثقافة ككل ، ومن الجرذ الى الانسان .

وبدون تحقيق هذه المعطيات ، وبدون تركيب مثل هذه البراهين ، وبدون اجراء مثل هذه التجارب فان أي تصميم للثقـافة أو للشرط الانساني سوف يبقى بدون أي أساس علمي حتى لو أطلقنا على التحليـل الجزئي الذي قاد الى مثل هذا التصميم اسم « التحليل العلمي » .

أبو الفتح أديب عرب

حول كتاب «صفحات مجهولة»

صدرت مؤخراً عن وزارة الثقـافة والارشاد القومي دراسة جديدة عن القصة للاستاذ القاص « عـادل أبو شنب » ، وتحت عنوان « صفحات مجهولة في تاريخ القصة السـورية ، دراسة ونماذج » .

و .. يطمح هذا الكتاب أن يكون وثيقة تاريخيــة . وإضاءة لتاريخ القصة السـورية . وتقدمها وتطورها ، عبر الحديث عن البواكير الأولى التي كانت وعداً بعطاء قصصي جيد . وهـادف ، ومتطور ، وعن « الواقعية في قصص « علي خلقي » الذي ظهر في أواخر العشرينات كشهاب سرعان ما انطفأ .. وعن « قصص التعرية الاجتماعية في عطاءات « محمد النجار » الذي كان من أوائل القصاصين الطليعين ، والذي ظهر عام

(١٩٣٧) ونشر أول مجموعة له بعنوان « في قصور دمشق » وأعيد طبعها أربع مرات ، ثم أصدر في أواخر الاربعينات مجموعة ثانية « همسات بردى » ليسكت بعد ذلك سكوتاً عجيباً . وليلفه الصمت والنسيان حتى مماته في أواخر الستينات ، وعن مسابقات القصة والوجوه الجديدة التي بدأت ترفد العطاء القصصي الأول في بداية الأربعينات ، وعن أول « مانيفست » عن الالتزام في مطلع الخمسينات .

فماذا في هذا الكتاب ؟

وما الذي يحاول أن يقوله المؤلف ؟ وأية إضافة يمكن ان يقدمها هذا الكتاب الى المكتبة العربية ؟

وما هو الدافع الذي دفع المؤلف الى تأليف كتابه هذا ؟

يقول المؤلف :

« ومن الصعب تقدير الدور الذي أداه القصة في لعبة التغيير الشديدة الحركة . منذ مطلع هذا القرن في سورية ، لا ، لأن القصة فن جديد فحسب . وإنما لأن التأثيرات التي يحدثها الفكر عامة ، والأدب خاصة في مجتمع ما ، لاترى رأي العين ، ولا تدرك ، إلا اذا تصدى باحث لها ، هدفه الأول ان يستنبطها من بين عشرات التأثيرات الأولى ، التي فعلت فعلها في تغيير البنى الاجتماعية ، والمفاهيم والعادات والسؤال الذي يطرح نفسه باستمرار بهذا الصدد :

هل كان للقصة تأثير عام .

الكتاب يحاول ان يجد جواباً .

ولأنه ليس ثمة في المكتبة العربية أية دراسات في القصة ، وخاصة في تاريخ نشوء القصة القصيرة وتطورها ، أكثر من كتابين إثنين مطبوعين ، وبضع رسائل جامعية مخطوطة ، تتناول القصة السورية بشيء من التأريخ أو النقد . أو العرض . ولا شيء بعد .. سوى الإعراض إن لم نقل الإهمال . ومن هنا أيضاً فان هذا الكتاب يحاول أن يسد فراغاً ..

واذا عدنا الى التاريخ القصصي العربي السوري، فاننا نجد ارثاً من القصص يبدو للوهلة الاولى مجرد محاولات في الكتابة ، دفعت اليها تلبية حاجات ذاتية ، لكن هذا الارث سرعان مايكشف نفسه بنفسه ، فاذا نحن أمام مرآة اختزنت صورة لمجتمع مرحلة

من أشد المراحل أهمية في تاريخنا الفكري الحديث ، انها مرحلة التغييرات السياسية والفكرية والاجتماعية ، مرحلة الوقوف على الصراط بين ثقافة تقليدية ـ موروثة وثقافة حديثة وافدة ، مرحلة المواجهة العنيفة بين المتطلبات القومية ومحاولات الاذلال الاستعمارية ، وهكذا حاولت في هذا الكتاب أن اجعل من هذا الارث القصصي طريقة كشف ، ووسيلة لانصاف القصة في جذورها الاولى .. في بداياتها ، ولانصاف روادها الاوائل معاً ..

ويستعرض المؤلف في الفصل الأول « البواكير القصصية الأولى التي مهدت فيما بعد ، الدرب الى قصة متقدمة وناجحة فيتحدث عن قصص « الخدر يبيح الأسرار » لمحمد أديب الرهونجي : وما كان فيها من جرأة لانتناسب والتقاليد الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك ، ومن هنا أهميتها ، وكذلك الأمر بالنسبة لقصة، الحب العصري الشريف من تأليف محمد صلاح الدين آل مختار الطرابلسي «التي هي من حيث المضمون» تشكل احتجاجاً صارخاً على التقاليد . وهي من القصص التي ماكتبت الا لتخدم غرضاً معيناً ، فالمجتمع غارق في الواقع في وحل التخلف والارتباطات العائلية والموروثات المتراكمة وتأتي هذه القصة لتأخذ شكلاً تعليمياً مباشراً . وكذلك الأمر بالنسبة لقصص « عاطفة في نظر القانون جريمة »و..» على مذبح الانانية للكاتب ظل متنكراً حتى اختفى بلقب « ابن البادية ». وكل تلك القصص نشرت في مجلة العرفان عام (١٩٢٨) وكانت القصة عبر هذه النماذج الاولى التعليمية أحياناً ، والساذجة أحياناً ، ملتزمة بشكل ما ..

و.. يستعرض المؤلف في الفصل الثاني من كتابه مجموعة قصصية هامة تحمل اسم « ربيع وخريف » لعلي خلقي »، صدرت في عام (١٩٣١) في (٩٠) صفحة . وعلي خلقي » قاص موهوب ظهر في أواخر العشرينات كشهاب سرعان ما انطفأ ، وتمثل حياته جانباً من الدراما الانسانية التي تعرض لها أدباؤنا الاوائل من زاوية معاناتهم اليومية كمفكرين يحتكون بظروف غير ملائمة . وقد خطف هذا القاص الابصار بالنكهة الجديدة . التي طلع بها . الا أنه لم يعد يكتب كثيراً في أواخر الثلاثينات وفي الاربعينات استهلكه التدريس والادمان على الخمر سنوات طوال . الى أن عاد الى الكتابة بتشجيع صديقه الاستاذ المرحوم « نسيب الاختيار » الذي كان مسؤولاً في الاذاعة. خلال الخمسينات. فأذاع عدداً من قصصه. وفكر بنشرها في مجموعة قصصية،

وكتب المرحوم الاستاذ «فؤاد الشايب» مقدمتها ، ومن ثم ضاعت المجموعة من المؤلف. و .. ضاعت الى الابد ..

ويمكن القول بأن ولادة جديدة للقصة السورية ، قد حدثت على يدي «علي خلقي» ، فالقصة الاجتماعية لم تكن معروفة وقتئذ على نطاق واسع ، وبالمعنى العلمي لهذه الكلمة . وقد جاء هذا القاص بهذا اللون من الكتابة القصصية ليضع حياة الناس في مرآة عاكسة ومن هـذه الزاوية جـل التقليديون عليه ، انه تباشير الثورة . انه يتوجه الى الواقـع الاجتماعي ، وينهي عهد الواقع الرومانتيكي ، انه الواقعية تلد في ظل الحـاجة اليها . فالبلاد مستعمرة والجوع والعري يفتكان بالناس ، والطبقـة البرجوازية تتحكم أكثر ، وأكثر ، وتتكيء في تحكمها على أحكام ومفاهيم ، يعتبر مجرد المساس بها ، جحوداً بالقيم المقدسة ان لم يكن كفراً .

وفي الفصل الثالث يستعرض المؤلف قصص التعرية الاجتماعية عند «محمد النجار» ، وقد جاء هذا القاص ، في الوقت الذي انطفأت فيه الحركة الأدبية ، أيام الحرب العالمية الثانية ، أو انها تقوقعت على نفسها لاسباب كثيرة ، وتميز هـذا القاص بجرأته غـير المحدودة . في الدخول الى المخادع ، والقيـام بعملية تعرية اجتماعية ، بأسلوب مثير أحياناً ، فقد سكت هذا الكاتب زمن الحرب ، ثم عـاود الكتابة في النصف الثاني من الاربعينات ، فأصدر مجموعته القصصية الثانية «همسات بردى» التي انتهج فيها الاسلوب نفسه ، ودمغها بالهوية ذاتها التي دمغ بهـا مجموعته الاولى « في قصور دمشق » التي أصدرها في عام (١٩٣٧) ، ويمكن القول بجزم أن مجموعته الثانية امتداد لمجموعته الاولى من حيث الشكل والمضمون ، اللذان عرف بها هذا القاص .. الذي ساءه أن تغرق الطبقة المترفة البرجوازية الكبيرة في اللذائذ . والمحرمات في السر ، وأن تدعي بعد ذلك الصلاح والوطنية في العلانية ، فنذر نفسه وقلمه والفن الجـديد لفضح تلك الطبقة ، فجاءت قصصه صوراً ، وتجسيداً لمساويء وخزي وعار تلك الطبقة ..

وفي الفصل الرابع يتحدث المؤلف عن قصة الاربعينات وخاصة في سنوات الحرب وما بعدها فيقول : « ومع أن ظروف الحرب ، والاحتلال ، كانت عائقاً فان كتاب القصة مضوا في دربهم ، وهم محتملين كافة الضغوط والعقبات في سبيل ارساء معالم الفن الجديد .. القصة ، وقـد لعبت مجلة « الصباح » الاسبوعية التي كانت تصدر في عـام (١٩٤١) دوراً كبيراً في تطور القصة ، وعلى صفحاتها أنتج قصاصو سورية العربية

في تلك السنوات أبرز ما أنتجوا ، وعلى رأسهم فؤاد الشايب و د . عبد السلام العجيلي ، وليان ديراني ، ووداد سكاكيني ، و د. سهيل ادريس وغيرهم .

ونلاحظ في هذا الفصل أن القصة في الاربعينات اصبحت شغل الوسط الادبي الشاغل ، واصبح فن القصة سائداً وخطيراً بحيث غدت الدعوة الى ربط حاضر القصة بما هو ماض في الادب العربي . دعوة قائمة تستهدف فيما تستهدف دحض الآراء التي تجعل فن القصة جديداً في الأدب العربي ، ولا يخفى أن دعوة كهذه في ظروف الانتداب والاحتلال ، إنما تريد بشكل غير مباشر ، التأكيد على الأصالة العربية القادرة على الابداع البعيدة عن التقليد ، لأن القصة التي هي عماد أدب الغرب وركنه الأساسي ، قد عرفها العرب في أطوار حياتهم المختلفة .

وبدأت المسابقات القصصية التي أجرتها مجلة الصباح ففاز د . عبد السلام العجيلي الذي كان ما يزال طالباً في المعهد الطبي العربي بالجائزة الأولى ، وبالجائزة الثانية عزيز بشور الذي كتب كثيراً من القصص في تلك المرحلة ، وانطفأ دون أن نسمع عنه شيئاً . والقصة الفائزة الثالثة « لبديع حقي » ، ولعل أهم ما يلفت النظر في تلك الفترة هو تخصيص جوائز مالية للقصص الفائزة تبدأ بستين ليرة سورية وتنتهي بالثلاثين ولنلاحظ أو نتذكر القوة الشرائية للنقود آنذاك . كما نلاحظ نشر قصة بقلم قاصه فالقصة النسائية يعني أن الكاتب إمرأة لم تكن قد عرفت في سورية من قبل ، وكانت الرائدة في هذا الميدان « وداد سكاكيني » .

وفي الخمسينات بلغت القصة السورية ، فترتها الذهبية ، وفي عام (١٩٥٠) صدرت صحيفة « النقاد » وعلى صفحاتها تألق عدد كبير من الكتاب ومن بعض ما قامت به « النقاد » لدفع الحركة القصصية وتطويرها إجراء مسابقات في القصة من جديد ، وذات جوائز أيضاً ، وقد تقدمت خمسة عشرة قصة إلى مسابقة النقاد فقرر نتائج المسابقة الأستاذ « شاكر مصطفى » وتألفت لجنة التحكيم من الأساتذة :

« فؤاد الشايب رئيساً و د. عبد السلام العجيلي، وأحمد عسه، وممتاز الركابي أعضاء وفازت قصة « العتال » « لصميم الشريف » بالجائزة الأولى وبالجائزة الثانية قصة حسيب كيالي « أمام القصر العدلي »، وبالثالثة قصة « فارس زرزور »،عندما أسدلت الستار».

وفي الفصل الخامس من الكتاب يتحدث المؤلف عن أهم حدث أدبي في الخمسينات، وهو ظهور رابطة الكتاب السوريين المؤمنة بالالتزام الجماعي ، والتي حشدت قصاصيها

في شبه تظاهرة للتعبير عن أفكار وردت في بيانها الأول الذي أصدرته في مطلع الخمسينات والرابطة المذكورة هي أول تكتل أدبي جدي ، فقد تنادى كتاب شبان معظمهم مقيم في دمشق ، وأسوأ ما سمي وقتئذ برابطة الكتاب السوريين ، التي تحولت فيما بعد وفي أعقاب مؤتمر أدبي عقد في دمشق ، وحضره كتاب من لبنان ، ومصر ، والعراق إلى « رابطة الكتاب العرب » ويستطرد المؤلف :

ولعل البيان الذي اصدرته الرابطة إعلاناً عن ولادتها هو أهم وثيقة أدبية عرفتها سورية في تاريخها الفكري الحديث آنذاك ، انه يتحدث عن أدب ملتزم وأدباء يؤمنون بـأن التشكل العربي ، في ميدان الفكر والفن ، يعطي ثماراً أكثر نضجاً ، وبأن الفن الصحيح هو الذي ينبع من حياة المجموعة ، وهكذا تحول الالتزام من التزام فردي وأحياناً مشوب بشيء من الضبابية إلى التزام جماعي .

وباختصار كما يقول المؤلف :

« أصبحت القصة منذ الخمسينات مكتملة الملامح ، ناضجة بكل ما في الكلمة من معنى » وأنه :

« انتهى عهد البدايات ، انتهت المحاولات والتجارب ، وثبت القصة السورية عن الطوق وبدأ عصر جديد ، حلت فيه القصة محل الشعر وسيلة التعبير الأولى عند العرب » .

و .. يختم المؤلف كتابه في الفصل السادس وهو « نماذج من القصة السورية » ويضم هذا الفصل عدة قصص مختارة « احسب انها تعبر تعبيراً حياً عن تطور القصة السورية خلال عقدين من الزمن » والنماذج التي اختارها المؤلف « لم تولد في يوم واحـد ، فبين النموذج الأول ، والنموذج الخامس ربع قرن من الزمـان » . وذلك في محاولة منه كي يرى القراء :

« المدى الذي وصل اليه التطور بالقصة القصيرة في سورية العربية شكلاً ومضموناً خلال تلك الفترة الزمنية » .

و .. بقي ان اقول :

انه في كتاب « صفحات مجهولة في تاريخ القصة السورية » جهد واضح ، ومحاولة جادة لاضافة ما هو ضروري الى المكتبة العربية . وخـاصة في موضوع تاريخ القصة العربية السورية . وبداياتها الأول ، اذ انه ليس في المكتبة العربية حول هـذا الموضوع

وفي حدود معلوماتي غير كتابين كما ذكرت ، وهما « القصة في سورية » للاستاذ « شاكر مصطفى » وادب القصة في سورية للاستاذ عدنان الذهبي ابن ذريل .

وبقي ان اقول ايضاً ان توقف « عادل ابو شنب » في كتابه المذكور . في تأريخ القصة السورية عند الخمسينات ، فلأن هذا التاريخ كما يقول :

« هو الحد الفاصل بين القصة المحاولة ، والقصة ـ الناضجة ، وان قصة الخمسينات في سورية تحتاج الى تأريخ مستقل ، في كتاب مستقل آخر » .

و .. لعل من الواجب على المؤلف اذن ان يواصل رحلة الجهد والعطاء فيؤرخ للقصة في الخمسينات ، وما بعد ، في كتاب مستقل آخر .. كما فعل في كتابه هذا «صفحات مجهولة في تاريخ القصة السورية » ، الذي سيظل اضافة طليعية ورائدة . و .. هامة في حياتنا الأدبية المعاصرة .

★ ★ ★

خالد نقشبندي

مدخل إلى عالم دمشق الحرائق

اذا كان الشعر الحديث قد « أعطى لنفسه الحرية المطلقة للتعبير عن كل ما يوحي به الخيال القادر المتسلط المتغلغل المستمر في الحياة الباطنة وأعماق اللاشعور »(١) . فان زكريا تامر لا يمارس لعبة الخيال هذه من اجل عملية الخلق القصصي لديه ، بل شخصياته القصصية هي التي تمارس لعبة الخيال هذه من أجل اثبات وجودها ولو في الحلم ، ضمن عالم ضيق ومحدود .

---

(١) ثورة في الشـعر الحديث – الدكتور عبدالغفار مكاوي – ص (٣٦) . لهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٢ –

ان لغة زكريا تامر لغة شعرية ، واثناء عمليـة تجسيده للمونولوج الداخلي فانه يستخدم لغة شعرية اكثر كثافة وتعقيداً في مضمونها رغم بساطتها الشكلية ، لغة مشحونة بدلالات نفسية ، ورؤى ذاتية منطلقة بدءاً من اللاوعي النفسي المتجسد في النفس الشرقية التي تنتمي الى واقعنا المتخلف بكل أبعاده الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ... حيث يتمثل « فيض اللاوعي الذي حلله فرويد » اللاوعي المرتبط بمفهوم الكبت مباشرة :

« اللاشعور المكبوت يقوم على التناقض بين الطبيعة والمجتمع .. بين الطبيعة والثقافة » أما « اللاشعور غير المكبوت فهو سلسـلة من السلوكات والتصورات والسحنات الانفعالية .. يتكون من بعض مظاهر الطبيعة التشريحية الفيزيولوجية للانسان » (١) . وهـذا « المكبوت يصبح مجموعة قوى ، أو الدلالات الكامنة في الحياة النفسية ... فهو مظاهر الابدال ، والتصعيد ، وتصورت الاحلام ، والتصـورات الطوباوية ، والاعراض المرضيـة ، أي الظواهر العينية في الحياة النفسية » (٢) .

ان هذه المنهجية العلمية .. المتعلقة بعلم النفس لا بد من الاستعانة بها اولاً وقبل أي شيء من اجل عملية الدخول الى عالم زكريا تامر وتحليله . ولنأخذ المقطع التالي من قصة (البدوي) :

« .. وقفت سميرة على رؤوس اصابع قدميها ، فأبصر يوسف فخذيها .. سيكون القماش بارداً . واجتاح يوسف شوق عارم لرؤية وجه الميتة .. بدت على وجه سميـرة كبرياء طاغية ، فاشتد غضبه ، ستنبش أظفاره التراب وتبعده عن البلاطة بحركة محمومة ، وسيكون القمر فوق القبر .. وسـتمتد يدان مذعورتان وحشيتان وتبعدان القماش فيبزغ عري الجسد الهامد . اللحم بارد وحار بآن واحد ، مكتنز ناعم لين ، لن يجسر على التطلع الى وجهها . سيخونه القمر ويهرب ليتركه وحيداً . ستبعد الميتة القماش المكتوم فوق وجهها وتطلق صرخة فزعة حادة » .

قصة « البدوي » صفحة (٢٠٢)

---

(١) الثورة الفرويدية – بيير فوجيرولا – ص (٥٤ – ٥٥) – ترجمة حافظ الجمالي – منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي – دمشق – ١٩٧٢ .

(٢) المصدر السابق – ص (٥٧) .

ان خيال بطل القصة خيال مجنح .. فالبطل يهرب من عالم الواقع المحدود .. معتمداً على خياله الشعوري .. محاولا ان يسد نقطة العجز عنده ضمن محدودية الواقــع المقيد ، فهو يتخيل جسد الفتاة الميتة .. ينظر اليها كجسد من لحم يمكن ان يثير الدافع الجنسي لديه . انه يزاوج بين حبيبته الحقيقية سيرة والفتاة الميتة التي دفنت أمام عينيه ، وهذه المزاوجة ليست الا نتاجاً لخلفيته النفسية المريضة التي تناقض دوافعه الفيزيولوجية الطبيعية وآماله الحياتية :

« أحس يوسف انه مرتبط بالميتة ارتباطاً حقيقياً » .

قصة « البدوي » ص (١٩٨)

إنها عمليــة « التناقض بين الطبيعة والثقافة الاجتماعيــة » نوع من الرؤى الميتافيزيكية تسيطر على نفسه،حيث الثقافة هنا ليست الا مجمل رواسب الماضي المتعلقة بذهن الانسان وعقله الباطن من عادات وتقاليد وأوهام مترسخة في اللاشعور لديه خلال سني حياته الماضية وأيام طفولته ، ان هذا التصور بممارسة الجنس مع جسد ميت ليس الا انسلاخاً عن مفهوم الحب كعلاقة طبيعية وظاهرة اجتماعية سليمة بين جيل الشباب، الى جانب جوعه الجنسي . إنه اعتقاد ميتافيزيكي متسرب الى النفس في العـالم الشرقي وخصوصاً لدى الطبقة المتوسطة التي تحرص على عاداتها وتقاليدها بشدة .. وهذا المفهوم نشاهده أيضاً بشكل واضح في قصة « رحيل الى البحر » حيث البطل فيها بعـد أن يمارس الجنس مع حبيبته « سعـدى » نشاهده يخرج « مدية باردة » ثم لا يلبث أن يقول :

« ذبحتها بتلك المدية الصدئة المثلومة الحد ، ثم تسللت خارجاً من خيمتها » .

قصة « رحيل الى البحر » صفحة (٢٨٦) .

وهذه نفس الرؤيا التي شاهدناها في قصة « البدوي » وعلى المستوى الاجـتماعي العام كما في قصص : « موت الشعر الأسود ــ موت الياسمين ــ حارة السعدى ــ .. » .

إن هذا المفهوم الحدسي لردة الفعل لدى الانسان الشرقي تجاه الحوادث اليوميــة يقترب من مفهوم «مسرح اللامعقول» «الذي يحاول أن يقدم أحساساً تخمينياً أومعرفة

حدسية لما هو مكان الانسان في الوجود » (٤) . وهذا المفهوم « الحرية - الموت » يتكرر عند الكثيرين من الكتاب العرب مجسداً في نتاجهم الأدبي ، كما في رواية « بداية ونهاية » لنجيب محفوظ ، ومسرحية « المحطة » (٥) لعلي الجندي ، وقصة «وردة»(٦) لوليد نجم .

إن هذا التصور الميتافيزيكي ليس الا حدساً داخلياً ناتجاً عن حقيقة اللاشعور لدى الانسان الشرقي .. فالقصص تطرق نفوسنا من الداخل بواسطة الايحاء لكونها تنظر الى الجانب النفسي في حياة الانسان الشرقي ودوره في العلاقات الاجتماعية ، انها تطرق منطقة اللاوعي وترينا الجانب المكبوت والمظلم والمعقد في دخيلة الانسان المسحوق اجتماعياً وحياتياً وحضارياً .

فزكريا تامر يستخدم الصور المتداعية التي تشكل أحلاماً تستمد جذورها من اللاوعي .. نوع من التصوير الحدسي يعتمد على الموهبة والالهام بشكل أساسي .

ان هذا البعد النفسي لدى الانسان العربي يحتاج الى صياغة جمالية وحبكة فنية مشوقة الى جانب أصالة الرؤيا وصدقها . وزكريا تامر يحاول أن يبسط العبارةالقصصية ويعطيها شيئاً من الوضوح .. حيث قصصه لا تحوي دلالات رمزية ، ولنأخذ هذا المقطع :

« ستكون ذات يوم وحيدة في البيت ، وستقري المعتوه بالدخول ، وستتعرى من ثيابها دون خجل ، وستعطي نهدها لفم المعتوه ، وستضحك ثملة حين يحاول قضم حلمته ، وستطلب منه بصوت لاهث أن يعض لحمها ويغرس أسنانه فيه حتى ينبثق الدم ويلطخ شفتيه ، وعندئذ ستلعق بأسنانها شفتيه بكثير من الضراوة والحنان » .

قصة « وجه القمر » صفحة (١٠٣) .

نوع من الخيال يشكل تداعياً نفسياً .. مشاعر مكبوتة تحاول أن تنطلق من

(٤) كتاب « مسرح العبث » بحث الدكتور نعيم عطية ، ص (٤٠٣) .

(٥) مسرحية « المحطة » مجلة المعرفة - العدد (١٢٤ - ١٢٥) -١٩٧٢- .

(٦) قصة قصيرة بعنوان « وردة » لكاتبها وليد نجم - نشرت في مجلة جيش الشعب سنة ١٩٧٢ .

نافذة الخيال .. ان مثل هذا المقطع رغم قوته وأهميته في قصة « وجه القمر » فانه يخلو من الرمز ، مكوناً من أسلوب شفاف رقيق ذي ايحائية قوية .

ان هذه الدلالات الشفافة تعتبر من أهم مشوقات قراءة القصة القصيرة ، واتجاه زكريا تامر نحو الكتابة للأطفال يرينا مدى تعشقه اللغة البسيطة السهلة . فعباراته القصصية رقيقة شفافة سهلة هادئة الوقع في النفس لطرافتها وجمالها الفني المشوق ، وشاعريتها المجنحة ، وعالمه ليس عالماً واقعياً ، بل انه يستخلص من الواقع ما هو نموذجي وأساسي ويصوغه لنا بأسلوب تعبيري شبيه بالهيولى المرنة بطراوتها التي تدخل الى أعماق نفوسنا بيسر ولطف ، فعالم زكريا تامر عالم سريالي شفاف ، حيث « الكتابة الآلية » لدى السرياليين (٧) هي ما يمكن أن نطلقها أيضاً على اللغة التعبيرية في الكثير من جوانبها المشحونة باللغة الشعرية المكثفة والمنطلقة بدءاً من اللاوعي النفسي ، والمعبرة عن أحاسيس دفينة عن الذنب والقهر والرغبات المكبوتة .. والأحلام ..

ان بساطة الأسلوب القصصي وسهولته الانسيابية لا يمنعاننا من القول ان القصة تسرد مأساة اجتماعية ، تشكل نوعاً من الصراع الدرامي بين الانسان ومحدودية الواقع المقيد ، وهذا الصراع يتجلى بقوة الحدس النفسي الذي يشكل مصدر القامة للانسان الشرقي ، الانسان المسحوق طبقياً واجتماعياً وثقافياً وحياتياً .

إن تجربة الابداع لدى السرياليين تعتمد على « التأليف بين الواقع واللاواقع . . بين الآني والممكن ، بين التافه والتخيلي » (٨) أما زكريا تامر فهو يبحث عن حقيقة التناقض بين كلا الطرفين ، فيكشفه لنا عندما يوجد حقيقة في الواقع المعاش . فزكريا لا يتجاوز الواقع في رؤاه القصصية ، بل يبقى ضمن حيز هذا التناقض الذي ينعكس ضمن النفس الانسانية المسحوقة ليصبح ألماً وعذاباً.. وهناك دائماً رجحان كفة الخيال حيث هنا يكمن التناقض بين المنهجين ، المنهج السريالي الذي يقدس الخيال في عملية الابداع والخلق وفي عملية سبر أغوار الحرية الحقيقية والمطلقة للانسان بدءاً من المشاعر الذاتية ، فزكريا تامر يعتمد على الخيال كعنصر مخدر يرهق حياة الانسان ، كما في قصة

---

(٧) انظر كتاب « أندريه بروتون والمعطيات الاساسية للحركة السريالية » — تأليف (ميشيل كاروج) منشورات وزارة الثقافة بدمشق — ١٩٧٣ — .

(٨) المصدر السابق . ص (٢٠) .

« البدوي » فالانسان الشرقي يمارس لعبة مسرح اللامعقول لطغيان عنصر الخيال والحلم الناتجين عن ألم الكبت وضيق الحيـاة والقسر الاجتماعي ، فلعبة الشكل عند السرياليين تتحول الى لعبة المضمون ، اذ نشاهده يعتمد على الاسلوب التعبيري من ناحية الشكل وعلى « النهج الواقعي » من ناحية المضمون ، حيث شخصياته كلها تنتمي الى الطبقـة المسحوقة .. الفقيرة .. التي أرهقها البؤس والشقاء . والصراع الطبقي يظهر في القصص جلياً واضحاً كما في قصة « يا أيها الكرز المنسي » على سبيل المثال لا الحصر . « انـه الرصد الاجتماعي النموذجي » حسب مفهوم جورج لوكاتش (٩) في كتـابه دراسات في الواقعية، حيث شخصية « البدوي (١٠) شخصية لها سماؤها الاجتماعية، انها شخصية نموذجيـة ومنتقاة بدقة تعبر عن حقيقة قلق الانسـان العربي الشاب الذي يسعى نحو التجديد لكنه يجد نفسه مقيداً بمحدودية الواقـع المادي والاجتماعي الى جانب الأغلال النفسية المترسبة في لا شعوره ، لقد قال لينين :

« ينبغي أن نحلم . وعدم التوافق بين الحلم والواقـع ليس من قبيل السذاجة في شيء اذا كان المرء يحلم بحلمه ويلاحظ الحياة ويعمل على تحقيق ما يحلم به » (١١).

لكن شخصيات زكريا تامر ضائعة في الحلم ، كما في قصة « الشجرة الخضراء » مضطربة مرهقة نفسياً، متعثرة في علاقاتها الاجتماعية لأنها تواجه الكبت والقسر الاجتماعي والجوع الحياتي بكافة ابعـاده حيث نشاهد ذلك في قصة « أرض صلبة صغيرة » على سبيل المثال لا الحصر .

من خلال هذه النظرة التحليلية نشاهد ابتعاد زكريا تامر عن المفاهيم الميتافيزيكية للوجود ، وذلك لأنه يرصد بعض هذه الترسبات الميتافيزيكية التي مازالت تفعل فعلها في عقل ونفس الشاب العربي الذي يسعى نحو التغيير والتجديد .

---

(٩) أنظر كتاب « دراسات في الواقعية » صفحة « ٣٤ » لجورج لوكاتش — ترجمة الدكتور نايف بلوز — منشورات وزارة الثقافة بدمشق — ١٩٧٢ — .

(١٠) قصة « البدوي » من مجموعة قصص دمشق الحرائق .

(١١) كتاب « ناظم حكمت وقضايا أدبية وفكرية » صفحة (١٥٧) تأليف (حنا مينه) منشورات وزارة الثقافة بدمشق .

فالحدس عند زكريا تامر ليس الا حدساً ميتافيزيكياً يسيطر على فكر الانسان وحركته وليس مجرد تنبؤ بحادث ما سيقع كما يقول « فلانتاين » :

« الحدس هو نوع من الحكم على أساس لا شعوري » (١٢) .

بل هو دلالة ميتافيزيكية تحكم المشاعر والهواجس على أساس لا شعوري ، وهذا ما يظهر لنا في قصة « البدوى » اثناء المزاوجة بين الانسالة الحبيبة وجسد الفتاة الميته كما بينت ذلك قبل قليل .

ان اسلوب زكريا تامر اسلوب شعري إيحائي يرسم لنا تداخل الصور الجزئية مع بعضها البعض لتصور لنا التناقض في الحياة . . وهذه وسيلة قوية للتعبير عن المعرفة الحدسية المتمثلة على استنباط حاجات الوجود الطبيعية كما في قصة « الطفل نائم » حيث : « الحدس عملية مباشرة قبل منطقية وبدائية .

ولا تحليلية » (١٣) . تدرك حاجات الانسان الطبيعية والفيزيولوجية تلقائياً . واذا لم تحقق الذات الانسانية هذه الحاجات العاطفية والمادية المتأصلة في طبيعتها الكائنة كمخلوق بشري خانها فانها لا تتريث عن استخدام مشاعرها وانفعالاتها وخيالاتها من أجل خلق عالم وهمي شفاف وهادىء مثل الحلم تمارسه كمخدر لحظي ويومي وحياتي يخفف من شعور الانسان بألم الفقر وضيق الحياة كما في قصة « البدوي » . وهذه المشاعر والخيالات الحرة عندما تحاول ان تتجسد في الواقع الحقيقي كتجربة ملموسة فانها تواجه الروادع المؤثرة على العقل الشرقي من عادات وتقاليد ومفاهيم وأعراف اجتماعية ، حيث عقل الانسان ليس الا منظم حركة الانسان ، وعندما تسيطر النفس المنقبضة بالعادات والرواسب القديمة على العقل فهذا يعني ان الانسان مستلك نفسياً وعاطفياً . . قابع تحت أوهام الماضي وأعبائه القديمة التي لم تعد تناسبه ، لكنه لا يشعر بهذه القيود لأنها ناتجة عن اللاشعور لديه ممثلة كردود فعل نفسية تحد من قدرته على الانطلاق والتحرك الجديدين .

فقصص زكريا تامر تخلو من السرد الواقعي المباشر بمنطقيته المقيدة ، منطلقة

---

(١٢) مجلة الفكر المعاصر – العدد (٧٩) خاص عن ازمة العقل – ١٩٧١ – بحث الدكتور فؤاد زكريا – صفحة (١٢٤) .

(١٣) نفس المصدر السابق . صفحة (١٢٥) .

إلى عالم سريالي لما فيه من أحداث مشبعة بالمدركات الحدسية التي تعكس الوعي الباطني للنفس من جانب وحقيقة الجوع والارهاق والالم الحياتي من جانب آخر . . تناقض يرهق الانسان .. وهذا التناقض يبدو لنا واضحاً أثناء تجسيد واقع الجنس في بلادنا، اذ أن مفهوم الجنس ما زال ميتافيزيكياً في عالم الشرق ، وكما تبين لنا ذلك واضحاً في قصة «البدوي» . ان التداعي النفسي ليس تداعياً ميتافيزيكياً محضاً ، انه نوع من الاضطراب الحياتي مسبباته الرواسب الميتافيزيكية التي تحد من تطلعات الانسان الجدد وأحياناً تسحقه لدرجة قبوله الموت كحل نهائي لخلاصه ، كما في قصة «الرعد» (١٤) حيث يبدو لنا الانسان فيها ميتاً معنوياً وظاهرياً لكنه يعيش الحياة مرغماً من أجل أن يصنع الحياة والرخاء لغيره .

فزكريا تامر ينطلق بدءاً من الواقع المعاش الى عالم الذات الانسانية وليس العكس كما يفعل الكتاب الوجوديون ، انه ينطلق من الواقع الاجتماعي والطبقة التحتية للمجتمع كي يصور لنا وضع الانسان الفرد ومدى علاقته مع الحياة وارتباطه بها ، حيث الواقع ، هو الذي يحدد نشاط الانسان ، والانسان بدوره يتبع الواقع .. يتبع الطبقة التحتية التي تشكل مجمل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

ان زكريا تامر في دمشق الحرائق يقتصر في كثير من الاحيان على تصوير الواقع ولكن هل واقعنا لا يحوي في كينوناته وموجوداته الطبقية والاجتماعية القدرة على التغيير . . هل ننتظر بطلاً مثل « يوسف العظمة » (١٥) كي نقارنه مع أبطالنا المعاصرين . . ان بطلاً مثل يوسف العظمة سوف يضمحل اذا ما عاش في عالمنا هذا الذي يبدو أكثر تعقيداً وحكمة ودقة علمية .. وقد يستهلك أيضاً بطلاً ثورياً اذا ما استلم منصباً ، كما في قصة « يا أيها الكرز المنسي » لكن زكريا تامر لا يبحث عن هؤلاء الأبطال الفرديين أمثال « دون كيشوت » بل يبحث عن البطل النموذجي . . البطل الاجتماعي المتجسد في وجود كل انسان عربي . فهو ينطلق بدءاً من النفس العربية ليضعها لنا على المحك كاشفاً لنا عن حقيقتها .

---

(١٤) قصة « الرعد » ضمن مجموعته الثالثة « الرعد » منشورات اتحاد الكتاب العرب .

(١٥) قصة « الاستغاثة » من مجموعة قصص «دمشق الحرائق» منشورات اتحاد الكتاب العرب – ١٩٧٣ – .

[illegible] شعار

قراءة سلوكية في رواية

من يحب الفقر ؟

بـــين : —

« وكان حمدي ، منذ ليلة الزفاف ، يعيش، فريسة شعور عجيب ، في لحظات كهذه ، كلما أقبل على ظفيرة وأقبلت عليه ، الشعور بأنه سيموت لحظة تمام الوصال .. ستخرج روحه من جســده لتدخل جسد ظفيرة وتخالط روحها . ولم يكن هذا الشعور إلا دافعاً أقوى يدفعه الى حضن ظفيرة ، ويضاعف رغبته في وصال أبدي . » . — ص ١٨

وبين : —

« نظر اليها مرتاعاً. بدت له بعيدة كل البعد عن ظفيرة التي أحبها ، بدت له امرأة أخرى ، وهي متمددة على هذا النحو تنظر اليه ساخرة . وبدا عريها وقحاً قذراً ،مثل عري امرأة ساقطة». — ص ١٤١ .

بين هاتين اللوحتين — الحالتين ، المتضادتين ، اللتين عـاش خلالها الحب الكبير الذي عاناه « حمدي » تجاه زوجته « ظفيرة » .. يضعنا الكاتب عبد العزيز هلال ، في روايته(من يحب الفقر ؟)(١) ، فاذا نحن ضمن ما يتكرر اليوم في مجتمعنا المعاصر، حيث تزداد جمة الاحباطات . يكثر الوقوع والتردي ، بفعل الصدام اليومي ، والحاد ، بين الطموح وبين المتاح .

* * *

يشعر عبد العزيز هلال « بعدم معقولية هـذا العالم ، وبافتقاره الى النظافـة والأمن (٢) » . وفي روايته نشعر معه الشعور نفسه ، عبر مثال واقعي جريء ، تمرّ به عشرات المرات كل يوم . نأبه له أو لا .. لكنه يحدث !! اما أن هذا الحدوث وبهذه التكرارية ، هو أمر بالغ الخطورة ، فذلك ما تصرّ عليه الرواية ، أكثر من أية استفادة أخرى .. رواية زوجين ، فيها الرجل منتهك بكرامته ، والمرأة منتهكة بجسـدها وكرامتها معاً . فالمسألة الجنسية في « من يحب الفقر ؟ » مؤشر حرارة — أو فتور — العلاقة الزوجية ، أو مدى اخلاصها، وهي أيضاً سبب التردي والامتهان بفعل الانتهاك.

ولأن المثال الجريء واقعي ، ممن في محليته ، فاننا نخافه ، ونحبه في آن معاً .

نخافه ان يصير نحن .. !

نحبه لانه ليس نحن .. !

إذا كان علماء النفس يحللون الاقبال الانساني على قراءة اخبار الجرائم ، وعلى الانصات لرواتها بأنه / النزعة الشريرة الكامنة / فاننا حيال حمدي « الزوج » وظفـيرة

(١) من منشورات اتحاد الكتاب العرب .

(٢) من مقابلة مـع الكاتب عبد العزيز هلال ـ الموقف الادبي ـ العدد ١٠ .

« الزوجة » ومنير بك « العشيق » ، نتبط انفسنا لكون الخطر الذي لف الزوجين لم ينلنا في شيء حتى الآن . حتى الآن فقط ، كما نعلم ! !

★ ★ ★

ظفيرة ، تحت تأثيرها ، خانت زوجها . داعي الخيانة كامن في حرمانها ، وإطلاع حمدي لها على حياة الطبقة الفوقية ، وفي اغراءات منير بك .

هذه الخيانة ، لا تُرد الى الجانب الشرير لديها ، كانسان ؛ بل هي نوع من الاختيار الواعي . لكنه اختيار مزور ضمن مجموعة الاختيارات الموضوعة بتحديدية وتأطير ، غير منظورين ، أمام الانسان المعاصر .

حين وقفت امام التجربة ، كان عليها ان تختار بين زوجها الفقير وهذا الغريب الثري المبهر . ولم يكن هناك خيار ثالث .

حاولت ان تلتحم بأحدهما وتفصم ارتباطها بالآخر .

لكنها لا تلبث أن تختار الاثنين معاً ، بمعنى آخر ، أن تخون الاثنين معاً . هي مع الأول . ثم ، هي مع الثاني .

حمدي الفقير . وحده اختار بجراءة ألا يستيقظ .

كان يعلم جيداً ان ازدياد علاقته بمنير بك هو ضرب من ضرب من اقتراب الفراشات من اللهب . انه يرفض اغراءات الرجل الآخر ، راداً التحدي الحياتي ، وقابلاً بالفقر ، ها هو يحاور غريمه :

« – أنا عندي شقة صغيرة ، مفروشة ، اعتدت تأجيرها للاجانب ، يمكنني الاستغناء عن ايجارها ، ولا ريب في أن السيدة ظفيرة ستكون سعيدة بالسكنى في هذه الشقة .

– لا ، لن يوافق أهلها .

– انها زوجتك ، وتكفي موافقتك .

– أنا أيضاً لا أوافق .

– لماذا ؟

— لأنني . لأن ظفيرة صغيرة لاتستغني
عمن يكون قريباً منها من أهلي أو أهلها .
ضحك منير بك وقال :
— هذه الاعذار غير مقنعة . وانما يبدو
لي أنك تحب الفقر .
— يامنـــير بك ، ما من انسان يحب
الفقر » — ص ١١٦ .

انه فقير ، لا يملك أن يغير من واقعه شيئاً .. فلماذا يتهمه منير بك ، وظفيرة فيا بعد ، بحب الفقر ؟

وهو لم يستطع أخيراً سوى أن يهيم بالفقر ، لا أن يحبه فقط ! فهو يعرف جيداً، الجدار الزجاجي المغري الذي يفصل عادة بين (شكل) الممارسة الحياتية ، وبين (كيفها) إنه سيؤله الفقر مع الكرامة ، ويتعبده .

هذا الاكتشاف العفوي لهذه المتراجحة الصعبة ، هو ما لم تتوصل اليه ظفيرة .

هل يتحها ذلك ، العذر في أن تمارس ماتمارس ، سعيدة بالفساتين التي يحضرها لها منير بك ، ومتلذذة بامتطاء سيارته الفارهة والتنزه بها كأية سيدة غنية ؟؟

عندما كان التطلع الى (فوق) لذة الحلم القصوى لدى حمـــدي . . كانت ممارسة (حياة الفوق) لذة الواقع لدى ظفيرة .. ولكل مقابل .

حين يكثر الشك بها ويصارحها بما يحس ، تطلب اليه أن يطلقها . ينهال حمـــدي عليها بالصفع على كل مكان من جسدها ليتوقف عن ضربها بعد قليل.. كف عن صفعها ، و:ـ
« ولثم وجهها بحنان ووله ، فاستجابت له
ظفيرة مستسلمة استسلام النادم أيضاً . ثم ان
دموعها اختلطت بدموعه .. وكان الوصـــال
رائعاً ، كما كان في الأيام الخوالي » .ص١٤٣

استجابة ظفيرة ، جعلت الوصال رائعـاً ، كما في الأيام الخوالي قبل التعرف الى منير بك ..

ها هي ، إذاً ، اختارت حمدي .

في صباح اليوم التالي تسرع الى ممارسة اختيارهـــا الثاني ، أحضان منير بك ، حين عاد من سفره .

ظفيرة ، صارت ظفيرتين ، لا تشبه احداهما الأخرى . واحدة لحمدي وواحدة لمنير بك .

ظفيرة ، الأساسية الاولى - أين هي ؟ ، لا أحد يدري ... كان الواقع الاجتماعي - الذي التفت منه أسس النظافة والأمن — قد أخذها بدوامته ومضى .

حمدي ، كان قد آمن بأن زوجته عادت له بعد أن قتل شكه بأقدم الأسلحة وأكثرها طفولية : اليمين على أنها تحبه وتخلص له . فرضي تماماً بعد أن صدق القسم : -

« لثم الشفتين ، ثم لثم العينين ، وهو يردد لها : أحبك ، أحبك ، أحبك .. وأعقب هذا محاولات عديدة ، حتى تم الوصال بارتياح عميق أحس به ، بعد أشهر ، لأن ظفيرة استجابت له تماماً ، وبحيوية مفاجئة » . — ص ١٣٩ .

لم يفطن آنئذ الى أن استجابتها كانت بسبب سفر منير بك .

حين فطن عاوده الشك : —

« لم يعد يريد إشباع نهمه الى جسدها بقدر ما كان يريد اليقين. لهذا تشبث بجسدها أكثر » ص ١٣٩ .

بقيت شكه ويخشاه في آن معاً .

الذي يبدو ، هو أن ساحة ظفيرة لو برئت لعاني حمدي خيبة جديدة ، وبما أقسى من خيبته فيما تأكد من أنها تخونه . تماماً كما لو أن « غودوت — بيكت » لو كان جاء ، لعاني بطلا المسرحية خيبة أمل أخرى .

« مشى حمدي لايجرؤ على النظر حوله ، منكس الرأس . فمن حوله كان رجال ونساء وأطفال من أهل حيه . يعرفونه ويعرفون ظفيرة .

أراد الهرب من محط أنظارهم ، من الاحساس بوطأة مهانة ساحقة ، تفور في شرايينه في الوقت نفسه ، دماء الغضب والحقد . تسيطر

عليه فكرة صماء شرسة ، تحـاول افتراسه
بوحشية قاسية : — ظفيرة في حضن رجل
آخر الآن ! » — ص ١٤٦ .

حمدي إذاً ، لن ينتقم منها كما هي العادة . الا أن احساساً بالمهانة كان يسحقه . زوجته تخونه مع رجل غيره .. غيره في كل شيء .. من أين أتت به ظفيرة ؟ . ظفيرة لم تأت بالرجل الآخر . إن حمدي وأحلامه ، وراء ذلك جميعاً . ولهذا هو يتألم كل هذا الالم ، الذي لابد بالغاً به مكانة لاهوتية حيث حمدي — الانسان ارتكب خطيئة لاشفاء لها ولا سبيل الى افتدائها (٣) .

.. تبقى في « من يحب الفقر ؟ » مسألة أم .

هذا العالم المعاش الذي ترصده . شخصيتاه الرئيسيتان ، وباقي نمـاذج قوى قهر حمدي وظفيرة .. يرويه لنـا عبد العزيز هلال ، بتمهل باحث يلج نفسيات عناصره ، لنطالع سينمائية كاملة .. ترى .. تصور .. ثم تعطي .. ملتزمة في كل ذلك بالموقف الانساني وفي صف النظافة والامن .

لذا يصح أن نقول بأن الرواية ، قادرة على استحواذ عالية الانطباع ، لانها محلية المادة ، حتى لتكاد تلتصق بتراب حي « كفر سوسة » وممارسـات حي « أبو رمانة » التصاقاً يصعب نزعها عنها ... كما هي ممكنة الحدوث في أي مكان وأي زمان .

(٣) مفهوم توماس مان ، في الدكتور فاوست .

القضية الفلسطينية

والصراع العربي الاسرائيلي

هذا آخر كتاب صدر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت، وهو يشكل برمته فتحا جديدا في دراسة القضية الفلسطينية وتدريسها ، ويمثل جهدا جبارا قامت به جماعة من الباحثين في المؤسسة واستغرق العمل فيه ثلاث سنوات قبل دفعه للطبع وبكلمة موجزة انه موسوعة جديدة بل بالواقع اول موسوعة عربية في دراسة القضية الفلسطينية . يقع الكتاب في سبعمئة صفحة ونيف ويوجز في صفحاته ٤٥٨٠ تعريفا بكتاب ومقال في اللغات التالية : العربية ، العبرية ، الانكليزية ، الفرنسية ، الالمانية والروسية .

وكتاب البيبليوغرافيا هذا مقدم الى تسعة اقسام توازي التقسيمات الزمنية الرئيسية لتطور قضية فلسطين من عام ١٨٨٠ حتى نهاية عام ١٩٧١ وتركز عليها . وهي مقسومة بدورها الى ١٠٤ قسماً . كما تتخذ ايضاً قاعدة التقسيم العناصر الفاعلة في القضية او الذين لعبوا الادوار فيها وهم ـ عرب فلسطين . العرب الآخرون . الصهيونيون الاسرائيليون ، الدول العظمى . المنظمات الدولية ـ الخ . اما الاقسام التسعة فهي التالية :

١ ـ مصادر عامة حول قضية فلسطين .

٢ ـ الخلفية التاريخية .

٣ ـ تطور القضية الفلسطينية ، ١٨٨٠ ـ ١٩٤٧ : ويقسم الى ثلاثة اقسام :

أ) عرب فلسطين .

ب) الدول العربية وجامعة الدول العربية .

ج) التداخل الدولي في القضية الفلسطينية .

٤ ـ حرب فلسطين : قيام اسرائيل وطرد العرب الفلسطينيين ، ١٩٤٧ـ١٩٤٩ .

٥ ـ شعب فلسطين ، ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧ .

٦ ـ القضية الفلسطينية ، الدول العربية واسرائيل ، ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧ .

يتضمن هذا القسم :

أ) سياسات الدول العربية مدروسة في كل دولة .

ب) قضايا اسرائيل الداخلية .

ج) سياسة اسرائيل الخارجية .

د) التداخل الدولي .

٧ ـ حرب ١٩٦٧ .

٨ ـ قضية فلسطين . الدول العربية واسرائيل ، ١٩٦٧ ـ ١٩٧١ .

٩ ـ شعب فلسطين ، ١٩٦٧ ـ ١٩٧١ .

والهدف من هذا الكتاب المرجع (البيبليوغرافيا) هو تقديم مجموعة متوازنة من المصادر الاولية والثانية عن مختلف أوجه القضية الفلسطينية والتي يمكن بالاستناد

اليها استكمال هذا الكتاب في المستقبل وذلك باصدار ملاحق له . والتركيز الاساسي لهذا الكتاب هو على فلسطين كقضية سياسية منذ ان بدأت هذه القضية تتخذ أبعاد متزايدة سعة وعمقا خلال المئة سنة الاخيرة (١٨٨٠ — ١٩٧١) ، ولقد تضمن الكتاب بالاضافة الى ذلك في قسميه الاولين مصادر عامة في موضوعات تاريخية اقدم يمكن ان يحتاج اليها الباحث كمادة خلفية في تفهم القضية الفلسطينية . اما المصادر التي تعتبر جانبية بالنسبة للموضوع فلم يركز عليها .

والمصادر المشروحة فيهذا الكتاب تقتصر على المطبوع ما نشر وما لم ينشر ويشمل ذلك الكتب والمقالات في المجلات الدورية والصحف . وفيما يتعلق بالصحف فالكتاب يتناول صحيفة ما كوحدة دون الاشارة الى مقالة في صحيفة . اما المواد المطبوعة غير المنشورة كأطروحات الماجستير والدكتوراه والوثائق الحكومية والاوراق الخاصة فقد ذكرت عندما يكون في وسع القارىء أن يصل اليها . ولئن توقف الكتاب على نهاية العام ١٩٧١ لكنه يضم منشورات المؤسسة التي ظهرت عام ١٩٧٢ — ١٩٧٣ وبعض المنشورات الاخرى التي ظهرت خلال هذين العامين والتي تعتبر ذات أهمية خاصة بالنسبة لبعض المواضيع التي ادرجت تحتها

وهذا الكتاب لا غنى عنه بالنسبة للباحث والعالم والمدرس . الخبير الذي يريد أن يعمق خبرته . الاختصاصي بشؤون الشرق الاوسط . الصحافي الذي يتعرض كل يوم لوجه أو آخر من أوجه هذه القضية الفلسطينية . الطالب الذي يريد أن يوسع أفق معرفته ومداركه . العسكري الذي يعنى بالنواحي العسكرية والنفسية والفكرية على أنها جزء لايتجزأ من الحرب ، والتي اصبح يشار اليها في العلم الحديث بالحرب النفسية . رجل الاعلام الذي يريد أن يرفع مستوى الاعلام العربي بتغذيته بالثقافة والعلم . الرجل العادي الذي يريد أن يتعرف الى مادار او يدور حوله من أحداث التاريخ الكبرى . الديبلوماسي العربي الذي يتعرض في عمله في المؤتمرات الدولية لأساطين الفكر والسياسة وعليه أن يجابه الحجة بالحجة ويقرع البرهان بالبرهان. ابناء الجيل العربي الصاعد الذين يريدون أن يعرفوا تراث مأساة عربية .

هذا الكتاب الذي يكون كما قلنا موسوعة موجزة للقضية الفلسطينية والصراع العربي — الاسرائيلي هو مأثرة جديدة تضيفها مؤسسة الدراسات الفلسطينية الى مآثرها الكثيرة وانجازاتها القيمة في حقل الدراسات الفلسطينية ، وهو الى جانب ذلك كله حجر

أساس كبير بوضع لاقامة صرح الدراسات العلمية والمعالجات الفكرية الموضوعية للقضايا السياسية ، وسيكون هذا الكتاب مرجعاً في مراكز الفكر المسؤولة في العالم كما سيصبح مرجعاً للعرب أنفسهم .

ولا يسعنا اخيراً ونحن في صدد التعريف بهذا الكتاب الا أن ننوه بفضل جامعة الكويت لمساهمتها مع مؤسسة الدراسات الفلسطينية في الاعداد لهذا الكتاب واصداره لا سيما وان الجامعة قد ساهمت حتى الآن في منشورات أصبحت ثابتة في عمل المؤسسة أعني الوثائق السنوية الدولية عن فلسطين بالانكليزية وكذلك مجلة الدراسات الفلسطينية (Journal for Palestine Studies) التي أصبحت واسعة الانتشار .

* * *

بيان حول مؤسسة الدراسات الفلسطينية

القاه الدكتور قسطنطين زريق رئيس مجلس امناء المؤسسة

في جلسة الافتتاح

لاجتماع المجلس الخامس عشر

في الكويت في ٢٣ آذار (مارس) ١٩٧٤

لمناسبة مرور عشر سنوات على انشاء مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، **ينعقد مجلس أمناء المؤسسة في الكويت من ٢٣ الى ٢٥ آذار (مارس) ١٩٧٤ تلبية لدعوة عضو المجلس عطوفة** السيد عبد العزيز الصقر .

وبهذه المناسبة ، أصدرت المؤسسة كتيباً عنوانه «مؤسسة الدراسات الفلسطينية في عشر سنوات ١٩٦٣ — ١٩٧٣» تلخص فيه أهدافها وتنظيمها الاداري ونشاطاتها وانجازاتها في العقد المنصرم .

انشئت المؤسسة رسمياً في ١٩٦٣/١٢/١٢ في بيروت . واعضاء مجلس الامناء الذين أسسوها ويشرفون عليها هم مواطنون متطوعون من مختلف الدول العربية . والمؤسسة هيئة خاصة ليس لها أي ارتباط حكومي أو انتماء حزبي ولا تقصد الى الربح بل الى المنفعة العامة . والالتزام الاول الذي يهيمن عليها ويحدد أهدافها هو الالتزام القومي أي التمسك بالحق العربي في فلسطين وتبيان أغراض الصهيونية العالمية وسياسة اسرائيل ، وذلك بالبحث العلمي والتأليف والنشر والاعلام ، وواضح من قراءة الكتيب ان المؤسسة تستطيع أن تفخر بما حققته من انجازات حتى اليوم .

نذكر على سبيل المثال لا الحصر ان مكتبة المؤسسة أصبحت تحتوي الآن عشرة آلاف كتاب باللغات الانكليزية والعربية والعبرية والفرنسية والروسية والالمانية مما يعتبر مصادر علمية ضرورية لدراسة القضية الفلسطينية ، هذا فضلا عن آلاف النشرات والتقارير الرسمية المطبوعة والصور الوثائقية والأشرطة المصورة . ومن ميزات المكتبة انها متخصصة بالقضية الفلسطينية وبالحركة الصهيونية واسرائيل وهي تعني خاصة

بالاصول ومصادر المعلومات ، وتضم نسبة رفيعة من المخطوطات والمراجع باللغة العبرية، بعضها نادر الوجود حتى في اسرائيل نفسها . كما تضم كذلك مجموعات فريدة من الاوراق الخاصة بشخصيات سياسية عربية اودعوها المؤسسة .

بلغ مجموع الكتب التي اصدرتها المؤسسة في السنوات ١٩٦٠ ــ ١٩٧٢ مئة وعشرة كتب منها (٣٢) بالعربية (٦٧) بالانكليزية (٨) بالفرنسية وكتاب واحد بالاسبانية ، وتنظم المؤسسة جهودها من حيث النشر في :

(١) سلسلة الدراسات في موضوعات مهمة تتعلق بالقضية الفلسطينية .

(٢) الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية بالعربية وهو مرجع استعراضي تحليلي لاهم تطورات القضية الفلسطينية في المجالات الفلسطينية والعربية ، والدولية ، والاسرائيلية ، تساهم في اخراجه مجموعة من باحثي المؤسسة المتخصصين .

(٣) مجلة الدراسات الفلسطينية . بالاشتراك مع جامعة الكويت ، تصدر اربع مرات في السنة بالانكليزية ، ويساهم فيها عدد من الباحثين المتخصصين وقادة الرأي من السياسيين والمعلقين واساتذة الجامعات .

(٤) مذكرات وابحاث ميدانية ، في مواضيع طارئة او ملحة .

(٥) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية التي تصدر مرتين في الشهر وتتابع بانتظام تطورات الشؤون الاسرائيلية والصهيونية مأخوذة مباشرة عن الصحف والنشرات الاسرائيلية العبرية . ويصدر مع كل نشرة ملحق خاص يعالج موضوعات خاصة تتصل بتطور أهداف الصهيونية واسرائيل وخططها ونشاطاتها . ويعتبر هذا العمل أيضاً الاول من نوعه بالعربية .

(٦) سلسلة محاضر المؤتمرات الصهيونية والكنيست الاسرائيلي مترجمة من العبرية الى العربية وهو عمل رائد والاول من نوعه بالعربية .

(٧) سلسلة الوثائق الفلسطينية الدولية السنوية بالانكليزية، وتتضمن أهم مايصدر في السنة المعنية عن الدول غير العربية (بما فيها اسرائيل) من خطب وبيانات حول القضية الفلسطينية .

(٨) سلسلة الوثائق الفلسطينية العربية السنوية وتتضمن كل مايصدر في السنة المعنية عن الجهات العربية المسؤولة من خطب وتصريحات وبيانات حول القضية الفلسطينية ،

(٩) سلسلة قرارات الامم المتحدة ، وتضم آخر مجموعة قرارات المنظمة من ١٩٤٧ – ١٩٧٢ باللغتين الانكليزية والعربية .

(١٠) ببلوغرافيا القضية الفلسطينية تضم اسماء أهم المراجع والكتب والمقالات بست لغات وتقع في نحو خمسة آلاف عنوان مع شروحات مختصرة .

(١١) سلسلة الطبعات الجددة ، لاهم ماصدر في الغرب حول القضية الفلسطينية.

(١٢) سلسلة المقالات المجموعة ، لأهم المقالات الصادرة في المجلات الأجنبية حول القضية .

وتتعاون المؤسسة في اصدار هذه السلاسل مع جامعات وجمعيات علمية وطنية كجامعة الكويت والجامعة الليبية وجامعة الخرطوم وجامعة بيروت العربية والجامعة اللبنانية واتحاد الجامعات العربية ومركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري بابو ظبي ومركز الدراسات السياسية والستراتيجية في دار الأهرام وجمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت ولجنة السيدات العربيات للاعلام في بيروت .

ومن أوجه نشاط المؤسسة حضور المؤتمرات ، وتلبية دعوات الجامعات والمؤسسات العلمية الى القاء محاضرات ، والمثول أمام لجان التحقيق الدولية التي تبحث قضايا تتعلق بالصراع العربي الاسرائيلي ، وتدريس اللغة العبرية الحديثة ، واستقبال الباحثين من العرب والاجانب ، كما عمدت منذ انشائها الى تدريب عدد من الشباب العرب على وضع البحوث المتعلقة بالقضية الفلسطينية .

ونختتم هذا البيان بما ورد في مقدمة الكتاب العشري للمؤسسة فقد جاء فيه :

« ولئن تكن المؤسسة فخورة بما انتجت في السنوات السالفة فانها تعتبر ان هذا الانتاج هو دون مايجب أن يكون . وانما نجد من اختبارها ومن الامكانات المرتسمة أمامها ، ان لا حد لما تستطيع أن تقوم به باستثناء حد واحد هو الحد المادي . انها لا تستند الى مصدر مالي ثابت وعلى القائمين عليها ان يبذلوا الجهد المستمر لتأمين الموارد الضرورية لها سنة بعد سنة . وهكذا فان الاهتمام بالوسيلة يطغي في الواقع على الانصراف للغاية . هذا من ناحية ومن ناحية ثانيـــة فان الافتقار الى مورد ثابت يقف حائلاً دون التخطيط المنشود والواجب لتنظيم المشروعات على مراحل مستقرة ووفق نظرة ممتدة الى الامام ، باطمئنان » .

ولقد كان لدولة الكويت فضل كبير في تمكين المؤسسة من القيام بمهمتها . فلقد كانت باكورة التبرعات التي مكنتها من الانطلاق لتنفيذ مشروعاتها تبرعا بعشين الف دينار من المغفور له الامير الشيخ عبد الله السالم الصباح . وما زالت حكومة الكويت برعاية سمو اميرها الشيخ صباح السالم الصباح وبتوجيه سمو الامير الشيخ جابر الاحمد الجابر الصباح ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء تمدها بالعون المادى والتوجيه الادبي . كما تقوم المؤسسة بمشروعات بالاشتراك مع جامعة الكويت ، منها مجلة الدراسات الفلسطينية وببلوغرافيا القضية الفلسطينية ، والوثائق الدولية المتصلة بهذه القضية . وهي تعتز بانها تضم في مجلس امنائها شخصيتين بارزتين من رجالات الكويت هما عطوفة السيد عبدالعزيز الحمدالصقر والسيد عبداللطيف الحمد. فلا غرو ان يعقد هذا المجلس اجتماعه الخامس عشر في مدينة الكويت اعترافاً بما للكويت من اياد على المؤسسة ماضياً وحاضراً وتطلعاً الى مستقبل اغزر نتاجاً واوسع خدمة بفضل هذه الرعاية الكريمة والتأييد الادبي والمادي الذي نقابله بأثمن شكر وأصدق تقدير .

★ ★ ★

يوشيو

تأليف : زيامي موتوكي يو[1]
ترجمة : عدنان بغجاتي

الأشخاص .

السيد

تارو كاجا

جيرو كاجا

(١) زيامي موتوكي يو (١٣٦٣ - ١٤٤٣) أبرز كتاب مسرح النو الياباني لا تزال أعماله تمثل حتى الآن .

« السيد تارو كاجا وجيرو كاجا يدخلون الى المسرح عبر الجسر[1]، يجلس تارو كاجا وجيرو كاجا عند مقعد التقديم[2] . بينما يتجه السيد نحو عمود واكي[3] مقدماً نفسه » .

السيد : أنا سيد من هذه المحلة . أفكر في قضاء بضعة أيام في الجبـــال . سأستدعي خادمي الآن كيا أزودهمـا ببعض الارشادات حول ما يجب عمله أثناء غيابي .
تارو كاجا ! أين أنت ؟

تارو : هاأنذا يا سيدي .
« ينهض متجهاً نحو السيد وينحني أمامه »

السيد : ناد جيرو كاجا أيضاً .

تارو : نعم يا سيدي . جيرو كاجا ! السيد يطلبك

جيرو : سمعاً وطاعة .
« يتقدم أيضاً وينحني »

الاثنان معاً : نحن بين يديك يا سيدي

السيد : لقد دعوتكما لأني ذاهب لأقضي عدة أيام في الجبال . أريد منكما أن تهتما بشؤون البيت أثناء غيابي .

تارو : أوامرك مطاعة ياسيدي . إلا أنك عادة تصطحب واحـــداً منا في رحلاتك . واليوم أيضاً

---

(١) و (٢) و (٣) الأسماء المشار إليهـا وغيرها مما يلي مواقع على المسرح . للاطلاع على مخطط مسرح النو يمكن العودة إلى مجلة الموقف الأدبي العدد ١١ السنة الثالثة ص (٤٩) .

الاثنان معاً : فإن أحدنا يرغب في مرافقتك .

السيد : لا، هذا أمر مبتوت به. اليوم لدي شيء مهم استودعكما إياه وعليكما كليكما أن تحرساه جيداً . انتظرا .

الاثنان : حسناً يا سيدي

« يتوجه السيد نحو عمود عازف الناي لينقل برميلاً مستديراً مدهوناً بارتفاع قدمين . يضعه في وسط المسرح ، ثم يعود إلى وضعيته السابقة . »

السيد : هذا ما يعرف باسم بوسو . إنه سم قاتل . إذا ما هبت الريح نحوكما من جهته كان نصيبكما منه الموت العاجل . احرساه .

تارو : نعم يا سيدي

جيرو : معذرة يا سيدي إلا أن لي سؤالاً .

السيد : ما هو ؟

جيرو : لماذا تحتفظ بسم رهيب في الدار ؟

السيد : البوسو يحب سيده وما دام بين يدي سيده فليس منه أي خطر . أما إذا دنا أي منكما منه فلن يلقى سوى الموت المحقق . احذرا حتى هبوب الريح نحوكما من جهته .

جيرو : نعم يا سيدي

السيد : أنا ماض الآن

تارو : فلتنعم برحلة سعيدة .

الاثنان : ولا تطل الغياب .

السيد : شكراً

« السيد يتجه الى الجسر حيث يجلس عند السروة الأولى ، مشعراً انه اختفى . ينظر تارو وجيرو اليــــه يغيب ، ويجلسان في المنصة الخلفية من المسرح »

تارو : كان دائماً يأخذ واحداً منا معه . واني لأعجب لم خلفنا نحن الاثنين لرعاية شؤون البيت ؟.

جيرو : إني لأعجب لماذا

تارو : على كل حال من الموحش أن يبقى الواحد لوحده وما دمنا معاً اليوم فلنستمتع بالحديث ـ أوه !!

جيرو : ما الأمر ؟

تارو : هبت نسمة من ناحية البوسو !

جيرو : ياللهول !

تارو : فلنبتعد عنه أكثر .

جيرو : فكرة ممتازة .

« يسرعان نحو الجسر ثم يجلسان »

تارو : تماماً مثلما ذكرت من قبل ؛ ما الذي يدعو السيد للاحتفاظ بشيء قاتل ، حتى إذا هبت الريح من جهته سبب الموت الزؤام ؟

جيرو : مهما كان من حبه لسيده فأنا لا أفهم لماذا يحتفظ به ؟

تارو : أتعرف أني أرغب في القاء نظرة على البوسو . ترى ماذا يكون ؟

جيرو : هل جننت ؟ ألا تعرف أنه لو هبت الريح من ناحيته سبب الموت الزؤام ؟

تارو : فلنتوجه نحوه ونحن نهز مراوحنا نحوه مبعدين عنا الريح ، وبهذا الاسلوب لن تمسنا منه أية نسمة .

جيرو : فكرة عظيمة .

« يقف الاثنان ويعملان بمروحتيها هزاً شديداً باتجاه البرميل وهمـــا يدنوان منه »

تارو : حرك مروحتك بشدة

جيرو : أنا أفعل ذلك !

تارو : سافك الرباط من حوله الآن .. لذا حرك المروحة بشدة

جيرو : تماماً .

تارو : لقد فككته . الآن سأرفع الغطاء .

جيرو : بسرعة

تارو : استمر بهز المروحة .

جيرو : أنا مستمر .

تارو : انتهينا ! « يهربان الى الجسر » لقد نجونا

جيرو : نجونا من ماذا ؟

تارو : مؤكد أنه ليس حيواناً وإلا كان قفز خارج البرميل .

جيرو : لعله يتظاهر بالموت .

تارو : سألقي عليه نظرة

جيرو : فكرة عظيمة

« يتقدمان من البرميل مثل المرة الماضية »

تارو : هز مروحتك بشدة

جيرو : أنا أفعل ذلك .

تارو : سألقي عليه نظرة لذا حرك المروحة بشدة .

جيرو : تماماً !

تارو : لقد رأيته ! لقد رأيته (يجريان كما في المرة الماضية الى الجسر)

جيرو : ماذا رأيت ؟

تارو : شيئاً ذا لون رمادي غامق يبدو أنه يؤكل . أتعرف أنني افكر في ان اتذوق البوسو ؟

جيرو : كيف تفكر ان تأكل من شرو ؟ يمكن ان تقتلك رائحته اذا حملتها اليك الريح ؟

تارو : لا بد أنني سحرت بالبوسو . ولا افكر الا بأكله . سأذوقه .

جيرو : إياك .

(يمسك جيرو تارو من كمه ويحاول تارو التملص منه)

تارو : دعني

جيرو : لن ادعك

تارو : اقول لك : دعني

جيرو : اقول لك : لن ادعك

(يحرر تارو نفسه ويتقدم من البرميل . يستخدم مروحته كملعقة لاستخراج ما في البرميل) .

تارو : (يغني) يلوّح بأردان الوداع آسفاً .. ها قد وصلت الى حافة البوسو .

جيرو : وا أسفاه الآن يلاقي حتفه

تارو : آه إني اموت . اني اموت « يسقط على الأرض »

جيرو : كنت على يقين من ذلك . تارو جاكا ما الأمر ؟ « يندفع نحوه »

تارو : ما ألذ طعمه . أنا اموت « ينهض » .

جيرو : ترى اي شيء هو؟

تارو : سكر .

جيرو : دعني اذوقه .

تارو : تفضل .

جيرو : شكراً انه حقاً سكر .

« يأكل الاثنان مستخدمين مروحتيهما لاخواج البوسو . يلاحظ تارو أن جيرو يلتهم البوسو التهاماً ، فيحمل البرميل نحو عمود واكي . جيرو يتابع المضغ ويتقدم الى البرميل ويحمله الى عمود المواجهة »

تارو : لا يجوز أن تأكله كله لوحدك . اترك لي بعض الشيء .

جيرو : لا ، انت بدأت الأكل قبلي . أريد المزيد .

تارو : فلنأكلـه معاً

جيرو : فكرة ممتازة

« يضعان البرميل بينهما »

تارو : لذيذ ! أليس كذلك ؟

جيرو : حقاً لذيذ !

تارو : لقد قال السيد انه بوسو ظاناً اننا لن نأكل منه . هـذا تصرف غير لائق منه .. كلْ ، كلْ .

جيرو : انه تصرف غير لائق ان يقول لنا إننا سنموت فوراً اذا ماتنسمنا رائحته ، كلْ ، كلْ

تارو : لا استطيع التوقف عن الأكل .

جيرو : يبدو كأن أحنا كنا ارتخت اليس كذلك ؟

تارو : كلْ ، آه .. لقد نفذ .

جيرو : نعم نفذ

تارو : لك ان تفخر بنفسك

جيرو : افخر بنفسي ؟ انت اول من نظر الى البوسو واول من أكل منه . سأخبر السيد بذلك حال قدومه .

تارو : انا امزح معك . الآن مزق هذا الكاكيمونو(١)

جيرو : طيب

« يتجه نحو عمود واكي ويقوم بحركات تومي الى انسه يزق الكاكيمونو »

تارو : مرحى .. اولاً نظرت الى البوسو ثم أكلت منه والآن مزقت كاكيمونو السيد . سأخبره بكل ذلك حال وصوله .

جيرو : انما فعلت ذلك كله بأمرك ، وسأخبر السيد بذلك .

تارو : انا امزح معك مرة اخرى . هيا حطم هذا الإناء

جيرو : لا لقد قمت بما يكفي حتى الآن .

تارو : إذن فلنحطمه معاً .

(١) رسم أو كتابة على الحرير أو الورق

جيرو : طيب .

« يتجهان الى عمود المواجهة ويقومان بحركات تومىء الى حملها إناء ضخماً ثم القائها إياه على الارض »

تارو : آه ــ اصبح شظايا

جيرو : اي عذر يكن ان نقدم الآن .

تارو : اذا عاد السيد فأول مايجب ان نفعله هو الانفجار بالبكاء

جيرو : وهل ستجدي الدموع

تارو : طبعاً دون شك .. سيعود قريباً . تعال الى هنا

جيرو : طيب

« يذهبان الى المنصة الخلفيـــة من المسرح ويجلسان . ينهض السيد ويبتدى الكلام عند السروة الاولى »

السيد : أنجزت أعمالي الآن . ويخيل إلي أن خادمي ينتظران أوبـتي . سأسرع إلى البيت . آه ، هأنذا في البيت . تارو كاجا جيرو كاجا أنا عدت !

« ينتقل إلى قرب عمود واكي »

تارو : لقد عاد هيا إبدأ البكاء « يبكيان »

السيد : تارو كاجا جيرو كاجا أين أنتما ؟ ماذا يجري هنا ؟ بدلاً من أن يسرا بعودتي أجدهما يبكيان . ماذا حدث ؟ أعلماني بسرعة .

تارو : جيرو كاجا أخبر أنت السيد

جيرو : تارو كاجا أخبر أنت السيد

السيد : أيا كان منكما فليخبرني الآن ، بسرعة !

تارو : طيب . إليك ما حدث . ما كنت أتصور أنني يمكن أن أنام وأنا أقوم بواجب الحراسة . لكن النعاس غلبني . ومن أجل أن أبقى صاحياً قلت أخوض مع جيرو مباراة صراع . كان قوياً . ودفعني إلى الأرض وكيلا أطرح أرضاً تمسكت بالكاكيمونو فتمزق كما ترى .

السيد : ما أسوأ ما اقترفت يداك « ينظر إلى عمود واكي متعجباً » كيف تمزق كاكيمونو ثميناً بهذا الشكل ؟

تارو : عندئذ دفعني إلى الخلف ورماني على حامل الإناء ، فتحول الإناء إلى شظايا .

السيد : ما أسوأ ما اقترفت يداك « ينظر إلى عمود المواجهة بتعجب » لقد كسرت إنائي الثمين ماذا سأفعل ؟

تارو : كنا نعلم أنك عائد وفكرنا ألا نبقى على قيد الحياة وهكذا أكلنا البوسو على أمل أن نموت . أليس كذلك يا جيرو كاجا ؟

جيرو : بالضبط .

تارو «مغنياً» : لقمة ولم يأت الموت

جيرو «مغنياً» : لقمتين ولم يأت الموت

تارو «مغنياً» : ثلاث لقمات اربع لقمات

جيرو «مغنياً» : خمس لقمات

تارو «مغنياً» : أكثر من عشر لقمات

« ينهضان ويأخذان في الرقص »

الاثنان «يغنيان»: أكلنا الى ان لم يبق شيء
ولكن الموت لم يأت
وياللعجب
آه يالهذا الرأس الذكي !

«يتقدمان من السيد وهما يهزان مروحتيها . بسرعة يضربانه على رأسه بالمروحتين ، ثم يركضان ضاحكين »

السيد : ماذا تعنيان بالرأس الذكي ؟ أيها الوقحان اين تذهبان ؟ اقبضوا عليهما.
لن تنجوا ابداً !

الاثنان : سامحنا . سامحنا .

★ ★ ★

الحكاية المرحة في الأدب الشعبي المغربي

صلاح الدين الخالدي

تختلف اللغات الانسانية في مبلغ انتشارها اختلافاً كبيراً ، فمنها ماتتاح له فرص موائية فينتشر في مناطق شاسعة من الأرض ، ويتكلم به عدد كبير من الشعوب ، كما حدث للغة العربية في العصور الوسطى ، مما استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلاً ، فلم تلبث أن تشعبت الى لهجات وأخذت كل لهجة

من هذه اللهجات في سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها ، فلم تلبث مسافة الخلف أن اتسعت بينها وبين أخواتها حتى اصبحت كأنها لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها ، وبذلك يتولد عن اللغة الاولى فصيلة أو شعبة من اللغات يختلف أفرادها بعضهم عن بعض في كثير من الوجوه ، ولكنها تظل مع ذلك متفقة في وجوه اخرى . وكثيراً مايبقى الاصل الاول لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منه .. وهذا ما حصل للغة العربية إذ أنه لكل شعب من الشعوب العربية لهجة تخالف لهجة الشعب الآخر ، فلهجة مصر تخالف لهجة بلاد الشام ، وهما تخالفان لهجة العراق وهذه تخالف لهجة بلاد المغرب غير أنه مما قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوي ، بقاء العربية الاولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين ، ثم انه بالاضافة إلى العامل الرئيسي في تفرع اللغة إلى لهجات ، وهـــو عامل انتشارها ، فـإن هناك عوامل أخرى مساعدة ترجع إلى :

١ - عوامل اجتماعية سياسية تتعلق باستغلال المناطق التي انتشرت فيها اللغة بعضها عن بعض وضعف السلطان المركزي الذي كان يجمعها ويوثق مابينها من علاقات . وذلك أن اتساع الدولة وكثرة المناطق التابعة لها ، واختلاف الشعوب الخاضعة لنفوذها .. كل ذلك يؤدي غالباً إلى ضعف سلطانها المركزي ، وتفككها من الناحية السياسية ، وانقسامها إلى دويلات أو دول مستقل بعضها عن بعض . وغني عن البيان أن انفصام الوحدة السياسية يؤدي الى انفصام الوحدة الفكرية واللغوية ..

٢- عوامل اجتماعية نفسية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ومبلغ الثقافة ومناحي التفكير والوجدان. فمن الواضح ان الاختلاف في هذه الامور يتردد صداه في أداة التعبير .

٣ ـ عوامل جغرافية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها . وما إلى ذلك ، وفيما يفصل كل منطقة منها عن غيرها من جبال وانهار وبحيرات وبحار .. وهلم جرا ، فلايخفى ان هـــذه الفروق والفواصل الطبيعية تؤدي عاجلا او آجلا الى فروق وفواصل في اللغات .

٤ ـ عوامل شعبية تتمثل في مابين السكان في المناطق المختلفة من فروق في الاجناس والفصائل الانسانية التي ينتمون إليها والاصول التي انحدروا منها ، فمن الواضح ان لهذه الفروق آثاراً بليغة في تفرع اللغة الواحدة الى لهجات ولغات ،

٥ ـ عوامل جسمية فيزيولوجية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في التكوين الطبيعي لاعضاء النطق ، فمن المحال ، مع فروق كهذه ، ان تظل اللغة محتفظة بوحدتها الاولى امداً طويلا .

وبالنسبة للغة العربية فإن عنصر الوحدة اللغوية ظل متوفراً في الوطن العربي بجميع وحداته السياسية وبين الغالبية العظمى من سكانه ، على الرغم مما حاوله الاستعمار ويحاوله من رميهم بالطائفية والاقليمية ومحاولته تشجيع اللغة العامية ومحاربة اللغة العربية الفصحى كما فعل في بلاد المغرب العربي خاصة حيث جعل شعاره « فرق تسد » فحاول التفرقة بين العرب والبربر وهما اساس تكوين الشعب في المملكة المغربية ، والبربر شعب اصيل يسكن شمال افريقيا منذ القدم ويكثر عادة في الجبال والمناطق الصحراوية وعلى الرغم من استحالة التدليل على وحدة الاصل بين قبائل البربر فإن وحدة اللغة قائمة بينهم . وإذا كنا لانعرف إلا القليل عن لغة البربر القديمة ، فإن هذا القليل يمكننا من القول بأن اللهجات التي كانت مستعملة قديماً لاتختلف فيما بينها اكثر من اختلاف اللهجات المستعملة اليوم بين البربر ، والنقوش القديمة وحدها هي التي يمكن ان تمهد لنا السبيل الى

معرفة هذا الموضوع ، ولكن مما يؤسف له ان هذه النقوش لم تحل رموزها بعد ، وان المحاولات التي بذلت لقراءتها لم تسفر عن نتائج مرضية . وقد جمع هذه النقوش فيدهيرب Faidherbe عام ١٨٧٠ م بعنوان Colle ction Compléte des Inxription numidiques ومن ذلك الوقت لم تمر سنة دون ان تكتشف فيها نقوش اخرى ، والرأي الشائع اليوم ان حروف الهجاء الليبية ترجع إلى اصل فينيقي لانه اول دولة اتصلت بالمغرب في القديم هي الدولة الفينيقية السامية ، وبأخبار هذا الاتصال يبتدىء تاريخ المغرب .

كان الفينيقيون شعباً متمدناً يشتغل بالتجارة وله بحرية منتظمة واساطيل تجارية وحربية عظيمة كانت تقصد بلاد غرب اوروبا لبيع سلعها وشراء المواد الخام، وكانت مراكبهم لبعد المسافة تضطر الى الالتجاء الى مواسي افريقيا الشمالية ،وهذا أول تعرف البرابرة بهذا الشعب فنتجت من هذا الاتصال علائق تجارية بين اهل المغرب والفينيقيين وذلك في اواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد . بقيت علائق الفينيقيين مع المغاربة على هذه الصورة نحو القرنين ثم اقبلوا على سكنى المواسي التي اسسوها على الشواطىء المغربيـــة الا انهم لم يقطعوا علائقهم مع وطنهم الاول ، واسسوا بتونس مرمى دعوه قرط هداجت (اي المدينة الجديدة Qart Hadasha وموقعها على خليج مناسب (خليج تونس) يحميه رأسان من الشرق والغرب ، وقرب منطقة خصبة تشتهر بالقمح ، واسطورة تأسيسها من قبل سكان مدينة صور الفينيقية بزعامة (ايليسا) ابنة ملك صور التي هربت من ظلم اخيها (بجماليون) اسطورة معروفة ..

وقد بلغت المدن المغربية في عهد القرطجنيين خصوصاً تينجي وليكسوس (طنجة والعرائش) رقياً كبيراً وأقبل المغاربة من سكان الشواطىء على تعلم الفينيقية واقتبسوا من القرطجنيين اساليب جديدة في الفلاحة وتربيـــة المواشي

والصناعات وتعلموا استخراج المعادن ، وكانت عاداتهم واخلاقهم متقاربة إذ كان يجمعهم اصل واحد فساعدت هذه الظروف على سهولة الامتزاج بين الشعبين . .

وهكذا كان تأثير القرطجنيين على المغاربة كبيرا رغم كون المغرب من الناحية السياسية لم يدخل تحت سلطتهم مطلقا ولم يكن في يوم من الأيام مستعمرة فينيقية ولا قرطجنية . . . .

وقدبَطُل استعمال الابجدية الليبية في الجهات الشمالية من المغرب بعد الفتح العربي .

فاللغة البربرية هي فرع من اللغات الكوشية (الحامية) التي تمت بالصلة إلى اللغة السامية وهي لايزال يتحدث بها إلى اليوم سكان بعض المناطق التي تقع بين واحة سيوه والمحيط الأطلسي ، ومن منبع نهر النيجر حتى البحر المتوسط . . ولكنها ليست وحدها اللغة السائدة بين سكان تلك المناطق الشاسعة وانما إلى جانبها اللغة العربية التي أخذت بالانتشار بينهم إثر غزوات بني هلال في المائة الخامسة ، اختلط البربر بالعرب في السهول والهضاب ، تاركين لغتهم ، وعاداتهم ، وفقدوا اسمهم القديم واستعربوا ،وانضم الى هؤلاء البربر ، اللاجئون من جميع الاجناس ، وبمضي القرون امتزجت السلالات العربية بالسلالات البربرية امتزاجاً قوياً ، وانتج هذا التمازج شعوباً هي خليط من هذين الاصلين ، والقوم الذين يسمون بـ « البربر المستعربين » و « العرب البربريين » هم اقوام موجودون بالفعل ولكنه يصعب تمييز الفوارق بينهم للمتخصصين من علماء الأجناس . . وهكذا اغرقت الموجات اللغوية التي اتى بها العرب الى المغرب لغة البربر ، وانه تكاد تنحصر الآثار اللغوية البربرية الآن في صفات حيوية خاصة أو بضع كلمات تعبر عن بعض المهن أو عن أشياء اختصت بها البيئة المغزوة من حيوان ونبات وأسماء أعلام . . واللغة البربرية

لغة حديث لا لغة كتابة وان معظم الوثائق المكتوبة التي عثر عليها في مناطق البربر مكتوبة بالعربية .

أما عن الأدب البربري الخالص كالقصص والأغاني والشعر ، فهو في جوهره يعتمد على الرواية وسيظل الاحتفاظ به موكولاً إلى الذاكرة الإنسانية . . وسنقصر بحثنا هذا على القصص الشعبي في الادب المغربي . .

والقصص الشعبي عادة من حيث اتجاهه يكاد يتفق مع القصة الحديثة في أهدافها ومراميها ، إلا أنه يمتاز بالخيال الذي يخرج القصة أحياناً عن حد المعقول.

والقصص تمثل طريقة تفكير شعب من الشعوب أو تكشف عن اتجاه حياته ومعاملاته وصفاته العامة والخاصة . . كما أنها تحفظ لنا طريقة تفكير القدامى من أهل زمانها ، وتطلعنا على كثير من ألفاظهم وتعبيراتهم وتوضح لنا حياتهم العامة والخاصة في شكل رواية يتناقلها الخلف عن السلف ، فهي حقل واسع للدراسات اللغوية والاجتماعية . . وسنقصر بحثنا هذا على القصص أو الحكايات المرحة لأن هذا الضرب من الحكايات الممعنة في القصر يدور غالباً حول الحياة اليومية ، وإذا كانت الشخصيات البارزة في هذه الحكايات تتسم ببطء الاستجابة الشرطية لواقع الحياة وتتخذ هيئة الحيوان وسلوكه حيناً فإنها انسانية الشخوص والاحداث في معظم الاحيان . وتغلب على هذه الحكايات المفارقات التي يستحدثها الغباء أو البلادة أو الخدعة ،وقد يكون موضوعها ماجناً . وهي خالية من التعقيد ولها محور رئيسي واحد قلما تتجه إلى الخارق وهي تنزع الى التجمع حول شخصية واحدة أو مجموعة محدودة من الناس وتعرف في الحياة العربية بالنوادر :

نوادر الظرفاء — السكارى — البخلاء — المغفلين . . . الخ .

نوادر جحا وتعرف أيضاً في الحياة الشعبية وبخاصة اذا كانت مفرقة —

وثمرة مواقف معينة او ظروف معينة بالنكتة (اي الشيء الصغير جدا) وامثال هذه الحكايات مريحة الانتشار والحفظ ، لما فيها من مفارقـــة تثير الانتباه والضحك معاً . .

ويذهب بعض الدارسين إلى ان بعض هـذه الحكايات المرحة ظل يتردد على السنة الناس اربعة آلاف سنة او تزيد وبلغ من انتشار بعضها انه اصبح مشهوراً ومردداً في جميع انحاء العالم . . ومما كثر الحكايات المرحة التي سجلها او اكتفى بالاشارة إليها العلماء المتخصصون في الآداب الشعبية الأوربية . ولقد اعترف بعض هؤلاء العلماء ان اقاطاً من هذه الحكايات لايمكن ان تكون إلا شرقية الأصل . . وتركزت بعض الصفات حول شخصيات مشهورة في التاريخ او الأدب او الحياة تركزت حول الشاعر الماجن ابي نواس وتركزت حول ابي الغصن جحا الفزاري . . ومن العجيب ان نوادر ابي نواس وجحا اختلطت حتى اصبح من العسير تمييزها .

ولقد نفذت هاتان الشخصيتان من حدود العالم العربي ويقول بعض المستشرقين ان جحا معروف في نيجيريا وان ابا نواس مشهور في شرقي افريقيا ، وحسبنا ان نذكر اهم شخصية في الحكايات المرحة العربية وهي شخصية جحا الفزاري الذي قيل انه عاش في عصر هارون الرشيد ، وهـو الذي انتقلت شخصيته الى الأدب الشعبي التركي باسم جحا الرومي وهو نصر الدين خوجة الذي عاش في عصر السلاجقة . . وقد الى صقلية باسم « جيوفة » او « جيوشه » وفي مالطة جوجن . . وهكذا . الأدب المغربي لم يخلو من الشخصية العالمية « جحا » فقد اتحفنا بكثير من قصص هذه الشخصية المرحة التي تبرز حقيقة الحياة عن طريق الفكاهة .

وفيما يلي بعض هذه القصص عنه وقد ذُيّلت كل قصة منها بنص عربي فصيح وبمقارنة بسيطة بين النص المغربي والنص العربي يقف القارىء على مدى قرب اللهجة المغربية من العربية الأم .

جْحَا بَاعْ دَارْ وْخلاّ لْمَسْمَارْ

جْحَا كانَتْ عَنْدُ وَاحدْ دَارْ . مُنْ بْعَدْ جَا يْبِيعَ لْوَاحدْ لْفَاسِ ، جَاهْوَ قَالْ لُ أنا نْبِيعْ لَكْ ذَ دَارْ وْلَكْنْ لْمَسْمَارْ دْيَالِ مَاشِ نْبِيعُ لَكْشِ جَاهْوَ قَالْ لُ وَخْ ، جَابْ لْعَدُولْ يْشَهْدُ عْلِيـهْ إلاّ مَاهْوَ لْمَسْمَارْ دْيَالْ جْحَافْ مُوطْعْ . جْحَا مْشَ فْحَالُ .

أدنا لفاس عند لعرس دبنت ، منين خلا لعرس عند افـاس ، مش هو مات ل واحد لحمار ؤمنين مات ل ديك لحمار جاب لدار دلعرس ، بد حيـد حيد بالك بالك ، ناس قال ل : فين ماش ؟ قال لم حيـد عطوني طريق نجوز تلمسمار ديال . قال صبر نعيط عل مول لعرس ، جامول لعرس وقال ل : شنو هد جحا؟ قال ل كيف تعد لنا أنا ونتين ، وقال ل جحا أنا بعت لك هد دار ولمسمار مابعت لكش . جا لناس قال ل : الله يهديك آجحا خرج علينا هـد لحمار جايف وحشوم علينا نقو هد نسم نناس ومنين يجوز لعرس آجي ندار ديالك ونا لنسامح لك فـ تمن للي قبطت فيها . جا هو قال ل « لأ » أنا نخصني لحمار ، ديال يبات فموطـــع ف لمسمار ديال ، ولا خصك نعب الحمار ، جيب لعـدول يشهد على هـد لكلام . قال ل وخ وجاب لعدول وقال لم شهد عل هـد لإنسان من مور لعرس كيخو ل دار ديال بـلا تبـع ولا متبوع . ؤمنين جاسكن فيها قـــال لحبيب دار ديال ماسختش بيك ، ومنين كان كيموت قال لم دار ديال مايسكن فيها حتى واحـد أنا كنسبل،للحبوس دبلارج .

ترجمة عربية فصحى
باع جحا الدار وخلا المسمار

شرع جحا في بيع دار يملكها الرجل فاسي ، وقال له ، « سأبيع لك الدار فقط اما مسماري فلن ابيعه » . وافق الفاسي على ذلك ، واتى بالموثقين يشهدون على ان مسمار جحا في موضعه ، وغادر جحا الدار .

كان عند الفاسي حفلة عرس لابنته مات اثناءها حمار جحا ، فأحضره لدار العرس ودخله منادياً « ابتعد ابتعد . . احترس . . احترس » فقال له المحتفلون « اين تذهب ؟ » قال لهم « ابعدوا . . اعطوني طريقاً لأذهب مسماري » قالوا له « اصبر حتى ننادي صاحب العرس » ولما حضر صاحب العرس قال له « ماهذا ياجحا ؟ » فقال له « كما اتفقنا ، انا لم ابع لك غير الدار ، اما المسمار فهو ملكي لم ابعه لك » قال له الفاسي « هداك الله ياجحا .. اخرج هذا الحمار الجائف ، ومن العار ان نقدم هذه الرائحة للناس ، ولمائدة العروس . تعال لدارك وسأسامحك في الثمن الذي قبضته فيها » فقال له جحا « لا . . إن حماري لابد ان يبيت في مسماري ، وإذا اردت ان اخرج بالحمار . . . احضر الموثقين يشهدون على هذا الكلام » قال له « نعم » واحضر الموثقين وقال لهم جحا « اشهدوا على هذا الإنسان الذي سيخوي داري بعد العرس بغير ماشرط » . وعاد جحا لداره .

ولما سكن فيها قال : « ياداري الحبيبة لن اسخو بك » ، ولما حان موته قال لهم « داري ، لايسكن فيها احد . . سأجعلها سبيلاً موقوفاً على بلارج »[1].

(١) بلارج : طائر معروف في مصر باسم البشروش . .

جْحَا عْمِلْ وَاحدْ لْغْبْرَ

قَالُ لْ جْحَا كَيْحْتَاجْ تْبَاتْ فْ صُّومْعَ، طْلَعْ جحَا لصومَعَ وْجَاهْ لْبْرْدْ، قَالْ لْمْ فِيّْ لْ بْرْدْ حْقْنِي نْسْخْنْ قَالْ: لْ إلاّ خْصّكْ دْسْخْنْ دَهْي لْعَافْي، جَا قَالْ لْمْ وَخْ، جْوّزْ دِيكْ لْيّلْ فْ رْحْمْ دِللهْ مْوجْحَا جْحَا هْبَطْ مْ صُّومْعَ فْ صْبَاحْ، وْقَالْ لْمْ آجِيوْ عْنْدِ تْغْدّوْ مْعَايَ ـ بَاشْ مْنِينْ هُوَ صْبَحْ بْرُوحْ ـ جَاوْ تْعَنْدْ وُجْلْسُ مْعَاهْ كَيْتْنْهَاوْدَ وْعْيَوْ بْلْمْنْهَا وْدَوّشْ غْدَ مَاوْجِدْ جْحَا عْمَلْ لْمْجْمَرْ فْ وْسْطْ دّارْ، وتْنْجَرْ فْ نْبَّاحْ دِلْفُوقِي والْكْسْكَاسَ فْ دّارْ دِسْطْحْ. قَالُ لُ تْنْجْرَ فْ نْبَاحُ دِلْفُوقِي، وْلْمْجْمَرْ وْسْطْ دّارْ وْلْكْسْكَاسْ فْ دّارْ دِسْطَحْ: عْمْرَكْ شْفْتْ هَـدْ؟ قَالْ لْمْ إِيّه، هُوَ هَايْدَكْ جْحَا لْلّي كَانْ كَيْسْخْنْ عْلْ ضْهْرْ لْعِينْ.

ترجمة عربية فصحى : جحا يرد الخدعة

قالوا لجحا : يجب أن تبيت في المئذنة ، فصعد جحا إلى المئذنة ، ولما جاءه البرد قال لهم : « يلزمني الدفء » فأجابوه « إذا لزمك الدفء فهاك النار ، ادفأ بالعين » . فقال لهم : « حسناً » وقصة الليل في رحمة الله ، هبط جحا من المئذنة في الصباح ، وقال لهم : « تعالوا نتغدى معاً ـ بعد أن كتبت له الحياة ـ فذهبوا عنده ، وجلسوا يتسامرون ، وتعبوا من المسامرة ، ولم يجدوا أي غداء ، فقد وضع جحـــا المجمر في وسط الدار ، وقدر الطبخ في الطابق الأوسط والكـسكاسة [1] في السطح ، فقالوا له : « المجمر في وسط الدار وقدر الطبخ في

---

(١) الكسكاسة : قدر للطبخ يتكون من قطعتين الاولى لغلي الماء والثانية فوقها يوضع فيها طعام الكسكس ليطيب .

الطابق الأوسط ، والكسكاسة في السطح ، هل رأيت مثل هذا في حياتك ؟ » قال لهم : « نعم .. هكذا .. هكذا كان جحا يتدفأ بالنظر ..

وهكذا فإن بلاد المغرب حفظت التراث العربي في كل مسجد وزاوية ودار فهي درع العروبة وهي جناح الأمة العربيـــة الغربي حيث أرض النضال العنيف والكفاح المجيد في سبيل الاستقلال الذي ناله الشعب في المملكة المغربيـة بزعامة فقيد العروبة محمد الخامس ..

واليوم .. لم ينس نجل الفقيد الملك الحسن الثاني دوره في قومية المعركة فأرسل أبطاله أحفاد عقبة بن نافع وطارق بن زياد لمواجهة العدو الصهيوني على خط النار ليقفوا جنباً إلى جنب مع اخوانهم العرب السوريين ..

المراجع :

« التعريف بالمغرب » الاستاذ محمد الفاسي
«لهجة شمال المغرب :تطوان وما حولها » د . عبد المنعم سيد عبد العال
« دائرة المعارف الاسلامية » المجلد السادس (٤٨) مادة البربر
«المقاومة في الادب الجزائري المعاصر» الأستاذ عبد العزيز شرف
« فقه اللغة » د . علي عبد الواحد وافي
« اللغة والمجتمع » د . علي عبد الواحد وافي
« الحكاية الشعبية » د . عبد الحميد يونس

أفلاطون والطاولة

صفوان قدسي

نشرت مجلة الآداب اللبنانية في عددها الأخير «حزيران» تعليقاً للدكتور طيب تيزيني تحت عنوان «ملاحظات حول مفهوم الحضارة لدى زكي نجيب محمود»، وهو عبارة عن مناقشة للدراسة التي قدمها الدكتور زكي نجيب محمود في ندوة «أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي» التي انعقدت في الكويت في أوائل شهر نيسان الماضي .

وبصرف النظر عن الحقيقة القائلة ان هـذه المناقشة لا ترقى بحال من من الأحوال الى مستوى الدراسة التي هي موضوع المناقشة . وبصرف النظر ، مرة اخرى ، عن المنطق الذي استند اليه السيد المعلق في مناقشته للدراسة المذكورة، وهو منطق يقوم على التعميم ، واطلاق الأحكام الجاهزة ، والتعصب الضـرير لأفكار معدة سلفاً . وبصرف النظر ، مرة ثالثة ، عن اللغة التي يستعملها السيد المعلق والتي تفتقر الى الحد الأدنى من الدقـة والمقدرة على وضع الكلمات في مواضعها المناسبة ، بل وحتى الالتزام بقواعد اللغة العربية [١] ... بصرف النظر عن ذلك كله ، فإن المشكلة الحقيقة ليست هنا . المشكلة الحقيقية ليست مضمرة في مستوى المناقشة ولا في لغتها ، ولا في الأحكام الجاهزة التي يلقيها السيد المعلق جزافاً دون ان يبحث لها عن سند من الواقع نفسه ، ولا في التعصب غير المبصر لأفكار معينة يقرر الكاتب ، بالتصريح أو بالتلميح ، انها الأفكار الوحيدة الصحيحة . المشكلة كلها ليست هنا ، وان كانت هذه تشكل جوانب هامة من المشكلة . وانما المشكلة الأساسية تبدو واضحة عندما يحاول السيد المعلق أن يحيل القارىء الى نصوص ليس لها وجود على الاطلاق . المشكلة تبدو واضحة عندما ينسب السيد المعلق الى أفلاطون ، على سبيل المثال ، كلاماً يستطيع أي مبتدىء في قراءة الفلسفة ، وأي ملم إلماماً سريعاً بفلسفة أفلاطون ونظريته في « المثل » أن يكتشف الى أي مدى ذهب السيد المعلق في عملية احالة القارىء الى أفكار ليست لها علاقة بمن تنسب اليهم .

(١) اقرأ العبارة الآتية التي تحتوي على خطأين نحويين فاضحين :

ليس هناك أسبقية لواحد من الطرفـين على الآخر . كلاهما ضروريان لاستكمال عملية التكوين الحضاري . (الصواب : كلاهما ضروري) . ومن هنا يبدو الحديث عن ان العقل هو العنصر الكافي والضروري لبناء الحضـارة بجرد عن أي معنى . (الصواب : مجرداً) .

ولنقرأ النص التالي بشيء من الامعان : ان الطاولة في رأي أفلاطون ، مؤسس الفلسفة المثالية الموضوعية ، لا تتمتع بوجود فعلي ، أما الذي يتمتع بهذا الوجود فهو « الفكرة » عن الطاولة .

ان القارىء ، مهما تكن علاقته بالفلسفة أو بأفلاطون ، لا بد وأن يقف حائراً أمام هذا النص . هل يسلم بصحة الرأي المنسوب إلى أفلاطون ، وعند ذلك يتحول أفلاطون ، بشكل أو بآخر ، إلى فيلسوف ليس لما يقوله أي معنى ذو قيمة ، بل تصل فلسفته الى درجة التفاهة ، لأنه ما من عاقل يستطيع أن يقول عن هذه الطاولة التي توجد أمامه انه ليس لها وجود ، وان الذي يتمتع بهذا الوجود هو الفكرة عن الطاولة . هذا كلام لا يقوله غير المجانين الذين فقدوا مقدرتهم على الاحساس بالواقع .

لقد قرأت مئات الصفحات عن أفلاطون ، سواء منها النصوص التي كتبها أفلاطون بنفسه ، أو النصوص التي كتبت عنه ، ولست أذكر أنني وجدت فيها شيئاً من هذا الذي يتحدث عنه السيد المعلق . لا اذكر ان افلاطون ، او احداً من شراحه ، انكر وجود الطاولة القائمة امامه والتي يستطيع ان يبصرها ويلمسها وان يتأكد من وجودها بكافة الوسائل . واذا كان السيد المعلق قد نسب الى افلاطون ما لم يقله ، فانني ارجو منه بكثير من التواضع والاقرار بأنني لست اكثر من قارىء للفلسفة ، ان يحيلني الى النص الذي ذكر فيه افلاطون ، ولو على سبيل الاشارة العابرة ، او التلميح السريع ، بأن الأشياء ليس لها وجود . انني لا أحسب ان ثمة عاقلاً ينكر وجود المحسوسات . حتى باركلي الذي يضرب به المثل في انكار وجود المادة ، لم ينكر وجود المحسوسات . ولو عدنا الى اي كتاب يتناول هذه المسألة بالبحث ، فاننا سوف نجد الدليل والشاهد على ما نقول . ولعل الدكتور طيب تيزيني ان يتفضل ويعود الى كتاب يوسف كرم عن تاريـــخ

الفلسفة الحديثة ليقرأ ان انكار المادة ، حتى عند باركلي ، لا يعني انكار الأشياء. « اننا ندرك المحسوسات ولا نستطيع الشك في وجودها ، وندركها في الأماكن التي تبدو فيها » . بل ان باركلي نفسه يعبر عن ذلك قائلاً ان من عبث الأطفال ان يعتبر الفيلسوف وجود المحسوسات موضع شك ريثما يبرهن عليه بالصدق الالهي ... لو قبلت هذه المقدمة لشككت للحال في وجودي الخاص كما أشك في وجود الأشياء التي أبصرها والمسها الآن » .

انني لا ارغب في الاسترسال في هذه المناقشة التي كان في وسع السيد المعلق ان يعفينا منها لو انه عاد الى ابسط الكتب التي تؤرخ للفلسفة . ان هذه المناقشة سوف تبدو عقيمة مادام السيد المعلق مصراً على احالتنا الى افكار ونصوص لا نعرف اين قرأها او قرأ عنها .

ان الاحتكام الى النصوص هو القول الفصل ذلك ان النصوص تنطق بما فيها ، حتى ولو تطلب الأمر في بعض الأحيان المساعدة على انطاقها . أما ان نحيل القارىء الى افكار ليست لها ادنى علاقة بمن تنسب اليه ، فهذا محض افتراء على العقل ، وهزء بالقارىء ، واستخفاف بالحقيقة التي لابد وان نفترض اننا جميعاً نطمح الى امتلاكها .

★ ★ ★


يانصيب المعرض
يقدم
لصاحب الحظ
١٥٠٫٠٠٠ ل.س
٦٠٫٠٠٠ ل.س
٣٥٫٠٠٠ ل.س
٢٥٫٠٠٠ ل.س
يجري السحب كل يوم ثلاثاء من كل اسبوع